

دراسات لاهوتيّة

الأبُ جيوفانّي مارتِينتّي

دَواعي الإِيمَان في عَصْرنَا

الجزء الأوَّل

نقله من الفرنسية

الأب يوسف قوشاقجي

مراجعة

ريمون حرفوش



دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، ٣١/٣/١٩٩٣

دار المشرق ش م م - ص.ب. ٩٤٦، بيروت - لبنان

ISBN 2-7214-4811-0

التوزيع: المكتبة الشرقيَّة
ص.ب. ١٩٨٦، بيروت - لبنان

صدر هذا الكتاب في طبعته الأصليَّة بالإيطاليّة تحت العنوان التالي:

Giovanni Martinetti
Ragioni per credere oggi
Editrice Elle Di Ci
10096 Leumann (Torino), 1991.

فهرس المحتويات

مدخل

أراد مار توما أن يلمس بيده

سُئِلَت زوجة أينشتاين Einstein: «هل تفهمين نظريَّة النسبيَّة؟»، فأجابت: «لا، ولكنّي أعرف زوجي، وأعلم أنَّه يمكن الوثوق به».

إنّ الإيمان الدينيّ فتحة ننظر من زاويتها إلى معنى حياتنا وموتنا، والطريق الذي يجب سلوكه، وما لا نهاية له. ولكنّه فتحة يجب ألّا تُولى اهتمامًا إلّا إذا كانت ترتكز على دواعٍ متينةٍ إلى الإيمان بوجود الله الذي كشف عن نفسه، وأنّه يمكن الوثوق بالمسيح. ويمكن تقسيم هذه الدواعي إلى:

دواع علميَّة كتحليل التطوّر البيولوجيّ أو عقلانيَّة القوانين الطبيعيّة.

ودواعٍ فلسفيَّة كطموح الإنسان إلى ما هو أفضل دائمًا، وإلى القِيَم الخُلقيَّة، ذلك الطموح الذي درسه كيركغارد Kierkegaard وماريتان Maritain وبلُونْدِيل Blondel إلخ...

ودَواعٍ اجتماعيَّة كالتدهور الخُلقيّ في المجتمع منذ ابتعاده العمليّ عن الله.

ودَواعٍ خُلُقيّة كارتباط شريعة الأخلاق التي تُلزم جميع الناس بالإيمان بالله، ارتباطًا لا بدّ منه.

ودَواعٍ وجوديَّة كمعنى حياة الإنسان، والجواب العميق عن عظمى مشكِلاتها، اللذين يقدّمهما السيّد المسيح.

ودَواعٍ تاريخيَّة كإثبات صحّة المسيح التاريخيَّة، والأناجيل، وشخصيَّة يسوع الرائعة والاهتداءات التي تُجريها، ووجوه القدّيسين المشرقة والمفكّرين المسيحيّين الكبار الذين تبعثهم. في رأينا، حتَّى الآيات من الطراز الاختباريّ لا ينبغي إهمالها، وهي المعجزات الطبيعيَّة ويمكن أن يُرى فيها تأييد الله لما كشف عنه المسيح، والظواهر غير المألوفة المُثبتة التي تقدِّم إشارات إلى وجود الروح.

وبالرغم من وجود هذه الدواعي إلى الإيمان، فهناك اليوم، كثير من الملحدين أو من الذين يعيشون كأنّهم ملحدون، لا لأنَّ الله لا يُظهر نفسه، بل لأنّهم ينظرون إلى الجهة الأخرى.

إنّ بعض المؤمنين، ويا للأسف، يساعدونهم على تحمّل تصلّب رقابهم. فحياتهم تجرّهم إلى النظر نحو الجهة المعاكسة. ولكن في أكثر الأحيان، طريقتهم في الإيمان، وهي أشبه بطريقة أطفال الماضي الذين كانوا يؤمنون بالساحرة العجوز وبالطفلة ذات القبّعة الحمراء، لا تجذب إلى الإيمان.

وهكذا يشعر الملحد والمرتاب بالارتياح، وهما يعدّان نفسيهما ممثِّلي العقل تجاه المؤمنين الذين هم فئة **عاطفيَّة**.

ينتج من ذلك أنّ الناس في العالم الحديث يؤمنون أقلّ منهم في الماضي، وإن كان هناك دواعٍ كثيرة ومتينة إلى مزيد من الإيمان. ذلك بأنّ مفكِّرين ملحدين كبارًا أمثال فُويُرباخ **Feuerbach** وماركس

Marx وفرُويد Freud ونيتشه Nietzsche وسارْتر Sartre أدّوا، على غير قصد منهم، خدمة رائعة للإيمان وهم يستحقّون لذلك شكرنا الأبديّ، لأنّهم كنّسوا الأرض من جميع الترَّهات لبديلات الإيمان والدواعي المزيّفة إيّاه وتزويراته.

وهكذا مهَّدوا سبيل القاعدة لكبار المفكّرين المؤمنين في عصرنا، الذين أتَمّوا العمل باكتشافهم الدواعي الصحيحة إلى الإيمان، وبالتعبير عنها على وجه أوضح، وبتوطيدها.

ولكنّ معظم الناس ليس لديهم متّسع من الوقت لقراءة كبار المفكّرين المؤمنين ومواصلة بحوث بنَّاءة، مع أنّ لهم متّسعًا من الوقت لقراءة الوجيز في كلّ موضوع، حتّى في مؤلَّفات الملحدين الكبار. إنّ المنجم الأقلّ تنقيبًا في العالم هو منجم دواعي الإيمان بما يجعل للحياة معنى. وهكذا فإنّ المؤمنين، أو كثيرًا منهم لا يزالون في الجهة الحسنة من أجلِ داعٍ سيِّئ، يبدون وكأنّهم يفكّرون: حتّى ولو كان الإيمان، تجاه العقل وعالم الوقائع، مجرَّد فرضيّة ليس لها كبير أساس، فهو حقّ في محتواه. فعندما يشاء المرء أن يؤمن بوجود إلٰه كريم وفردوس، فإنّه ينجح في قهر اليأس ويكبح جماح الإباحيَّة، ويُحثّ على التضامن الإنسانيّ.

إنَّ كثيرًا من المؤمنين أشبَهُ بامرئ يحفظ حسابًا له في المصرف. فقد يكون حسابًا مكشوفًا، ولكنّه يخاف أن يحقّق الأمر. وعندما يُفكِّر في أنَّ حالته نظاميّة يشعر بارتياح يمكّنه من النوم.. وفي أثناء ذلك يواصل غير المؤمنين إعراضَهم عن الإيمان ويزداد عددهم لأنّ دواعي الإيمان تظهر غير متينة.

نحن رعاة النفوس ليس لدينا مُتَّسع من الوقت لنستعدّ لعرض دواعي الإيمان على المؤمنين عرضًا صالحًا، ولنجابه موضوعًا

يعرِّضنا لأن نضطرّ إلى الردّ على كثير من الاعتراضات المعقَّدة. فنرى أنّه من الأسهل أن نشرح في عظاتنا، إن شاء الله، حتّى بأفكار عميقة، ما يجب علينا أن نؤمن به من غير أن نمسّ إطلاقًا مسًّا خفيفًا التفصيلَ الخالي من السبب الذي من أجله يجب علينا أن نؤمن.

من الصواب أنّ في علم اللاهوت الكاثوليكيّ مقدّمات عقليّة للإيمان، ولكنّها في أكثر الأحيان نوافذ في الطبقة الثالثة أكثر منها أبواب. أوَدّ أن تكون هذه المحاولة بابًا أو بضعة أبواب يمكن فتحها حتّى لغير المطَّلعين، شريطة أن يريدوا شيئًا واحدًا وهو تكليف أنفسهم عناء إدارة المفتاح في القفل.

بما أنّي أوجّه كلامي إلى جمهور الناس، فسأستعمل حتّى بالاقتباس من المؤلَّفات العلميّة ومن المؤلِّفين من الطبقة الأولى، كلامًا وتشبيهات وعبارات من الحياة اليوميّة، وغايتي في ذلك أن أجعل القراءة سهلةً وفي بعض الأحيان مستحبَّة. إنّ موضوع دواعي الإيمان نَذرتُ له نفسي منذ أكثر من ثلاثين سنة. وكان من المفترض أن أُصبح فيه شبه خبير.

أراد الرسول توما، قبل أن يؤمن، اللمس بيده، فأذِن له المسيح بذلك.

اليوم يأذن المسيح لجميع الذين يبحثون بجِدّ عن الحقيقة بأن يلمسوا بأيديهم، لا بناءَ الإيمان كلّه بل الأُسس.

يقول يسوع: طوبى للذين يرون الداخل، فيستطيعون أن يؤمنوا من غير أن يحتاجوا إلى أن يروا بأعينهم ويلمسوا بأصابعهم. ولكنّه بدعوته توما إلى أن يلمس، أراد أن يقول: لا يحسن بالمرء ألّا يؤمن فيخسر القِيَم التي بها يرتبط كلّ من الحياة الحاضرة والحياة

المستقبلة، فالأفضل أن يؤمن مثل توما.

لا يعني المسيح بذلك أنَّ الإيمان يَقينٌ سهلُ المنال ولا وضوح ساطع للعقل. أجل، أن لا يقدِّم لنا براهين علميَّة ولا تحقيقات للمعاني، بل **علامات وإشارات** يمكنها بعون النعمة الإلْهيَّة وبعد بحث نزيه يقوم به العقل والحدس، أن تقود الإنسان الحسن النيّة إلى اليقين الخُلقيّ.

سأعرض في هذا الكتاب البصمات والآثار التي تبدو لي أَيسر فهمًا لإنسان اليوم، من غير أن أُهمل تلك التي تبدو لصالح قلّة الإيمان. وسيمكن القارئ آخر الأمر أن يحكم: هل الأحداث، إذا نُظر إليها بجملتها، هي لصالح الإيمان المسيحيّ أم لا، وبأيّ مقدار؟

الأب جيوفانّي مارتِنتّي اليسوعيّ
مودينا ٢٥ آذار ١٩٩١

الجزء الأوّل

أتُرى الله موجودٌ؟

١ - اللحظة التاريخيَّة الحاضرة

النظريّات الكبرى تقوم بإنضاج ثمارها

أنتَ حُرٌّ بألّا تعبأ بـ«التعليمات والطرق المرعيّة»، ولكن لا تشكُ إنْ لم تعمل الآلة.

كتب أندره فرُوسّار André Frossard: «إنَّ أجدادنا وآباءنا نظروا إلى السيّارات الأُوَل والطيّارات الأُوَل، والفرح يغمرهم بأنّهم في عالَم جعله العلم والتقنيّة والديموقراطيّة والثورة الجنسيّة والأَنَسِيَّة الملحدة جميلًا حرًّا آخر الأمر، وهم سعداء بأن يَرَوا «عددًا من الناس كبيرًا جدًّا يسير نحو مدينة الإخاء التي تُكشف من أجلهم في أبعاد التاريخ، وإليها يدفعهم إعصار من النبوءات»[١].

وعدت شيوعيّة ماركس وأنَسِيَّة نيتشه الملحدة بأنّ الإنسان، برفضه الله، يتحرَّر وينال السعادة، لا بل يصير هو بنفسه الله. تفتَّتت اليوم الكذبة الكبيرة فتاتًا.

كتب ماركس: الدِّين هو نتيجة ظلم الرأسمال العملَ، وسنده ذلك الظلم: فعندما يُدَمَّر الرأسمال يَسقط الدِّينَ من نفسه لأنَّه «بزوال علاقات الوجود القديمة ينتج في الوقت نفسه زوال الأفكار القديمة»[٢].

---

(١) A. Frossard, *Dieu existe, je l'ai rencontré*, Paris, Fayard, 1969, p. 71.

(٢) K. Marx et F. Engels, *Manifesto del partito comunista*, Ed. di cultura operaria, =

فتح النبيّ الأكبر الآخر في الغرب، فريدريك نيتشه على هذا النحو، سفره الخامس «نحن لا نخاف» من مؤلّفه **العِلْم المَرِح** بقوله: «إنَّ أكبر الأحداث الجديدة - إنَّ الله قد مات وإنَّ الإيمانَ بإله المسيحيّين أصبح غير مقبول - قد أخذ يُلقي ظلاله الأولى على أوروبّا». وليست نتائجه من أجلنا كئيبة مظلمة على أيّ وجه كان، بل أشبه بنوع جديد يعسر وصفه، من النور والسعادة والتنشيط والصفاء والتشجيع وبزوغ فجر جديد»[٣].

إنّ التبديلات الكبيرة في أوروبّا الشرقيّة التي بدأت العام ١٩٨٩، وهدم سور برلين رَمْز لها، أظهرت للعالم أنّ الشيوعيّة التي كانت تسعى بنشر مثل تلك القوّة، إلى محو الدين على وجه نهائيّ من الدنيا كلّها، هي التي سقطت حقًّا بَدَل الدين: «إنّ الدين المسيحيّ وبعد ألفَي عام، وبعد أن حاربته الشيوعيّة واضطهدته بأقوى وسائل الإكراه والإقناع، قد بقي، في حين أنّ الشيوعيّة انهارت على نحوٍ غير مُتوقَّع مثل قصر بُنِيَ منذ ٧٠ سنة فحسب، ولكن من غير أساس.

ما أرادت شعوب أوروبّا الشرقيّة محوه على نحو نهائيّ، هو أسطورة عالم أفضل ومجتمع أعدل وديموقراطيّة أكثر حقيقة كان عليها أن تتخلّص من الحريق الشيوعيّ. ما وعد به معلّمو الماركسيّة الجماهير، كان كذبًا وضلالًا، وقد أثبتت الأحداث ذلك على نحو واسع»[٤].

والأمر على عكس ذلك في ديموقراطيّات الغرب التي لا تزال تتعلّمَنْ مستلهمةً مبادئها من تعاليم نيتشه وفرُويد وسارْتر، بحيث

=Napoli, 1973, p. 55.

(٣) F. Nietzsche, *Opere*, V, 2, Adelphi, Milano, 1965, pp. 204-205.

(٤) Montanelli, «La grande menzogna cancellata», in *Il Giornale*, 5 déc. 1989, p. 29.

ينهار معنى الحياة والفرح بقدر ما ينمو الإلحاد العمليّ. إنَّه أشبه بفيضان يرتفع فيه الماء ويصدم الجدران فيجعلها تنهار. إنّ جميع المفكِّرين الكبار أمثال كامو Camus، ومالرُو Malraux، وموراڤيا Moravia، وساغان Sagan، وإيونِسْكو Ionesco، ودورّنمات Dürrenmatt، وغرين Green، ودي بوڤوار De Beauvoir، ومركوز Marcuse، وتُوفّلر Toffler، وكُوكْس Cox، ودلومو Delumeau إلخ... يشهِّرون بأزمة قيم هذه المدنيَّة التقنيَّة التي يُحوَّل فيها الإنسان إلى تشابك إنتاج واستهلاك، إلى عبد للمخدِّرات. ويمكن اختصارها كلّها بعبارة مالرُو الشهيرة: «موت الإنسان تَبع موت الله»(٥).

في الأيّام نفسها التي أعلنت فيها الشيوعيَّة إفلاسها، نشرت الصحف تحقيقًا لمؤسّسة ISTAT تناول الجرائم في السنوات ٨٠ في إيطاليا. فمن ١٩٧١ إلى ١٩٨٧ ازدادت جرائم القتل ٥١,٧٪، ومحاولات القتل ٥٣,٥٪، وجرائم الاعتداء على التراث ٨٧،٧٪، والسرقات ٧٦٪. إنّ ازدياد السرقات باستعمال السلاح والسلب وحجز الأشخاص ازداد بشكل هائل، إذ وصل إلى ٩٠٨,٤٪ أي إلى نحوِ ألف. وازدادت الاعتداءات على الأشخاص زيادة ضخمة تعكس القيمة الرفيعة التي تُجعل للخيرات المادّيّة(٦). وهناك قفزات مماثلة تعود إلى استهلاك المخدّرات ومرض السيدا (Sida) والطلاق والإجهاض وعدد المنتحرين. ومن ١٩٧١ إلى ١٩٨٧ ازداد فراق الزوجين ثلاثة أضعاف(٧).

---

(٥) A. Malraux, «Conférences à l'Unesco», dans *Etudes*, 1949, VI, p. 290.

(٦) *Il Giornale*, 29 nov. 1989, p. 8.

فكُلّ من الدنيويّة والإلحاد العصريّ يدور حول سوء فهم الحرّيّة. يُزعَم أنّ الإنسان بمعزل عن الله يصير حرًّا. أجل، إذا أقمنا لأنفسنا خُلُقيَّة على هوانا، أصبحنا أحرارًا في أن نكون أنانيّين، عُنُفًا، ظالمين مكبّين على اللذّة؛ وأن نكون دون الحيوان منزلة؛ وأن تدمّر أنفسنا.



ما كان الله سيّدَ الإنسان الذي يتصوّره هدّامو الإيمان. إنّه المثال الأعلى في الحُبّ والحرّيّة، المثال الأعلى وقد صار حقيقة. وهو أيضًا الخبير الوحيد الذي يستطيع أن يزوّد الإنسان وسائل المعرفة لتحقيق هذه القِيَم السامية على نحوٍ صادق، ويريد ذلك:

ليس الله الأب الطاغية، فيكون كلّ ما ليس ممنوعًا مفروضًا في نظره، بل هو، بكلّ بساطة، صانع البوصلة الداخليّة في الإنسان التي تشير له دائمًا إلى العدل والطريق المرسوم للوصول إليه.

ففي انهيار وعود الإلحاد، تبقى كلمات المسيح صادقة: «أنا النور قد جئتُ إلى العالم، فكلّ مَن آمن بي لا يبقى في الظلام» (يو ١٢/٤٦).

ينظر كثير من أهل أوروبّا إلى المسيح بعين الرضا، وهم، مع ذلك، يرون أنّه لا يليق بإنسان القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين بعد حين، التعلّق بشخص نصف أسطوريّ وبإيمانيّة عمياء مجّانيّة. ولكن هل يصحّ القول حتمًا إنّ الإيمان المسيحيّ السليم إيمانيّة؟ حتّى ولو كان بضعة مؤمنين لا يحسنون القول عن دواعي إيمانهم، أفلا يكون ممكنًا إيمانٌ مختلفٌ، عاقلٌ، مبنيٌّ على أحداث واقعيّة؟ هذا ما سيجبب عنه لاحقًا، عشراتٌ من أهل الفكر والعلم من المنزلة الأولى.

٢ - المسائل الأساسيَّة

الغريق الطائش بلا وثيقة

إستيقظ رجل في الخامسة والثلاثين من عمره، مصاب بجرح بليغ، وهو في غرفة من الطبقة السياحيّة في سفينة كبيرة تسير نحو جهة لا يعرفها.

كان قد التُقِط تائهًا على مركب شراعيّ في عُرْض جزر الأسور، فلمّا صحا ظلَّ مذهولًا لوجوده على هذه السفينة وجعل ينظر إلى ما حوله وهو ضائع، لقد فقدَ ذاكرته بحيث لم يعد يعرف اسمه وما كان عمله وأصله ومكان إقامته، ولم يكن لديه أيُّ وثيقة وكان يتكلّم الإنكليزيّة وقليلًا من الإسپانيَّة.

ولكنّه قد احتفظ برشده واستخبر عن المكان الذي تقصده السفينة، ثمّ أخذ يفكّر في بعض ملاحظات وجدها في ردائه الواقي من الريح.

مَن أنا؟ مِن أين جئت؟ إلى أين كنت متَّجهًا؟ لِمَ كنتُ في عُرْض جزر الأسور؟

وكان يشعر ببعض الأُلفة تجاه الطبيب الذي يعوده، ويتذكَّر بعض كلمات من لغة الطبّ. وكان يشعر بِمَيْل إلى عائلة أرجنتينيّة، وبالمودَّة إلى جانب ابنتهم الصغيرة، فلربّما كان طبيبًا وله ابنة صغيرة؟

مَن أنا؟ من أين جئتُ؟ إلى أين أنا ذاهب؟ أتُرى للحياة معنًى؟ أي، هل يمكن إرضاء أقوى رغائب الروح وأعمقها؟ هل هذا ممكنٌ عند جميع الناس؟

إنّ الإنسان الذي لا يعرف إلى أين يذهب هو عالَم اليوم الذي لم يجد إيمانًا نيِّرًا، أي **مؤسَّسًا على أسباب عقلانيّة ووقائع موضوعيّة**.

لِمَ السؤال عن الأجزاء لا عن الجملة؟

لا تخسر فرسك لتجري وراء حرذون. إنَّ مشكلة معنى الحياة هي مشكلة أساسيَّة ورئيسة بالنظر إلى سائر المشكلات التي يُجادَل فيها في المجالس النيابيَّة والمعامل والبيوت، وعلى أعمدة الصحف.

لقد وُلدنا ذات يوم من غير أن نطلب ذلك، في هذا المكّوك الذي يسير بين المجرّات وفيه حمولته من توقّعات، وأحلام، وآمال خابَت. فماذا يُنتظَر في نهاية هذه الرِّحلة؟ هل يُنتظر تفكّك المكّوك والهبوط على كوكب مجهول؟ هل هناك دواعٍ إلى الإيمان بأنّ تجاربنا ستُواصَل في أراضٍ جديدة وأنّ فائدتها، كما تعلِّم الديانات، ستكون منوطة بالكيفيَّة التي بها قمنا بتجارب الوقت الحاضر؟

هناك كثير من الأسئلة «تستوجب الجواب قبل غيرها»، وسهلة، ولأوّل وهلة أكثر واقعيّة وهي: العمل والتقدّم الاقتصاديّ والمهنة والصداقة والتسلية والصحّة... ولكن الموضوع الأدنى إلينا، أي الذي يهمّنا على وجه أقرب من سواه، ويستهوينا أكثر من غيره في سِرِّنا، والذي به يرتبط مجمل اتِّجاه اختياراتنا الحيويّة، هو

ذلك الموضوع.

إنَّ كثيرًا من الناس لا يُعنون بالبحث عنه لفرط سطحيّتهم. فهم مأخوذون بمصالح فَوريّة ومتعلّقون بالحاضر، ويفضّلون جَنْيَ الثمار البرِّيَّة من الأحراج وقضاء سائر الوقت في اللعب، على بذل جهدهم في فلاحة الحقول ضامنين لأنفسهم مستقبلًا. إنّهم في سنّ العشرين غير مبالين على وجه مفرط، وفي سِنّ الأربعين مشغولون على وجه مفرط، وفي سِنّ الستّين متعبون على وجه مفرط، وفي سِنّ الثمانين يكون قد فات الأوان.

وهناك آخرون وقد تلقّوا معرفتهم من المادّيّة واللاأدريَّة الشائعة، فيعتقدون أنّه من السذاجة والبساطة أن يسألوا أنفسهم هذه الأسئلة العملاقة، لأنّه لن يكون من جواب عنها مبنيًّا على أساس معقول، بل حلول عقائديّة تُقْبَل قبولًا أعمى.

ليس الأمر كذلك كما سَنَرى، فما من أحد أشدّ سذاجة وبساطة من الذي يُكبّ على اكتشاف الداعي إلى وجود أجزاء الآلة الفرديّة، ويُهمل البحث عن سبب الداعي إلى وجود جُمْلة الآلة[١].

المحافظة على البيئة ليست بجعلها خضراء فحسب

«يعيش الناس اليوم من غير فرح في الرفاهية. فبعد صَفٍّ طويل من إيصالات الكهرباء والهاتف والغاز لا يبقى سوى حساب الجنازة». (برُوس مارشال Bruce Marshall).

والحياة، من جهة أخرى، «لا تستحقّ أن نحياها إذا وجب علينا أن نقضيها في البحث عن راحةٍ ودخلٍ يكبران على نحو مطّرد»

---

(١) V. Messori, *Ipotesi su Gesù*, SEI, Torino 1977, pp. 22s.

(أورس فون بَلْتَسار) Urs von Balthasar.

«نتصرَّف في حياتنا كما لو كانت أسباب الراحة الضرورة الأهمّ، في حين أنّ ما هو ضروريّ هو شيء يجعل معنى لحياتنا» (فرنسوا مورياك) François Mauriac.

ولمّا كانت الحياة لا معنى لها بلا عدالة ومحبّة أَبَديَّتين، يصبح من الواضح أنّ المنفعة الأعظم يجب أن تحثّ الناس لا على الإيمان من غير دواعٍ كافية، بل على البحث عن دواعٍ كافية للإيمان.

يُنبِّه إريك فروم Eric Fromm إلى أنّه يسيطر اليوم عند الأكثريّة «الديانة الصناعيّة» التي تجعل الكائنات البشريّة عبيدًا للاقتصاد والآلة التي صنعوها بأيديهم ذاتها. و«ديانة علم القيادة والتحكّم Cybernétique» التي فيها حَوَّل الناسُ الآلات إلى آلِهة[٢].

فلذلك ليس التلوّثُ اليوم في الهواء والماء فحسب، بل في الضمائر. إنّه لا يُخرِّب الطبيعة الخضراء فحسب، بل على الخصوص يُعدي طبيعة الإنسان ويجرّدها من بواعث النشاط.

إنّ المؤلَّفات التي كان لها في السنوات العشر الأخيرة هذه تأثير كبير في الغرب، أمثال مؤلّفات فرانكل Frankl وفروم وكوكس ومركوز وسولجنيتسين Soljenitsyne وتوفّلر تلاحظ كيف يتلاقى اليوم الناس تلاقيًا يزداد زيادة مطّردة في عدم ارتياح جماعيّ. إذ نجد عدم الارتياح هذا في الأحياء الأنيقة والطبقات الشعبيّة والمكاتب والمعامل والمدارس وأماكن اللهو.

---

(٢) E. Fromm, *Psicanalisi della società contemporanea*, Ed. Comunità, Milano, 1976, pp. 339s.

وليست المسألة انهيارًا سبّبته مصيبة شديدة أو إخفاق كبير، بل مَلَلٌ من الحياة وخيبة أمل وفقدان دواعي النشاط من غير سبب ظاهر. حتى أُناس غير منطوين على أنفسهم يغوصون كلّ يوم في التيّار الجارف من النشاط، وحتّى أُناس طبعهم فَرِح واجتماعيّ يخافون البقاء وحدهم في عزلة تجاه السؤال الذي يظنّونه بلا جواب: «ما معنى الحياة؟»، لِمَ تُنتج آلة الزمان الجهنّميّة الصداقة والجمال والصحّة والحبّ، ثمّ في بعض الأحيان تدمّر كلّ شيء في طرفة عين؟

«ذلك لُغز، فلا تفكِّرنَّ فيه. فلنقتنص السعادة قنصًا أو هذا الشيءَ القليلَ من الخير ما زال هناك ثمَّ...» وهذا يساوي أن نفكِّر في أنَّ الحياة لا معنى لها. ولكنّ الفرضيّة أنَّه يمكن الناس أن يجدوا قيمة عليا تُعوِّضهم بلا حساب من انهيار القصور الخياليّة لا تخطر لهم ببال.

لقد استحوذ على ذهنهم مذهب اللاأدريَّة الشائع فيعتقدون أنّ ما بعد الموت لا أساس له وخياليّ مثل حيَّات البحر والأُسود المجنَّحة، وقد أوجبته ضرورة نفسيّة: إنّه قيمة لا يزال بعض الناس يتخيّلونها لسبب واحد هو أنّ نظرتهم إلى الأمور تساعد على اندمال جروح القلب وتخفّف على قدر ذلك من فظاعة الفراغ(٣).

إنَّهم يعيشون دائمًا على شَفا الانهيار العصبيّ وخاصّة الانهيار الروحيّ، فيسهل فهم أنّهم في أوّل صدمة من صدمات الحياة يسقطون. من أين يأتي كلّ هذا القلق والرهبة والنوبات العصبيّة والكُتل المعقّدة التي لا ينجح الأطبّاء النفسيّون في حَلّها، وهذه الأزمات والاضطرابات والإعياءات والأرق والغمّ واليأس؟

---

(٣) A. Knowles, *Alla scoperta della fede*, Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1986.

والانتحارات والمخدّرات؟

وهناك ما هو أشدّ من المخدّرات وهو ينتشر انتشارًا يدعو إلى القلق، إنَّه فقدان القيم بالمطلق الذي يقدِّمه المجتمع الاستهلاكيّ إلى الشبّان.

لا بدَّ من الاعتراف بأنّنا نعيش في عالم خابَ أمله. حتّى ولو ظلَّ الدخل يرتفع ارتفاعًا مُطَّرِدًا، ولو ظلَّ الجنس يتحرّر تحرّرًا مطَّرِدًا، فإنَّ الناس يسكنون بيوتًا لا أساس لها، ويسيرون في شوارع بلا غاية، ويأكلون أطعمة لا غذاء فيها، ويرقصون من غير يقين رقص الحياة المسعور وسط اختلاط المشاعر، يعرضه على المسرح تبديل الأشياء الدائم.

«أجل، إنَّ الإنسان في غمّ، لأنّه في وسط الارتقاء المطَّرد، ارتقاء الجماهير، يصير، بين لحظة وأخرى، أكثر عزلة». (فرانتس كافكا Franz Kafka)

«الغمّ والشعور بالقَدَر هما صميم قلب الإنسان، ومنهما تولد جميع المخاوف، حتّى الخوف من الموت» (أندره مالرُو)

«يخاف المرء فراغه» (تشيزَرِه پاڤِيزِه Cesare Pavese)

«هناك عالم يُهيمن عليه قدَر مصير أعمى، وعبوديّة الأهواء الفِطريَّة» (كارلو ليڤي Carlo Levi)

قد يكون بؤس البلاد المتطوِّرة الحقيقيّ في أنّها لا تعرف شيئًا أكيدًا عن الهدف الكبير الذي من أجله بُرْمِجْنا.

لِمَ الإيمان بالله لا بالإنسان وحده؟

«أين نحن؟ من أين جئنا؟ إلى أين نذهب؟ ما الذي يُشغلنا؟»: بهذه الأسئلة الإنسانيّة العامّة، بَدَأ إرنست بلوخ Ernst Bloch

(١٨٦٥-١٩٧٧) وهو فيلسوف ماركسيّ منشّق وأُستاذ في ليبسيك، كتابه الرائع **مبدأ الرجاء**(٤).

هل الأجوبة التي يُجيبها الإيمان المسيحيّ لها أساس في الوقائع والمنطق أم يجب قبولها والعيون مُغلقة؟ ألم تَصِل المسيحيّة إلى نهايتها؟ ألا يجب القول نفسه في الإيمان بالله؟ هل من مستقبلٍ للدين؟ ألا يُمكن قيام أخلاقيّة حتّى من غير دين؟ أليس العلم كافيًا؟ أليس الله في جوهره انعكاسًا للإنسان؟ (فويرباخ)، وأفيون الشعب؟ (ماركس)، وعزاءً باطلًا للمغلوبين؟ (نيتشه)، ووهمًا لأناس لا يزالون في مرحلة الطفولة؟ (فرويد).

أَليس الإلحاد مثبتًا؟ أَلم ينتَهِ الأمر بعلماء اللاهوت أنفسهم إلى التخلّي عن البراهين على وجود الله؟ أو أَيجب الإيمان من غير دواعٍ؟

لِمَ نؤمن بالله ولا نؤمن بالقِيَم الإنسانيّة فحسب، من حرّيّة وإخاء ومحبّة؟ لِمَ يُزاد إلى ثقة الإنسان بنفسه الثقة بالله؟ ولِمَ يزاد إلى العمل الصلاة أيضًا؟ وإلى العقل الكتابُ المقدَّس أيضًا؟ وإلى هذا العالم عالمُ ما بعد الموت؟ ما معنى الإيمان بالله اليوم؟

ليست هذه الأسئلة هذَيانًا أو فضولًا فهي تتناول جوهر حياتنا نفسها، فلا يجوز إذًا أن نبقى غير مُبالين أو نزعم أنّه ليس لدينا وقت للاهتمام بها. ليست هذه الأسئلة مشكلات غير قابلة للحلّ أو تقتضي قدرات فلسفيّة خاصّة، فقد وجد آلاف من الناس العاديّين الجواب عنها.

وليست هذه أسئلة بوسع كلّ امرئ أن يأتي بجواب عنها من

---

(٤) E. Bloch, *Das Prinzip Hoffnung* (1959), Frankfurt/M, 1967.

عنده لا أساس له. فقد عرض فلاسفة وعلماء ومفكّرون وكتبة دواعي إيمانهم.

هناك فلاسفة أمثال كانْت Kant، ومان دي بيران Maine de Biran، ومازّيني Mazzini، وروسميني، وجيوبرتي Gioberti، وكِيركِغارد، وغراتري Gratry، وأولّي لاپْرُون Ollé Laprune، وبوترو Boutroux، وبلونديل، وشيلير Scheler، وبِرغسن Bergson، وياسپرس Jaspers، ومرسال Marcel، وتشيستوف Chestov، وبرديايِف Berdiaeff، وكارليني Carlini، وغُوتسو Guzzo، ولاڤيل Lavelle، ولو سان Le Senne، وماريتان.

وهناك علماء أمثال كارّيل Carrel، وأينشتاين، ورايليغ Railegh، وسيڤيري Severi، وفانتاپّيه Fantappié، وماركوني Marconi، وكارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung، وتيار دي شاردان Teilhard de Chardin، وملّيكان Millikan، وإكليس Eccles، وأيغن Eigen، وكاستلر Kastler، وعبد السلام Abdus Salam، وإريكسُن Ericson، وفرانكل، وزيكيكي Zichichi، وروبيا Rubbia.

وهناك كتبة أمثال تولستوي Tolstoï، ودوستويڤسكي Dostoïevski، وبلُوا Bloy، وكلوديل Claudel، وبرنانوس Bernanos، وإيليوت Eliot، وتشيسترتُن Chesterton، ومورياك، وسولجنيتسين Soljenitsyne، وغراهام غرين Graham Green، وشوساكو إندو Shusaku Endo، وأوكيهيتو Okihito، وسولوڤييف Soloviev، وسيغريد أوندست Sigrid Undset، وپاپيني Papini، وأونغاريتّي Ungaretti، وكرونان Cronin، وفروسّار، وتستوري Testori، ومونترلان Montherlant، ومكسيموف Maximov،

وپوميليو Pomilio، وسنغر Singer، وروث Roth، وأوليڤي Ulivi، وكيُوزَنُو Chiusano.

كتب جان غيتّون: «إنّ ضلال عصرنا هو الإيمان بأنّ مشكلة الله هذه عائدة إلى الإيمان وحده، أو إلى العاطفة أو إلى المراهنة. الصواب إنّها مشكلة معروضة على العقل»(٥).

حتّى الذي حلَّ المشكلات بفعل إيمان سينفعه أن يعرف أدلّته المنطقيّة. فالإلحاد اليوم، شأنه في كلّ وقت، يقتضي أن يعرف المرء دواعي الإيمان بالله. وإذا أردنا أن نساعد الذي لم يبلغ الإيمان وأن نحفظ إيماننا من الضعف، وجب علينا أن نفحص أُسسه، لا العواطف فحسب بل الوقائع التي يمكن تحقّقها، ولا الحدس فحسب بل العقل أيضًا.

بلاز پسكال ودواعي القلب

العقل هو على وجه خاصّ أصل الرياضيّات والعلوم التجريبيّة، وهو يُتيح لنا معرفة العالم الخارجيّ والتسلّط عليه بالتقنيّة، ويساعدنا أيضًا على اكتشاف بضع حقائق أساسيّة تتناول طبيعتنا ومعنى الحياة، عن طريق علم النفس وعلم الأخلاق وعلم المجتمع والفلسفة النظريّة وعلم خفايا النفس وعلم اللاهوت الأساسيّ.

الحدس تقويم عامّ للأشياء من غير تحليل واعٍ لمظاهرها الفرديّة. وهو، كما نبّه پسكال إلى الأمر، يكتشف الحقائق قبل العقل حتّى في الميدان الرياضيّ والعلميّ، ويدلّه على الطريق الذي يجب سلوكه ليؤكّد اكتشافاته.

---

(٥) J. Guitton, *Ce que je crois*, Paris, B. Grasset, 1971, p. 107.

إنّ الحدس في مجال الروح الخاصّ به هو ينبوع العلوم الخلقيّة والروحيّة وهو فيها عون للعقل كبير، وينبوع الفلسفة الوجوديّة والفنون والأُنسِيَّة والصداقة العميقة والحبّ والإيمان. والحدس يُدخلنا في معرفة قلب الإنسان الصميمة ولا سيّما شخص الإنسان نفسه، والعالم المعقّد عالم الغرائز والعواطف وأسمى الطموحات. كان بلاز پاسكال أوّل مفكّر شرح عقيدة الحدس على أن لا بُدَّ منه مع الإشراق الإلٰهيّ للوصول إلى الإيمان المسيحيّ. ولم يُكِنَّ أيّ عداء يُذْكَر للعقل، وكان يسمّيه أيضًا روح الرياضة الهندسيّة. وكان ذا مقدرة ثاقبة على التفكير، وعالِم رياضيّات كبيرًا وعالِم فيزياء ومهندسًا. غير أنّه اهتدى في العام ١٦٦٤ إلى إيمان عميق مشرق، فلاحظ أنّ العقل غير كافٍ بقوّته وحدها للوصول إلى الإيمان، وأنّ العقلانيّة تحول دون ذلك. فلا غبار على العقل المفكّر شرط أن يعمل مع «الذهن المُرْهَف» وهو الحدس الروحيّ.

وسمّى پسكال الحدس الروحيّ أيضًا «الشعور» أو «القلب» ولكن لا بمعنى العاطفة. العاطفة عمياء في حين أنّ الحدس يبصر. فالحدس يرى على سبيل المثال أنّ الاستقامة والحرّيّة والعدالة، هذا العمل الخاصّ من العدالة أو الحرّيّة أو الاستقامة توافق موافقة تامّة طبيعتي الروحيّة وطبيعة كلّ إنسان حقيقيّ ولو كلّفت تضحيات كبيرة. يشعر الحدس بذلك لأنّه يراه رؤية مباشرة من غير حاجةٍ إلى تفكّر ولا إلى براهين علميّة، يراه على نحو أوضح ممّا لو كانت هذه البراهين قائمة، وبمعنى أنّ هذه الرؤية في بعض الأحيان ترافقها المشاعر. فبهذا المعنى يمكن أن يُسمّى إيمانُ الحدس شعورًا دينيًّا.

إنّ الحدس على قدر ما ينظر إلى الإيمان نفسه يمكنه أن «يشعر» بأنَّ عقيدة ما هي سامية توافق ضميره الخاصّ، ضروريّة للعمل بالفضيلة ولصحّة الروح، وينبوع للسلام والارتياح الباطن،

وتوافق اختبارات نفسه واختبارات سائر الناس، تلائم جمال الطبيعة وقِيَم الحياة الإنسانيّة، وسبب لتقدّم روحيّ وحكمة وأفكار مشرقة، وشرح لمشكلات الوجود الكبرى والملازمة، وتجعل معنى لحياة الإنسان، ولذلك فمثل هذه العقيدة لا بُدَّ لها من أن تُلائم لا رغائبنا وضميرنا فحسب، بل الحقيقة الخارجيّة. فالحدس، بعبارة أخرى، يشعر بأنَّ هذه العقيدة حقّ.

«للقلب بهذا المعنى دواع لا يعرفها العقل، وهذا ما يعرفه الناس في أشياء كثيرة جدًّا»[٦]. «لا نعرف الحقيقة بالعقل فحسب، بل بالقلب أيضًا»[٧]. «وعلى هذه المعارف، معارف القلب والغريزة، يجب على العقل أن يعتمد ويبني جميع كلامه»[٨].

إنّ أزمة القِيَم الخُلُقيّة هي لذلك متّصلة بأزمة الإيمان بسبب العقلانيّة وانحطاط «الحدس الروحيّ».

أَراد العالِم إنريكو فرمي Enrico Fermi الفائز بجائزة نوبِل للفيزياء العام ١٩٣٨ أن يبرز قيمة الحدس فروى أنّه لا يزال يذكر متأثّرًا، مساء يوم ربيعيّ في أومبريا، حيث كان بالقرب من فلّاح مستلق على العشب، يهتف وهو ينظر إلى السماء المرصّعة بالنجوم: «ما أَجمل هذا المنظر، ومع ذلك هناك أُناس يقولون: ليس لله من وجود». عَلَّق العالِم الكبير على ذلك بقوله: «لم يكن يعرف هذا الفلّاح الأومبريّ حتّى ولا القراءة، ولكن في عقله، وقد صانته حياة استقامة وعمل، زاوية صغيرة ينزل إليها نور الله بقوّة، لا تقلّ كثيرًا

---

(٦) B. Pascal, *Pensées*, texte établi par L. Lafuma, Edit. du Seuil, 1962, p. 192, Pensée 423.

(٧) المرجع نفسه، ص ٧٨، الخاطرة ١١٠.

(٨) المرجع نفسه.

عن قوّة نور الأنبياء وقد تفوق قوّة نور الفلاسفة»[٩].

لا طيران بجناح واحد

إنّ الإيمان بالحدس وحده والذي لا يعرف معرفة صريحة دواعي الإيمان، هو الإيمان الأكثر شيوعًا وانتشارًا بين المؤمنين. صدق جان غيتّون عندما كتب: «إنّ المسيحيّين الذين يستطيعون إثبات إيمانهم بالأدلّة هم قلّة ضئيلة جدًّا بالقياس إلى الجمهور العظيم من المؤمنين»[١٠].

هذا أمر يُمكن أن يفهمه الناس البسطاء الذين حرموا الدرس. فالإيمان بالحدس وحده له يقينه الأدبيّ وصحّته، لكنّه ناقص على الإطلاق في نظر الأشخاص حتّى ذوي الثقافة الوسط الذين يؤلّفون اليوم السواد الأعظم من أهل الغرب.

إنّ ذلك الإيمان عرضة لعيبين كبيرين: أوّلهما إنّه يساوره الخوف بسهولة أكبر على قدر ما تكون أسباب الوضوح عنده ذاتيّة محض، لأنّه ليس بوسعه تفحّص حقيقته الباطنة بعرضها على حقيقة الأحداث الخارجيّة. والعيب الثاني هو أنّه لا ينجح في إبقاء الحوار قائمًا مع غير المؤمنين في مجال الإيمان. لأنّ هؤلاء لا يعترفون إلّا بحقيقة الأحداث الخارجيّة والعقل الذي يؤيّد لديهم، وإلى حدٍّ ما لدى المؤمنين أنفسهم، الرأي القائل إنّ الإيمان ليس إلاّ عاطفيّة وإيمانيّة عمياء، لذلك ترى أنّ رعاة النفوس وعلماء اللاهوت الذين يشرحون فقط حقائق الإيمان من دون دواعيه هم في نظرنا على ضلال.

---

(٩) M. Micheli, E. Fermi et L. Fantappié, *Ricordi personali* «Responsabilità del sapere», 1979, XXXI, p. 23; cit. in C. Fabro, *Le prove dell'esistenza di Dio*, La Scuola, Brescia, 1989, p. 448.

(١٠) J. Guitton, *Ce que je crois*, cit., p. 119.

أجل، إنّ الإيمان العاقل ينشأ، على عكس ذلك، من الاختبار المعتاد في أعماق نفس الإنسان، تراقبه الأحداث الخارجيّة والعقل، فَيُثبت هكذا أنّ الله هو أصل كلٍّ من الروح والعالَم الخارجيّ، وأنّه قد ترك في كلّ منهما إشارات وأثارًا تدلّ على حضوره[11]. في رأي پسكال: «ثمّة إفراطان: نَفي العقل، وقبول العقل وحده»[12].

إنَّ الإيمان العاقل ليس اليقين العقلانيّ الذي نحصل عليه بالإثبات العلميّ.

يجعل پسكال شأنًا عظيمًا لما نلاحظه من أنّه كثيرًا ما ينقص اليقين العقلانيّ لا في موضوع الدين فحسب، بل في المسائل الأعظم أهمّيّة في الحياة اليوميّة، فَنُضطَرُّ على نحوٍ متواصل إلى أن نعزم على الأمور ونحن غير واثقين، أو على أساس أحداس غير مثبتة. «ولو كان يجب علينا ألّا نعمل شيئًا إلّا لما هو ثابت، لكان يجب علينا ألّا نعمل شيئًا للدين لأنّه غير ثابت. ولكن، كم من الأشياء يعملها الناس من أجل ما هو غير ثابت: الرحلات في البحر والمعارك! فأقول إذًا يجب على المرء ألّا يعمل شيئًا أبدًا، لأنّه ما من شيء ثابت، وليس الدين أعظم ثباتًا من أنّنا سنرى يوم غد. والحال عندما يعمل المرء لِيوم غدٍ ولِما ليس بثابت، فإنّه يعمل بعقل لأنّه يجب عليه أن يعمل لما ليس بثابت بموجب قانون الاحتمال وهو قانون مثبت»[13].

---

(١١) Cf B. Welte, *Cos'è credere*, Morcelliana, Brescia 1983; U. Casale, *Introduzione alla fede*. Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1979; J. Ratzinger, *Fede*, in *Elementi di teologia fondamentale*, Morcelliana, Brescia, 1986.

(١٢) B. Pascal, *op. cit.*, p. 110, Pensée 183.

(١٣) B. Pascal, *op. cit.*, p. 273, Pensée 577.

فالمقصود هنا هو ما يسمّيه كانْت «العقل العامل» الذي به يصل المرء إلى وجود الله والحياة ما بعد الحياة الأرضيَّة. كتب كونغ: «في مسألة وجود الله أو عدم وجوده لا يُقتضى حكم العقل المحض، بل عزم يعزمه الشخص كلّه»(١٤).

منذ كانْت حتّى أهل العصر الحديث: ڤتغنشتاين Wittgenstein وكارناپ Carnap وپوپِّر Popper وكُوهن Kuhn، حطّ من شأن العقل قسم من الفلاسفة المعاصرين. غير أنّه لا شكّ في أنّ الذين حاولوا القضاء عليه فعلوا ذلك وهم يستعملون أداة المعرفة نفسها. فلو كان خاليًا من كلّ ما يدعو إلى الثقة به كما يقولون، لما كان لاستدلالهم كبير قيمة.

لذلك فإنّ خصوم العقل يحاربون أنفسهم أكثر ممّا يحاربون العقل. فإذا صحّ أنّ العقل ليس الله كما شاءت الثورة الفرنسيّة والعقلانيّون، فإنّه على أقلّ ما يُقال، ليس أعمى مسكينًا كما يحاول غيرهم إثبات ذلك وهم يستعملونه في الوقت نفسه.

فكلّما نفكّر كما يجب، نرى أنّنا ندرك الحقيقة، ندركها لا في مجال الظواهر الطبيعيّة بل في ما يختصّ بالموضوعات الخُلُقيّة أو النفسيّة أو الاجتماعيّة.

قد يصحّ ما يؤيّده الفلاسفة المذكورون آنفًا، في الكلام على العقل المحض بمعزل عمّا يتمّمه من الحدس. إنّه مثل رِجل لا تمشي وحدها، أو مثل عصفور لا يطير بجناح واحد.

إنّ الإيمان العاقل يبقى متّصلًا بالأحداث الخارجيّة والعلوم. يأخذ أدورنو Adorno بحقّ على دين وعلم لاهوت يتحاشيان عن

(١٤) H. Küng, *Dieu existe-t-il?*, Seuil, Paris, 1981.

استعمال التشبيه باكتشافات العلوم الطبيعيّة. «كان الدين في حقبة من الزمان يُلحّ في مسألة حقيقته حتّى بالنظر إلى علم الكونيّات، على قدر ما كان يَعْلَم أنّ مثل هذا الادّعاء لا يمكن فصله عن مضمونه المادّيّ الملموس من غير أن يُنزَل به ضرر. فما إنْ يترك موضوعه الملموس حتّى يتعرَّض لخطر التبخّر في الرمزيّة المحض، الأمر الذي يعرّض للخطر حتّى ادِّعاءَه الحقيقة»(١٥).

تأتي الثقة الأساسيّة في العقل البشريّ، كما يلاحظ أينشتاين، من التثبّت المتواصل من أنّ جميع القوانين الطبيعيّة هي عقلانيّة. إنّها تلتزم بالمقاييس التي يلتزم بها العقل. «من الثابت أنّ في أساس كلّ عمل علميّ يتّصف بشيء من الدقّة، يقينًا أشبه بالشعور الدينيّ، ومفاده أنّ العالَم مؤسَّس على العقل ويمكن فهمه»(١٦).

الـ تاي - كي Tai - Ki والتوفيق بين المتضادّين

يُميِّز الثقافة الصينيّة وَلَعُها الشديد بائتلاف المتضادّين والمتناقضين، لاحظ ليونارد بوف Léonard Boff: نحن أهل الغرب آتون من تقليد نفي. فالمبدآن الأساسيّان هما مبدأ الذاتيّة ومبدأ التناقض. من المفيد أن نتعلّم جَدَليَّة التضمين، نظرًا إلى أزمة الفكر الغربيّ.

تعمل الثقافة الصينيّة معتمدة على هذا المبدأ: مبدأ التضمين والائتلاف القائم بين جميع المتضادّين السماء/ الأرض، الذكر/ الأنثى، الفارغ/ المملوء، الحلو/ الملح إلخ...

(١٥) Th. W. Adorno, *Vernunft und Offenbarung*, Frankfurt, 1969, p. 27.

(١٦) A. Einstein, *Comment je vois le monde*, Flammarion, Paris, 1958, p. 210.

فالمتضادّان يمثّلهما رمز الـ تاي - كي، وهو دائرة على شكل رأسَيْ سمكة مُمثّلَين على نحوٍ فيه يلتحم طرف صورة برأس صورة أخرى. فمتضادّا الـ تاي - كي هما: الـ يين مبدأ الأُنثى، والـ يانك مبدأ الذكر، ويجب عليهما أن يتّحدا دائمًا ويُتِمّ أحدهما الآخر. والآن، **لا أزعم أنّ الفكر الصينيّ موافق موافقة تامّة** ولكنّي أستوحي من هذا القول فأوَدّ أن ألاحظ أنّ الإيمان العاقل هو عند التحقيق الجمع بين مبدأ الذَّكر - العقلانيّة/ العلم، ومبدأ الأُنثى - الحدس/ العاطفة.

إنّ النظرة الجدليّة هذه تُتيح الفرصة لبناء الذاتيّة والوحدة على نحو مفتوح ومتنبّه دائمًا لأنّها تحتوي مضادّها، فتلزم السلوك البشريّ بأن يكون مشاركًا نشيطًا مستعدًّا دائمًا أبدًا لأعمال جمع جديدة.

يقول لاو - تسي Lao - tse في الـ تاو - تي - تشينغ، وهو كتاب التاويّة الأساسيّ: «الـ تاو - الطريق - هو أشبه بوعاء فارغ/ ولكن يمكن الاستقاء منه/ من غير الاضطرار إلى مَلْئِه/ فلا قَعْرَ له: إنّه أبو كلّ شيء/ فيه جميع الخشونات تُلَطَّف/ وجميع العُقد تُحَلّ/ وجميع الانعكاسات تخفّف/ وجميع العقبات تُنَحّى/ إنّه ينبوع عميق لا ينضب أبدًا»(١٧).

إنّ دماغ الإنسان مقسوم قسمين، لقد اكتشفت بحوث حديثة(١٨) أنّ قسم اليسار يستعمله صاحبه ليُشغل القوى العقليّة وللعمل التقنيّ، والرجل هو الذي على الخصوص يستعمله، في

(١٧) تاو-تي-تشينغ (القرن ٦ قبل الميلاد)، ص ٤.
(١٨) قام بها روجر سپيري Sperry الحائز على جائزة نوبل العامَ ١٩٨١ وزملاؤه في «معهد كاليفورنيا التكنولوجيّ» بمدينة پاسادينا.

حين أنَّ قسم اليمين ينشِّط الحدس والقدرة العاطفيّة والشعوريّة والمرأة هي التي تستعمله على وجه العموم.

ولكن الشخص الذي يستعمل كلًّا من القسمين استعمالًا متوازنًا هو وحده يُطَوِّر شخصيّته تطوّرًا تامًّا، ويقهر على وجه أحسن شدائد الحياة وينال هذا القليل من السعادة الممكنة، وإذ يسعى إلى لله، يدرك هدف هذه الحياة الأهمّ وهو الإيمان العاقل.

عاش الفَرْق

يُلاحظ علماء النفس أمثال يونغ وبادوين **Badouin** أنّ الحياة في عصرنا، على الرغم ممّا ينادى به من مساواة بين الجنسين، تتّصف بتفوّق عقليّة الذّكر ومثاليّتة النفسيَّة. لقد كانت المرأة في الماضي تحتفظ بأُنوثتها النفسيّة وتأثيرها في الرجل، بعامل الحُبّ، وإن كان الرجل متسلِّطًا عليها في الظاهر، فهي تميل اليوم إلى المساواة به، لا في العمل والحقوق فحسب - كما يقضي بذلك العدل - بل في طريقة التفكير والشعور أيضًا. تتَّجه الناس اليوم إلى **المساواة النفسيّة** بدل التكافؤ.

وهكذا يحدث تضخّم في المظاهر العقلانيّة والتقنيّة في الاقتصاد والقوانين والحقّ والحُبّ الجسديّ السريع الزوال والتضادّ والعنف والحرب. وفي الوقت نفسه تضمر المظاهر الإنسانيّة التي ترجع إلى أصل أُنثويّ مثل الحساسيَّة والشِّعر والحَدْس والشعور بالجمال والحبّ الثابت والوحدة العائليّة والإِخاء والإيمان الدينيّ. يبدو أنّه في هذه المساواة تكمن جذور أزمة المدنيَّة التي يجتازها الغرب اليوم(١٩).

---

(١٩) AA. VV., *La donna nella chiesa oggi*, Elle Di Ci, Leumann (Torino), 1980; P. =Y. EMERY, «Féminité de l'Eglise et féminité dans l'Eglise», dans *Etudes*

«على صورة الله خَلَقه، رجلًا وأنثى خَلَقهما» (تك ١/٢٧).
هكذا عَرضَ الكتاب المقدَّس خليقة إنسانيّة هي صورة الله، باعتبارها رجل - امرأة. إنّ الحبّ العميق الثابت بينهما يُتيح تماثل الواحد مع الآخر، دمج المصالح والميول وتشاركها، وتكامل نفسيّ وروحيّ متبادل[20].

ويجري خلاف ذلك عندما تكون الأفضليّة لمظاهر الحبّ الجسديّ التي خلقتها العقليّة الإباحيّة الحاضرة، فيصير الحبّ العميق نادرًا جدًّا أو صِفرًا ويسقط التكامل رجل - امرأة. لقد فَقَد الرجل والمرأة القِيَم الروحيّة المثاليّة التي لو اتّحد بعضها ببعضها الآخر لأنشأت صورة الله، لذلك يشعر الرجل والمرأة بصعوبة أكبر للإيمان به.

مدنيّة أكثر انسجامًا

قد تكمن تنقية المدنيّة الغربيّة في انسجام القيم الروحيَّة والخُلقيَّة عند الرجل والمرأة واندماجها المتبادل. وهذه هي بعض الأزواج لمظاهر الحقيقة التي يجب أن تتكامل من أجل تقدّم الإنسان والمدنيَّة، ومن أجل الحصول على إيمان عاقل.

الرجل	المرأة
المعرفة العلميّة	الإيمان بالحَدْس
الموضوعيَّة	الذاتيَّة
معرفة الأشياء	معرفةُ الإنسانِ نفسَه
الحسّ العمليّ	الجمال

théologiques et religieuses 1978 (53), pp. 94-95; Ch. BADOUIN, *Psicanalisi* = *del simbolo religioso*, Roma, 1959.

(٢٠) R. Piret, *Psicologia differenziale dei sessi,* Roma, 1973.

الرجل	المرأة
المهارة التقنيَّة	الفضائل الاجتماعيَّة
العمل	التَّأَمُّل
التوجُّه إلى الخارج	التَّوجُّه إلى الباطن
العدل	المحبَّة
روح الدقَّة الهندسيَّة	روح الدقَّة
الدقَّة	العمق
التحليل	التركيب
الرياضيّات	الشِّعر
الفلسفة	التصوُّف
الذَّكاء	العاطفة
العمل	العائلة
الاقتصاد	الحبّ الأَخويّ
المادَّة	الروح
القانون	الحرِّيَّة
العقل	الحَدْس
العلم	الإيمان

صاحب المهنة والشاعرة

العقل والحَدْس هما أشبه بصاحب مهنة وشاعرة: فالأوَّل عمليٌّ جدًّا لكن جافّ، والأُخرى ذات جناحين لكنّ قدمَيها ليستا على الأرض. فإذا بقيا منفصلين كلٌّ منهما يعمل لحسابه، فكلاهما ينقصه شيء أساسيّ لازدهار شخصيّته.

فالعقل من غير حدس روحيّ يولِّد، في عالم اليوم، العقلانيَّة

والوضعيّة واللاأدرِيَّة واللامبالاة، وتطوّر العلم والتقنيَّة تطوّرًا ضخمًا، إذا ما اقترن بانعدام الإيمان الحقيقيّ يُنتج التخلّف الخُلقيّ واضطرابًا عميقًا على مستوى الفرد والمجتمع.

والحَدْس الدينيّ من غير معرفة دواعي الإيمان هو ينبوع إيمانيّة معظم المؤمنين، أي ينبوع الإيمان على أنّه واقع ورأي خاصّ. إنّه رأي خاصّ بكلّ معنى الكلمة، يصلح لي ولكن لا لجميع الناس، فيصلح لحياتي الباطنة ولا يصلح لعالَم الوقائع. إنّه إيمان أشبه، في أعين غير المؤمنين، برغبة في الإيمان ليس لها أُسُس موضوعيَّة.

لقد نادى المسيح والرسل بإيمان عاقل:

أ - مؤسَّس على وقائع خارجيَّة وعلى التفكير بالعقل

«إنّ الأعمال التي وكل إليّ الآب أن أُتمَّها... تشهد لي» (يوحنّا ٥/٣٦، ١٠/٢٥، ١٤/١١).

«فلِكي تعلموا أنّ ابن الإنسان له في الأرض سلطان يغفر به الخطايا... قُم فاحمل سريرك واذهب إلى بيتك» (لو ٥/٢٤، متّى ٩/٦).

«فمنظر السماء تُحسنون تفسيره، وأمّا آيات الأوقات فلا تستطيعون لها تفسيرًا» (متّى ١٦/٣، لو ١٢/٥٨).

«فمنذ خَلقِ العالم لا يَزال ما لا يَظهر، يظهر للبصائر عبر مخلوقاته» (روم ١/٢٠).

ب - إيمان مؤسَّس على الحَدس والإشراق الإلٰهيّ، يعرضه الله على جميع الناس الذين يسعون إليه بقلب مُخلص:

«فكلّ مَن كان من الحقّ يُصغي إلى صوتي» (يو ١٨/٣٧).

«ما من أحد يستطيع أن يُقبِل إليَّ إلّا إذا اجتذبه أبي» (يو ٦/ ٤٤).

«فكلُّ مَن استمع إلى الآب وتعلَّم منه أقبل إليَّ» (يو ٦/ ٤٥).

فالحَدْس من غير العقل، لمَن يبغي الاقتراب من الملكوت، أشبه بعين تتفحّص الأُفق والجبال البعيدة من غير منظار. العقل بلا الحَدْس هو منظار ممتاز، ولكن لا عينين تنظران من ورائه[٢١].

---

(٢١) من المهتدين المعاصرين والمفكّرين الذين بيّنوا دواعي إيمانهم، أذكر على سبيل المثال لا الحصر: ڤِرلان Verlaine، برونوتيار Brunetière، كلوديل، توماس مِيرتُون Th. Merton، دوغلاس هايد D. Hyde، كارل شتاين K. Stein، ماريتان، ألكسي كاريل، تشيسترتن، فروسّار. . . ؛ ومن الكتب التي أُلِّفت في هذا الصدد:

I. Giordani, *I grandi convertiti*, Figlie della Chiesa, Roma, 1951; G. ROSSI, *Uomini incontro a Cristo*, Pro Civ. Christ., Assisi, 1951; AA. VV. *Come ci siamo convertiti*, SEI, Torino, 1933; BARRA, *Uomini nuovi*, Vita e Pensiero, Milano, 1953; PITIGRILLI, *La piscina di Siloe*, Sonzogno, Milano, 1948; G. K. Chesterton, *Autobiografia*, IPL, Milano, 1936; A. CARLINI, *Perché credo*, Morcelliana, Brescia, 1950; R. MARITAIN, *Les grandes amitiés*, Desclée, Paris, 1949; A. FROSSARD, *Dieu existe, je l'ai rencontré*, Fayard, Paris, 1969; J. GUITTON, *Ce que je crois*, Bernard Grasset, Paris, 1971; M. MUGGERIDGE, *Cristo riscoperto*, Rusconi, Milano, 1971; J. DELUMEAU, *Ce que je crois*, Bernard Grasset, Paris, 1985.

٣ - علوم عصرنا والإيمان

أليس في الطبيعة آثار لله؟

تخلّى بعض علماء اللاهوت عن البراهين على وجود الله، المقتبسة ممّا في الطبيعة من التنظيم والانسجام. ولربّما تخلّوا عنها لما أنزلَته بهم من الخوف نظريّاتُ مُونُو Monod وأنصاره. ولكن هذه البراهين تعرض ضمانات جديدة أصيلة أمتن، وأسبابًا جديدة لتأييد العقل في حواره مع الأديان.

في الحقيقة إنّ الإيمان هو الآن أسطع في مجال حدسِ معنى الحياة منه في متاهات علم الحياة والتفكير العلميّ المعقّدة. ومن الحقيقة أيضًا أنّ روائع الطبيعة وقد ازداد تفحّصها والكشف عنها اليوم، ليست براهين مباشرة على وجود الله، الأمر الذي يُبطل قيمة الإيمان على أنّه اختيار أدبيّ. ولكن لا بُدَّ من القول أيضًا إنَّ رأي بعض العلماء الذين ينكرون غائيَّة الطبيعة - وهم أنصار المصادفة - ليس داعيًا كافيًا للتخلّي عن علامات الإيمان الخارجيَّة هذه. ذلك بأنّ العلماء لم يثبتوا سوى اعتراضات افتراضيّة فنَّدها علماء آخرون من المستوى نفسه.

إنّ العالِمَ الذي لا يُسَلِّم بغائيّة مقصودة في الأجسام الطبيعيّة المعقّدة الرائعة، يقدِّم في أحيان كثيرة جهارًا تقديمه لداعٍ رئيسيّ، المبدأ المنهجيّ، وهو مقدَّس في نظر علم القرن التاسع عشر الذي

لا يستطيع على الإطلاق أن يجعل من سببٍ خارج عن الطبيعة وغير قابل لأن يُقاس، فرضيّة تفسِّر الأحداث الطبيعيّة.

ومع ذلك قال ألبير أينشتاين إنّه في قوانين الطبيعة، «يتجلّى عقل سامٍ جدًّا حتّى إنّ جميع عقلانيّة الفكر والترتيبات الإنسانيّة هي بالنظر إلى ذلك كلّه، انعكاس لا معنى له على الإطلاق»[1]. يؤكّد جاك مونو، خلافًا لذلك، أنّ جميع ائتلاف الطبيعة هو ثمر أخطاء وتنافرات طارئة. وهو لا يستطيع أن يؤكّد ذلك إلّا إذا اعترف عفويًّا أنّ مثل هذا التفكير ينافي العقل.

ولكنّ الطريقة العلميّة، كما واصل جاك مونو الكلام، تضطرّنا إلى عدم التسليم بمسألة لا بُدَّ من الجواب عنها بكلمة «الله»[2].

إكتشاف الله عند العلماء

منذ أن نشر مونو نظريّة المصادفة، يفضّل بعض علماء اللاهوت اللعب على أرضهم في مجال الكتاب المقدّس وحده الذي لا دراية للعالِم فيه ولا يريد دخوله، على التحوّل إلى الجدل في مسائل علم الحياة والتطوّر.

ولكن ذلك ليس حوارًا ولا بحثًا مخلصًا عن الحقيقة عندما ينعزل كلّ واحد في بستانه من غير أن يفحص ما ينتجه جاره، فيصبح الإيمان والعلم عالَمين مختلفين لا اتّصال بينهما، وحقيقتين متوازيتين فيخطر للإنسان الوسط أن يسمّي الإيمان حقيقة شخصيّة والعلم حقيقة موضوعيّة. لنلاحظ كيف أنّ الكتاب المقدّس يشهد أنّ

---

(١) A. EINSTEIN, *Mein Weltbild*, par C. Seelig, Stuttgart-Zürich-Wien, 1953, p. 21.

(٢) J. Monod; cf J. Ratzinger, *Creazione e peccato*, Ed. Paoline, Balsamo (Mi), 1987, p. 24.

وجود الله قابل لأن يُعْرف أوّلًا من انسجام الطبيعة والانسجام لا يدرسه العِلم.

«فمنذ خَلْقِ العالم لا يزال ما لا يظهر من صفات الله، أي قدرته الإلٰهيّة وألوهته، ظاهرًا للبصائر في مخلوقاته...» (روم ١/ ٢٠).

«فقد ظهر غضب الله من السماء، على كلّ كفر وظلم يأتي به الناس، فإنّهم يجعلون الحقّ أسيرًا للظلم، لأنّ ما يُعرف عن الله بيّنٌ لهم، فقد أبانه الله لهم» (روم ١/ ١٨-١٩).

أجل، يؤكّد سفر الحكمة: «إنّ جميع الناس الذين لازمهم جهلُ الله، هم مغرورون طبعًا بأنفسهم، فإنّهم لم يقدروا أن يعرفوا الكائن من الخيرات المنظورة، ولم يعرفوا الصانع من اعتبار أعماله» (حك ١٣/ ١).

أمّا مسألة ظهور الله في الطبيعة، فلا يصحّ القول إنّ جاك مونو لفظ كلمة العلم الفاصلة. فهناك اليوم علماء آخرون من مستواه يعلنون أنّ تفسيراته أصل الحياة وتطوّراتها هي أشدّ حاجة إلى تفسير الوقائع نفسها التي تودّ تفسيرها.

قامت المجلّة الأُسبوعيّة *Le Nouvel Observateur* بتحقيق لدى العلماء الفرنسيّين فاكتشفت أنّ السواد الأعظم منهم يؤمنون بالله، ونشرت أيضًا مؤسَّسة جيوفانّي أنييلّي Agnelli أيضًا نتائج مماثلة للعلماء الإيطاليّين، ويؤكّد عالم الفلك الإنكليزيّ فْرِيد هُويْل Hoyle وهو عقل من أكثر العقول ابتكارًا في القرن العشرين أنّ العالَم والإنسان في وسطه لا يمكن أن يكونا ثمرة المصادفة والضرورة، كما قال مونو.

يقول فريد هويل Hoyle: «إنّ اكتشاف كلّ جزء جديد، سواء أكان الـ (واو W) أو (الصفر Z) يظهر هندسات لا تخطر ببال وانسجامات رياضيّة رائعة الجمال. فقوانين الفيزياء تراعي نظامًا وتماسكًا عظيمين جدًّا، حتّى يكاد أن يكون عدم التفكير بتصميم مستحيلًا»(٣).

إنّ مسألة صلة الإيمان بالعلم بالتوافق أيضًا مع أكبر الاكتشافات في فيزياء الفلك وتركيب المادّة تُعْرض منذ نحو عشر سنوات بألفاظ جديدة. فالعلم الحديث يُسَلِّم بحدود طريقته ومعرفته الواقع ويعترف بإمكان سائر المعارف غير الخاضعة للطريقة الاختباريّة المحض. وهكذا تنفتح مجالاتٌ يمكن أن يتحاور فيها الإيمان والعلم، بل أن يتمّ أحدهما الآخر، وهما يبقيان في مستويات مختلفة.

يعود الفضل إلى كسْباري بربِيلِّيني أميدي Gaspare Barbiellini Amidei الذي كان نائب مدير **كورّيري دلّا سيرا** Corriere della Sera وأُستاذ علم اجتماع المعرفة، في جامعة تورينو، في تركيز البحث في إيطاليا على مشكلة عظيمة الشأن هي الصلة بين الإيمان والعلم الممحورة حول وجود الله. كما أنَّ مؤلَّفه **إعادة اكتشاف الله** مخصَّصٌ كلُّه للبحث في هذا الموضوع(٤).

ففي الفصل السابع، على سبيل المثال، يفسِّر الأُستاذ أنطونيو زيكيكي Zichichi، وهو واحد من أعظم علماء الذرّة اليوم تركيب المادّة، وإذ يجعل خطابًا في داخل منطق الجُزَيْئات تحت البدائيّة، يختم بقوله: «إنّ الذي صنع العالم كما قال أينشتاين، لم يكن بوسعه

---

(٣) G.M.PACE, «Cercando Dio nei buchi neri», *La Repubblica*, 11/1/1990, p. Culturae.
(٤) G. BARBIELLINI AMIDEI, *La riscoperta di Dio oggi*, Rizzoli, Milano, 1984.

أن يُحسن اختياراته أكثر من ذلك»[٥].

لقد كفّ العلم الحديث عن إقامة نفسه في موقف خلاف مع الإيمان، لا بل فوق ذلك، يبدو أنّ هذا العلم نفسه، الذي يبحث عن معنى شامل للعالم وقوانين الطبيعة يقدّم بعض الإشارات إلى تأكيد وجود الله. فيمكن في هذه المسألة تسجيل إعلان أرنو بنزياس Arno Penzias، مكتشف العمل المُحتَمَل لميلاد العالم - الانفجار الكبير الأوّل Le Big Bang - والفائز بجائزة نوبل العام ١٩٧٨ لعلم فيزياء الفلك. فبعد أن ذكر أنّه ما من شيء ثابت ونهائيّ في العلم أبدًا، أكّد أنّ السؤال الذي أسائله نفسي هو: «ما الإنسان حتّى تفتقده؟» (المزمور ٨)[٦].

في هذين القرنين اللذين سادتهما العقلانيّة والوضعيّة والمادّيّة، حاولت النظريّة العلميّة أن تجعل من ادّعاء الإيمان بالله أدبًا شعبيًّا وانفعالات عاطفيّة[٧]. وعارضت الثقافة بما عندها من نقض الحقيقة المبنيّ على نكران الله، الحقيقة الدينيّة وخصوصًا الحقيقة المسيحيّة التي تؤكّد وجود الله.

تعود مقاومةُ الإلحاد الحديث الدينَ، التي تغذّيها افتراضات علميّة مبهمة، إلى الإعلان الشامل هذا، وهو مع ذلك محرّف عن موضعه الخاصّ به: إنّ كلّ ما ليس قابلًا للتحقيق العلميّ فهو غير موجود.

إنّ التقدّم الحديث وقد انطلق من المُفتَرض العلميّ الممكن

---

(٥) المرجع نفسه؛ من مقال ظهر في مجلّة *Il Tempo* بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٨٤، ص ٣.

(٦) A. PENZIAS, in *Corriere della Sera*, 5/1/1985, p. 7.

(٧) G. BARBIELLINI AMIDEI, *op. cit.*, pp. 17; 13-14.

تحقيقه، والذي صار رأيًا مسبقًا بالنظر إلى الدين، قد شعر في أحيان كثيرة بأنّه تلقّى رسالة بطرد الله من صروح التاريخ، وبإغلاق في وجهه، وهو المستأجر الخفيّ، باب المعرفة الفكريّة. أمّا اليوم فإنّ بربيلّيني Barbiellini يلاحظ أنّ هذه المعرفة العلميّة نفسها والأوساط الأكثر تقدّمًا في مختبرات البحث لا ترى أنّ الله عقبة فكريّة أمام طريقتهم ومضمون بحثهم. لا بل قد يصير الله للعلم نفسه - وهذه فرضيّة بربيلّيني أميدي الأساسيّة - وهي فرضيّة عمل تساعد على تفهُّم معنى الإنسان والعالم تفهُّمًا أفضل وعلى الكشف عنه: «فالتفكير في الله يمكن أن يساعد الإنسان على فهم نفسه والعالم المحدق به».

كتب إيڤاندرُو أغاتْسِي Evandro Agazzi وهو أُستاذ فلسفة العلم: «إنّ الذي يؤمن بالله في مضمون عقل لا في مضمون إيمان محض، يمكنه أن يلقى هذه الفائدة: فبوسعه على وجه كامل أن يعرف ويُفسِّر ويفهم على قدر ما يعرف ويفهم أيضًا الذين لا يؤمنون، فضلًا عن أنّه ينجح في فهم بعض أبعاد الحياة والإنسان التي تغرب عن هؤلاء وتؤلّف معنى الحياة. فيمكن إذًا القول بلا أيّ كبرياء فكريّة بل بوضوح النظر، إنّ فرضيّة وجود الله، وإن لم تكن من مجال العلم، فهي تساعدنا على أن نُحسن فهمَ ما هو أبعد من العلم ويمكنها أن تجعل له معنى أكمل»(٨).

يمكن القول زيادة على ذلك، إنّه منذ بدء السنوات السبعين تُسجَّل نزعة إلى العلوم التجريبيّة بوسعنا أن نحدّدها استقرائيّة. هذه العلوم يبدو أنّها تساعد على لون من العودة إلى جعل الله مركز كلّ

---

(٨) E. AGAZZi, «Quando Dio aiuta a capire», in *Corriere della Sera*, 23/6/1985, p. 3.

شيء. هذه بالتأكيد هي ظاهرة الثقافة المعاصرة المهمّة والجديدة، المعروفة باسم «المعرفة باللاهوت الخاصّة بپرِنستُن»[٩] Gnose de Princeton. يُلاحظ في العلوم ميل مُدهش في نسبة البنيات الأساسيّة في القوانين المفحوصة واكتشافاتها إلى «غاية عليا»، إلى «كلمة» أو إلى «الفكر الأعلى»؛ فقد يؤدّي ذلك إلى أن يُشْعِر نتائجه في العالم. فإنّ العقلانيّة التي يلاحظها في العالم علماء الفيزياء على الخصوص قد «تنفذ إلى الأبديّة»، كما أكّد ذلك الأمر عالِم الفيزياء أوليڤييه كوستا دي بُورغار Olivier Costa de Beauregard. إنّ بحّاثي پرنستُن Princeton، وپاسادينا Pasadena ومراكز أميركيّة أُخرى للفيزياء النوويّة، في أثناء درسهم هذه «العقلانيّة» الملازمة الكون، يصل بهم الأمر إلى التأكيد أنّ تركيب العالم يتطلّب وجود عقلانيّة عُليا. إنّهم، منذ قرنين على أقلّ تقدير من الوضعيّة النافية كلّ ما وراء الطبيعة وعلم اللاهوت، أوائل مَن يجرؤ على التأكيد علانية أنّ العلم يقودهم إلى إيمان بذكاء ينظّم العالم»[١٠].

إنّ عالِم الفيزياء المعروف جون پُولْكِنْغْهُورن John Polkinghorne أُستاذ الفيزياء الرياضيَّة في جامعة كمبريدج (بريطانيا العظمى) الذي صار قسّيسًا أنكليكانيًّا، يلاحظ في كتابه **العلم والإيمان** أنّ كثيرًا من علماء اللاهوت لا يجرؤون على أن يضعوا في أوّل علم اللاهوت التمهيد العقلانيّ لله في سبيل نظام العالم، ولكنّهم يعرضون «المتعالي» (Le Transcendant) على أنّه ليس سوى بُمتطلَّب يتطلّبه العقل البشريّ. إنّ علم اللاهوت الطبيعيّ

---

(٩) R. RUYER, *La Gnose de Princeton*, Fayard, Paris, 1974.

(١٠) وقد أعلن الأمر نفسه في محاضرات عامّة، العلّامة رِيمُو رُوفّيني في ما يخصّ اللامتناهي في الكِبر، والعلّامة جيوليانو پرِيپاراتا في ما يخصّ اللامتناهي في الصِغَر.

في أيّامنا، أي البحث عن الله عن طريق العلم، ليس شعبيًّا عند علماء اللاهوت. يضاف إلى ذلك، في ما يختصّ بالعلم الحديث، أنّ معظم علماء اللاهوت المعاصرين يُظهرون بعض الجهل. يبدو اليوم أنَّ العالِم يهمّه البحث في علم اللاهوت الطبيعيّ[١١] أكثر ممّا يهمّ اللاهوتيّ. ووصل الأمر ببولس دفيس Paul Davies إلى الكتابة: «قد يبدو الأمر غريبًا، ولكنّي أشعر بأنَّ العلم يدلّنا على طريق الله بأمان أعظم ممّا يفعل الدين»[١٢].

يمكن القول إذًا إنَّ علماء اللاهوت الذين يتخلّون الآن عن البراهين الموضوعيّة، المأخوذة من الظواهر الطبيعيّة على وجود الله، يشبهون بعض الشبه المحاصَرين الذين يرفعون العَلَم الأبيض، في الوقت نفسه يتقدّم المحاصِرُون أنفسهم وهم يحملون العَلَم الأبيض ليسلّموا مدافعهم.

سلطة الواقع أكبر من سلطة الـ«لورد» محافظ لندن

في رأي معظم الناس المتفتّحين العمليّين القليلي التفكير تُدمَج العلامات الباطنة التي يأتي بها علماء اللاهوت الحديث والبراهين الأدبيّة المحض على معنى الحياة، بالأشياء الغامضة لعلم ما وراء الطبيعة، ويُنظر إليه على أنّه أشدّ ما يُصرف فيه الوقت بخيبة. تبدو لهم هذه العلامات والبراهين بعض الشيء مثل قصور في الهواء، جميلة جدًّا، ولكنّها تستدعي أن ينزل المرء إلى القبو لكي يتحقّق أُسسها. وهذه الأُسس تعطيها الوقائع، يقول الإنكليز: **سلطة الواقع أكبر من سلطة الـ«لورد» محافظ لندن.**

---

(١١) John POLKINGHORNE, *Scienza e Fede*, Mondadori, Milano, 1987, pp. XIII, 96-97.

(١٢) P. DAVIES, *Dio e la nuova fisica*, Mondadori, Milano, 1984.

يؤكّد پُولْكِنْغهُورن: «ليس الله مختصرًا سهل الاستعمال للكلام على الحاجات البشريّة فحسب. إذا نَسي المرء أنّ الله هو مؤلّف كتاب العالم الكبير حَكَم بالطلاق بين العقل والإيمان»(١٣).

يتابع عالِم الفيزياء - اللاهوتيّ في جامعة كمبريدج: «نعيش في عالم واحد حيث العلم واللاهوت ينقّبان عن مظاهرهما المختلفة. وبوسعهما أن يعمل الواحد منهما في الآخر: فعلم اللاهوت يفسّر أصل النظام والبنية اللذين يقبلهما العلم ويثبّتهما في بحثه عن العالَم، والعلم يقوم بذلك من خلال درسه الأحوال الخاصّة بالخليقة التي يجب أن تكون راضية عن كلّ وصف يطال الخالق ونشاطه»(١٤).

فغائيّة الطبيعة ومعنى الحياة هما موضوعان يتمّم أحدهما الآخر كلٌّ بدوره. إنّ التعليلات التي تنجم عن صميم الضمير تظهر أنّ الله ليس قبل كلّ شيء شرحًا يتناول بدء العالِم وعلم الحياة فحسب، بل يتأصّل في حياة الإنسان العمليّة ويؤثّر في عواطفه وأفكاره واختياراته وأعماله، لا بل في معنى حياته نفسها. ولكنّ غائيّة الطبيعة هي التثبيت الموضوعيّ، إنّها شيء يُلمس باليد، إنّها أشبه بتوقيع المؤلّف على كلّ قطعة فنيّة، والبرهان الخارجيّ على أنّ الإيمان لا تخلقه حاجة الإنسان.

فمسلّمات هذا الفصل واستدلالاته على غائيّة علم الحياة مأخوذ قسم كبير منها، من اختصاصيَّين صرفا حياتهما كلّها على هذا الموضوع وهما: جيوڤانّي بلاندينو Giovanni Blandino، أستاذ

---

(١٣) «انجح العِلم بفضل الله»؛ عنوان مقابلة مع پولكنغهورن أجرتها صحيفة *Corriere della Sera* في ١٩٨٦/٨/٦، ص ١١.

(١٤) J. C. Polkinghorne, *Scienza e fede*, p. 144.

فلسفة العلم في جامعة اللاتران الحبريّة مؤلِّف العديد من الكتب، والمقالات المختلفة المنشورة في مجلّة **المدينة الكاثوليكيّة** *Civiltà Cattolica*، وفيتّوريو ماركوتسي Vittorio Marcozzi أُستاذ العلوم واللاهوت في الجامعة الغريغوريّة صاحب الكتب والمقالات(١٥). فقد ألبستُها شكلها، استشهادات بأقوال عدّة علماء من المنزلة الأولى وبعض الملاحظات هنا وهناك لا تبدّل جوهرها.

فإذا كان في العالم شيء يسطع بوضوح الشمس فهو ميزات ذات ثقافة عالية وفنٌّ رائع لم يدركها بعد الإنسان في البنيات الحيَّة.

أمّا في ما يختصّ بالثقافة، فإنّ الأحياء هم - ومن الأفضل أن يُقال - يستعملون بنيات منتظمة على نحو عالٍ، ونموذجات مختلفة النظام. فالنموذج الأوّل هو النموذج التشكُّليّ: فشكل الأحياء ينجم عن جملة تشكّلات خطّيّة وساحات منظّمة، وأجزاء متوازية وتكريرات لبنيات متماثلة، هي على سبيل المثال تكريرات بنية الخليَّة والورقة والزهرة في العيون والرئات والأعضاء إلخ...

ولكنّ نموذج النظام الذي يميّز الأحياء على وجه أكثر وغير

---

(١٥) G. BLANDINO, *Vita, ordine, caso*, Morcelliana, Brescia 1967; *Theories of the Nature of Life*, Philosophical Library, New York, 1969; *I massimi problemi dell'essere*, Ed. Paoline, Alba (CN) 1977, pp. 410-427; «Le cause dell'evoluzione», in *Rivista di Filosofia Neo-scolastica*, 79 (1986), pp. 96-105; «The Causes of Evolution», in Accademia Nazionale dei Lincei, Rendiconto Scienze fis, matemat. *e natur.*, 79 (1986), 10 mai. Vittorio MARCOZZI, *Caso e finalità*, Ed. Massimo, Milano, 1976; *Il problema di Dio e le scienze*, Morcelliana, Brescia, 1974; G. BLANDINO, «IL finalismo biologico», in *Civ. catt*, 1983, II, pp. 147ss; «Dall'ordine all'Ordinatore», *Civ. Catt.* 1985, IV, pp. 31ss; «Il caso e l'anti-caso», *Civ. Catt.* 1988, août, pp. 256ss. G. SIEGMUND, *Scienza ed esistenza di Dio*, Ed. Paoline, Alba, 1967; M. ZATTI, *Evoluzione e creazione*, Pàtron, Bologna, 1968; G. SALET, *Hasard et certitude*, Saint Edme, Paris, 1972; P. P. GRASSÉ, *L'Evoluzione del vivente*, Adelphi, Milano, 1979.

الموجود في البنيات الطبيعيّة غير العضويّة هو الانتظام **الوظيفيّ** ويقال له **غائيّة الأجزاء الموضوعيّة** لحياة الجسم كلّه.

قد تكون الغائيّة موضوعيّة أو ذاتيّة (أو قصديّة). نسمّي **غائيّة موضوعيّة** وحدّة البُنيات - الآلات أو الأجسام الحيَّة - وفيها **يقوم كلّ جزء بوظيفة ضروريّة أو مفيدة ليدرك هدفًا معيّنًا.**

الغائيّة الذاتيّة أو القصديّة، على عكس ذلك، تعني تعمّد إدراك هدف معيّن وتحقيق الوسائل الصالحة القابلة لإدراكه بشكل أو بآخر.

إنّنا نختبر ذلك في ضميرنا اختبارًا مباشرًا، أو نعرفه بشهادة الآخرين، أو نستنتجه أخيرًا من تصرّف بعض الأشخاص أو من بنيات نلاحظ فيها غائيّة موضوعيّة.

لندع جانبًا الآن مسألة معرفة إذا كانت غائيّة الطبيعة الموضوعيَّة متأتّية من غائيّة قصديّة، فتكشف هكذا عن وجود خالق، ويتّضح لنا أنّه موجود على وجه وافر في البُنيات الحيّة.

معمل آليّ للألومينيوم في القمر

حتّى هذه اللحظة التي أنت فيها جالس تقرأ من غير أن تفكّر في ذلك أدنى تفكير، فإنّ النشاط في عالم جسمك المظلم المعقّد هو على قدم وساق، ويواصل الاقتصاد المخطّط سيره إلى الأمام بما يعترضه من مشكلات تقنيّة ومشروعات ومحاولات وإخفاق ونجاح، وفي كلّ ثانية تُنتج خلايا جديدة لتحلّ محلَّ الخلايا التي قضت وقتها.

إنّ حجم الخلايا هو بضعة ميكرونات - أي أجزاء من ألف من

المليمتر - وهي في جسم الإنسان نحو ٣٢ لعشرة أسّ ١٢ - وهي، وإن حفظت بعض التماثل الجوهريّ تختلف في وجوه متنوّعة لها صلة بالوظيفة الخاصّة التي تقوم بها. إذ ثمّة خلايا صالحة ليفرز كلٌّ منها العصارة الخاصّة الضروريّة للجسم، وخلايا قادرة على التشنّج - الألياف العضليّة - وخلايا صالحة لإرسال منبّهات - خلايا عصبيّة - وخلايا صالحة لإعطاء صلابة وسندًا - الغضروفات والعظام إلخ...

إنّ مختلف النشاطات التي تجري في المدن الصناعيّة الكبرى لها مماثلاتها في العمل المعقَّد الذي يُقام به داخل كلِّ خليَّة، في مسار متواصل من التصنيع، والتخزين، والإصلاح، والمواصلة، والنقل، والتفتيش، وتصحيح العمل، ونقل النفايات، والإدارة، وتنظيم الحرارة، وتعيير مختلف الموادّ[١٦].

أُجري حوار مع الفائز بجائزة نوبل ألفريد كاستلر فَسُئِل رأيه في غائيّة الأحياء فأجاب: «أَوَدّ ضرب مَثَلٍ: فلنفرض أنّه في أثناء الرحلات المقبلة إلى القمر، نُقِّب عن وجه القمر غير المعروف أي على الوجه المُخالف لنا والذي لا نراه أبدًا. ولنفرض أنّ روّاد الفضاء فوجئوا باكتشافهم معمل آليّ يُنتج الألومينيوم، وفي الأرض معامل آليّة على وجه تامّ».

«يرى روّاد الفضاء هؤلاء، من جهة المجارف تحفر الأرض وتلتقط الألومينيوم، ومن جهة أخرى قضبان الألومينيوم التي تخرج من المعمل. ويجدون فيه تجهيزات خاصّة بالفيزياء وعمليّات الحلّ الكهربائيّ، لأنّ الألومينيوم يُنتجه الحلّ الكهربائيّ، بحلّ الألومين

---

(١٦) راجع: G. SIEGMUND, *Scienza ed esistenza di Dio*, Ed. Paolina, Alba, 1967.

في الكريوليت. وبعبارة أخرى، يتّضح لهم بعد فحصهم المعمل شيء واحد هو أنّه حدثت ظواهر فيزيائيّة مألوفة تفسّرها تفسيرًا تامًّا قوانين السبَبيَّة. فلربّما وُجب عليهم أن يستنتِجوا أنّ هذه المصادفة بَنت هذا المعمل، أو أنّ كائنات عاقلة هبطت قبلهم على القمر وبَنَته؟».

«إنّ كلًّا من هذين الإمكانين من التفسير صحيح، ولكنّي أسأل هذا السؤال: أيكون من المنطق أنّ المصادفة جمعت الذرّات جمعًا أنشأ مثل هذا المعمل الآليّ؟ ما من أحد يقبل هذا التفسير. ففي كائن حيّ نجد نظامًا معقّدًا أكثر تعقيدًا إلى ما لا حدَّ له منه في معمل آليّ. ألا يبدو أنّ التسليم بأنَّ المصادفة قد أنشأت مثل هذا الكائن أمر غير معقول؟[١٧]»

في كلّ خليّة ٥٣ مليارًا من الذرّات البروتينيّة، و١٦٦ مليارًا من الليپوأيديّة، و٢٩٠٠ مليار من الذريرات فيها: السكّريّات، و٢٥٠ ألف مليارٍ من ذرّات الماء وحوامض نشويَّة.

ليست مثل هذه الموادّ مجمّعة من غير ترتيب بل تؤلِّف بنيات دقيقة لكلٍّ منها وظائف معيّنة. **فالإيالوپلاسم** يحوي ARN مُرسَلَة وARN قابلة للحلّ، وسكاكر، وحوامض أمينوئيّة، ونوَويّات، ومركّبات متوسّطة، وأملاحًا غير عضويَّة. إنّه نوع من المستودع تستقي منه **الريبوسومات** التي تَصنع بواسطة الـ ARN مختلف أنواع الموادّ البروتينيَّة. والذرَّة والصبغيّات تَلِد خلايا جديدة تورِّثها، بواسطة الـ ADN، جميع ميزاتها الوراثيَّة. وتُنتج الميتوخوندرات الطاقة الضروريّة لجميع التفاعلات بقوّة الـ ATP. وتحوي

(١٧) A. KASTLER, cit. in V. MARCOZZI, *Caso e finalità*, Massimo, Milano, 1976, pp. 30-31.

الليسوسومات الأنزيمات الضروريّة لحلّ الموادّ المحدّدة.

يلاحظ فرنسيس كريك Francis Crick الفائز بجائزة نوبل: «لكلِّ تفاعل كيميائيّ ولكلّ خطوة صغيرة جدًّا في تحوُّل كيميائيّ، وسيط خاصّ يُسَرِّع هذه الخطوة وهذه الخطوة وحدها. وتجري التفاعلات بسرعة خياليّة، فضلًا عن أنّ الطبيعة تعرف قواعد الحساب أحسن منّا»(١٨).

وبالرغم من مثل هذا التعقيد المذهل وسرعة رَدّ فعل تكاد أن تعجز المخيّلة، فإنّ التناسق مدهش. ففضلًا عن تعقيد الظواهر الحياتيّة الذي يُعْجز المخيّلة، فإنّ ما يُميِّز ظواهر الحياة، كما يُلاحظ الإسكندر ل. كوفاكس Alexandre L. Covàcs هو الدرجة العالية من التناسق الذي يضاف إليه(١٩).

الأنظمة المتكاملة

تتألَّف الأجسام المتعدِّدة الخلايا من عدد أكبر من الأعضاء، هي لِتَعدّد الوظائف التي تقوم بها، ذات تعقيد كبير جدًّا. فلا بُدّ لها من حلّ أصعب مسائل الكيمياء والفيزياء والهندسة والآليّة والمائيّة والبَصَريَّة إلخ... وهي تحلّها حَلًّا جديرًا بالإعجاب، إذ تحقّق في الوقت نفسه الاتّحاد والتناسق بين مختلف الأعضاء في وحدة الجسم.

إنّ غائيَّة أجهزة كثيرة عند الحيوانات تتمّ بالغرائز. يخطر ببال المرء على سبيل المثال غريزة الجوع. فلهذه الغرائز وظيفتها

---

(١٨) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(١٩) A. L. COVÀCS, «La fisica e la biologia», in *Rinascita*, 7/11/1975, pp. 24, 38.

الخاصّة في حياة الجسم أي إنَّها وسائل ضروريّة لحفظها، ولولا غريزة الجوع لما استطاع جهاز الهضم، أن يقوم بعمله.

ثمّة ترابط وثيق عند الحيوان وعند الإنسان بين الحياة النباتيّة وحياة المعرفة. فكلّ منهما يعمل للآخر، إذا لا بدَّ من الحياة النباتيّة لكي تستطيع حياة المعرفة أن تنمو، وهذه لا بدّ منها لتلك. إنَّ الحيوان يموت إذا حُرِم مراكز حسِّه.

وهناك فضلًا عن ذلك، غائيّات فرديّة إلى أقصى حدّ، وغايتها الحياة، لا حياة العامل الفرديّ، بل حياة عاملين آخَرين. إنّ عامل أعضاء التناسل مثاليّ. فعندما تكون المسألة على سبيل المثال مسألة التناسل الجنسيّ، فثمّة فردان وهما عاملان متكاملان يقتضي وجودهما. كما يجب أن يكون فيهما حضور متزامن لا لأعضاء فرد وغرائزه فحسب، بل حضور عامل آخر مُتَمِّم من جنس مختلف.

هناك كثير من الارتباطات المتبادلة الحياتيّة بين الأفراد. فالحيوانات اللاحمة على سبيل المثال تتطلَّب لتعيش وجود الحيوانات العاشبة التي تحتاج إلى النباتات. وتحتاج هذه وتلك إلى النباتات التي تُنتج أوكسجين الجوّ. ثمّ إنّ النباتات من الطبقة العُليا تتطلَّب وجود النباتات من الطبقة السفلى التي تُثَبِّت آزوت الجوّ أو تُعدِّن الآزوت العضويّ[٢٠].

إنّ الارتباطات المُشار إليها هي من مثال عامّ جدًّا، ولكن الارتباطات الأكثر خصوصيّة كثيرة. يخطر بالبال على سبيل المثال الصلات بين النباتات ذات التلقيح الحيوانيّ والحيوانات التي تحقّقه بنقل اللقاح. ففي هذه الحالات يفترض وجود بعض الأحياء وجود أحياء آخرين مُحدَّدين. فالأعضاء التي تؤلِّف الأحياء الأوّلين غير

(٢٠) K. von FRITSCH, *L'architettura dei viventi*, Mondadori, Milano, 1975.

كافية لتبقي الحياة فيها، وتقتضي أن يكون معها أعضاء الأحياء الآخرين.

عمّال مستعدّون لأن يعملوا غير المألوف

يمكن المرء أن يلاحظ عند الحيّ وظائف وتصرّفات ثابتة ما دامت الحالة طبيعيّة، ولكنّها تتبدَّل بحسب الحالات والأخطار والحاجات غير المألوفة عند الحيّ نفسه.

فكُرَيَّات الدم البيض، على سبيل المثال، تجري من غير نشاط خاصّ. ولكن إذا غزت الجراثيم أو البكتيريات المضرَّة منطقة، بعامل جُرح على سبيل مِثال، أَسرعت الكُريّات البيض إلى المكان وحاولت القضاء على الغزاة. وهي تنجح إنْ لم تكن الكريّات الغازيّة أكثر عددًا؛ وإذا بدا الصراعُ غير مضمون في نتيجته، أخذت أعضاء خاصّة في إنتاج خلايا بيض عددها كافٍ لمواجهة الخطر.

وفي حالة النزف يتّخذ الجسم إجراءات معجّلة أُخرى. فجميع أوعية الدم تنقبض، وهكذا تزيد قيمة نسبيَّة الدم الذي بقي، حتّى إنّ الضغط الوريديّ يصبح طبيعيًّا ويستطيع جريان الدم أن يستمرّ. فالسائل البيْفُرجي للنَّسيج الموصل والعضلات يجتاز جدران الأوعية الشعريّة ويدخل نظام الدورة الدمويّة. فيُحسّ المريض بعطش شديد، والماء الذي يشربه يعيد حالًا إلى بلاسما الدم حجمه الأوَّل. وتَخرج مخزونات الكريّات الحمر من الأعضاء حيث كانت محفوظة للاحتياط. وآخر الأمر يشرع النخاع الشوكيّ يصنع على وجه أَسرعِ عناصرِ الخلايا التي تذهب إلى الدمِ فتُعيد إليه دَورته الطبيعيّة[٢١].

---

(٢١) V. MARCOZZI, *Caso e finalità, cit.*, pp. 40ss.

فالقدرة على **التجدُّد** هي على وجه كثير أو قليل ميزة جميع الحيوانات لتجديد جزء صغير نُزع من جسمها. لقد سبق لنا أن أشرنا إلى تجدُّد الدم. والظاهرة المألوفة والعجيبة هي الاندمال وفيه عدّة تبدّلات لنشاطات الجسم الطبيعيّة.

تلتحم العظام بواسطة الخلايا التي تأتي من أجزاء أُخرى وبتحوّلات الخلايا أيضًا. يلاحظ في هذا الموضوع عالِم التشريح الشهير الفائز بجائزة نوبل ألكسي كاريل: «عندما يُكسر عضو بصدمة، تُرى مزقة عضل مجاور للعظم المكسور يتحوَّل إلى غضروف. فالغضروف هو ما يتقدَّم العظم في الكتلة التي لا تزال رخوة وتصل الأطراف العظميَّة المكسورة. ثمَّ يتحوَّل الغضروف إلى نسيج عظميّ. ويعود اتّصال العظم بمادّة لها طبيعة العظم نفسها. وفي أثناء الأسابيع اللاحقة التي لا بُدَّ منها لتجدّد العظم، تحدث سلسلة عظيمة من الظواهر الكيمائيّة والعصبيّة ومن ظواهر جريان الدم والبنيات، ويرتبط بعضها ببعضها الآخر»(٢٢).

وبموجز العبارة يمكن تشبيه الأجهزة الاصطناعيّة بمؤسَّسات يبقى فيها كلّ عامل في سلسلة التركيب ويقوم دائمًا على نحو آليّ بالعمل نفسه. أمّا أجهزة الأحياء فهي مؤلَّفة من عمّال قابلين للتكيُّف يعملون لمنفعتهم الخاصّة، لأنّهم يحصلون على الاشتراك في الفوائد، وهم لذلك مستعدّون دائمًا لعمل ما هو غير مألوف أو لتبديل نشاطهم حينًا إذا كان خير المؤسَّسة يقتضي ذلك.

إنّ القدرة على **الاستبدال** ليست أقلّ قبولًا من الغائيّة الحياتيّة. نعني بهذه العبارة قدرة الأجسام حتّى التي من الطبقة العُليا منها على

---

(٢٢) A. CARREL, *L'Homme, cet inconnu*, Plon Paris, 1936, p. 240.

إعادة وظيفة مُبطَلَة، كلّها أو بعضها، بنزع العضو أو إصابته، والاستعاضة عنه بعضو آخر أو بأجزاء أخرى منه.

إذا نُزِعت كلْيَة، على سبيل المثال، فالكلْيَة الباقية تزيد حجمها ووزنها حتّى إنّ استرداد القوّة يكون تامًّا. ويحصل مثل ذلك في الرئة والبنكرياس والغدد ذات الإفراز الداخليّ. فكما اكتشف الأمر عالِم الأعصاب الكبير پنفيلد Penfield أنّ كثيرًا من وظائف الدماغ التي يقوم بها بعض الجوانب المعيَّنة، إذا أُصيبت هذه الجوانب أو نُزعت، يقوم بعملها جوانب أخرى. وكتب جورج سرفوس Cervos وهو عالِم أعصاب في جامعة برلين أنّ أقسام الدماغ ليست محدَّدة تحديدًا صارمًا، فبعض الجوانب المصابة يمكن تعويضها بالتي بقيت سالمة(٢٣).

فالتكيُّف الفيزيولوجيّ هو مقدرة الجسم على مقاومة الأسباب الخارجيّة التي قد تحاول إفساد توازنه أو تخريبه. وهكذا يتكيَّف الحيّ بطرق مختلفة وبتبديلات الوظيفة مع البرد والحرّ، ونقص الأوكسجين في الجبل، وزيادة الأوكسجين المفرطة، ونقص الماء، والطعام، إلخ...

إنّ الجسم مهدَّد بعوامل كثيرة تستطيع أن تسبِّب اضطرابات شديدة لا بل الموت نفسه، مثل البكتيريات المُعدِية والموادّ السامَّة أو الموادّ الغريبة عن الجسم. فهو يدافع عن نفسه بمختلف الطرق وبإنتاج موادّ موافقة لذلك. لنتذكَّر هنا جهاز السعال لإخراج الموادّ الغريبة، والطاقة المطهّرة في اللعاب، والحمض الكلوريديّ في

---

(٢٣) L. BINET, *Les défenses de l'organisme*, Pr. Univers. de Fr., Paris, 1961; W. PENFIELD et L. ROBERTS, *Langages et mécanismes cérébraux*, P.U.F., Paris, 1963, p. 99.

العصارة المعديّة. حتّى الصفراء تقوم بنشاط مطهِّر. فإذا اتُّفق أنّ بعض البكتيريات، بالرغم من هذه الدفاعات الكثيرة، امتصَّتها الأمعاء ووصلت إلى الكبد، فإنّ خلايا كوپّفِر Kuppfer تبتلعها وتقضي عليها.

لقد أشرنا إلى نظام الدفاع الذي يقوم به الدم بواسطة الكُريَّات البيض. إذ للجسم قدرة لا يزال يُخفى سرُّها علينا، لمعرفة كلّ مادّة غريبة تعود إلى أجسام أُخرى تصنعها، ولمّا كانت المادَّة هذه تهدِّد سلامة الجسم، فإنّه يطرحها عنه بموادّ يصنعها لذلك ويُقال لها **أجسام أضداد**(٢٤).

أنصار المصادفة وأنصار الغائيّة

نُسائل نفسنا: من أيّ شيء هذا العرض الكبير الذي لا حدَّ له من التقنيَّة والفَنّ يستمدُّ أصله؟

إنّ مسألة أصل البنيات الحيّة تعرض بوضوح مسألة الغائيّة، فقد كان زمان لم يكن فيه للأحياء وجود. وهي الآن موجودة في تنوُّع من الأشكال والوظائف يكاد أن يكون بلا نهاية، والمسألة هي: كيف تكوَّنت؟

لنأخذ مع تشارلز داروين **Charles Darwin** والعِلم الحديث بصحّة فرضيَّة التطوُّر، أي نحن نرى أنّ مختلف أنواع الحيوان والنبات ليست الموضوع المباشر للعمل الإلٰهيّ، بل ثمرة تطوُّر طويل وشاقّ.

أمّا عن كيفيّات التطوّر، فثمَّة مثالان في النظريَّات أساسيّان.

---

(٢٤) A. L. BURNETT et T. EISNER, *L'adattamento negli animali*, Zanichelli, Bologna, 1970.

أ - نظريّات القوانين الطبيعيّة الموَجَّهة (الغائيّون)

إنَّ القطب الذي تدور عليه هذه النظريّات هو أنّ إنتاج بنيات لها هذا القدر الكبير من النظام والوظائف، كما هي بنيات الأحياء، لا يمكن أن يُنسب إلى **المصادفة المحض**، بل إلى مصادفة تسيِّرها قوانين كامنة في الطبيعة، **وموَجَّهة أو مفضَّلة** تعمل لتشكيلات بنيات تزداد دائمًا تعقيدًا وتقدُّمًا. فجوهر هذه النظريّات هو إذًا نقض المصادفة.

يقبل هذا التفسير أُناس من أشهر الاختصاصيّين في مختلف العلوم البيولوجيّة أمثال الفائز بجائزة نوبل في ١٩٦٦ ألفريد كاستلر Kastler، وكارل ڤون فريتش Fritsch الفائز بجائزة نوبل للطبّ في ١٩٧٣، وج. كولوسي Colosi، وأ. غيينو E. Guyénot وپ.پ غراسّه P.P. Grassé، وج. پيڤيتو J. Piveteau، وپ. ليوناردي P. Leonardi، وج. هورتسلر J. Hurzeler وغيرهم. فالمهمّ هو أنَّ الأمر لا يقتصر على علماء حياة بل يتناول أيضًا علماء إحاثة أمثال شندڤولف Schindewolf وليوناردي وپيڤيتو وهورتسلر وتسِلِر Zeller وأ. ريماني A. Remane إلخ... الذين أوغلوا في درس ترتيب ظهور بنيات الأحياء(٢٥).

ب - نظريّات «المصادفة والانتقاء» (أنصار المصادفة)

تُفسّر هذه النظريّات أصلَ الحياة والتطوُّر الذي تبع، على وجه أساسيّ كما يلي: فلنفترض أنَّه تكوَّنت بُنية أُولى بسيطة جدًّا، قادرة على التناسل، فاحتمال أن يتكوّن مَرَّة مثل هذا الجسم البسيط جدًّا نسبةً إلى سائر الأشكال الحيَّة ولكنّه في الحقيقة معقَّد جدًّا، نادر

---

(٢٥) V. MARCOZZI, *Caso e finalità*, *cit.*, pp. 169-170.

جدًّا في حدِّ ذاته، ولكن المدّة التي فيها كانت الأحوال الممكنة لمثل هذا التكوّن طويلة جدًّا حتّى إنّه يمكن أن يكون هذا الجسم قد تكوَّن تدريجيًّا.

فما إن تكوَّن هذا الجسم حتّى صار تكاثُر الحياة وتطوّرها لا مفرَّ منهما. ففي مختلف الأجسام التي تنتج من الجسم بفعل عوامل مختلفة طارئة، يُحتمل تمامًا حدوث تبدّلات في الجينات التي تحمل الميزات الوراثيَّة، بحيث يكون كثير منها غير ملائم وبعضها ملائمًا. عندئذ يغلب سليلو التبدّلات الملائمة، في الكفاح من أجل الحياة، ورثاء التبدّلات غير الملائمة. إنّ ذلك هو تطوّر مقرون بتحسُّن. وهذا التحسُّن إذ يستمرّ بلا نهاية، ينتج أجسامًا من عدّة أجناس مختلفة صالحة كلّها للحياة كالتي يمكننا أن نراها.

إلى هذه النظريّة التي يُقال لها «النظريّة التأليفيّة» أو نظريّة المصادفة أو الدروينيّة المجدّدة ينتسب علماء مشهورون أمثال پادوا E. Padoa، ومونتالانتي G. Montalenti، وسِمپسُن G. G. Simpson، وهوكسلي J. Huxley، وهيبيرر G. Heberer وأشهرهم الفائز بجائزة نوبل للطبّ العام ١٩٦٥ جاك مونو، مؤلِّف الكتاب الواسع الانتشار **المصادفة والضرورة**(٢٦).

مانفريد أيغن وقلّة احتمال المصادفة المحض

نُسمّي «مصادفة محضًا» تصاحب أسباب مختلفة تتلاقى في عملها وتأتي بنتيجة غير مألوفة، من غير أن يتوقَّع ويبتغي كائن عاقل تلاقيها ووقوعها.

---

(٢٦) *Le hasard et la nécessité*, Ed. du Seuil, Paris, 1970. Cf V. MARCOZZI, *op. cit*, p. 27

كتب الأستاذ كريسّي موريسون الذي كان رئيسًا لمجمع العلوم بنيويورك العام ١٩٤٤ في كتابه **ليس الإنسان وحده** ***Man does not stand alone***: «نحن لا نزال في فجر العصر العلميّ، وكلّ معرفة جديدة تكشف بوضوح أكبر عن عمل خالق عاقل».

إفترض أنَّك وضعتَ في جيبك عشر قطع من نقود مرقّمة من ١ إلى ١٠ وخلطتها خلطًا محكمًا. حاول الآن أن تخرجها مرتَّبة من الأوَّل إلى العاشر، وأنت تُعيد كلّ مرّة إلى الداخل القطع المستخرجة وتخلطها بسائر القطع النقديَّة. يقول لنا علم الرياضيّات إنّ احتمالات إخراج القطعة صاحبة الرقم ١ هي واحد على عشرة، واحتمال إخراج الرقم ١ والرقم ٢ متتابعين هو واحد على مائة، وإخراج الأرقام ١ و٢ و٣ متتابعة احتمال واحد على ألف، واحتمال إخراج جميع القطع متتابعة من الرقم ١ إلى الرقم ١٠ يصل إلى رقم واحد على عشرة مليارات.

يمكن الاستنتاج من الاستدلال نفسه أنّ الشروط اللازمة لوجود الحياة على الأرض هي كثيرة جدًّا، حتّى إنّه لا يمكن أن تكون في أحوال ملائمة إلّا بالمصادفة[٢٧].

إنّه لأمر ذو شأن كبير لمسألتنا أن نُميِّز المصادفة المحض من المصادفة التي توجّهها القوانين الغائيّة التي تيسّر نشأة البنيات الحيّة وتطوّرها.

تنشأ المصادفة عندما تحدث الظاهرة مع أنّه ما من عامل طبيعيّ ييسِّر حدوثها. فهناك مصادفة محض، على سبيل المثال، بمعزل عن التطوّر، عندما يخرج في كازينو الرقم المراهن عليه، مع أنّ دولاب

---

(٢٧) A. CRESSY MORRISON, *Man does not stand alone*, New York, 1944.

المقامرة يعمل على وجه كامل، ولا غشّ فيه ولا ميل إلى الوقوف عند بعض الخانات.

وعلى عكس ذلك، **تحدث المصادفة الموجَّهة عندما تنشأ ظاهرة في سياق تيسّرها بعض العوامل الطبيعيَّة.** فلنعد إلى المثال السابق. تكون المصادفة موجَّهة إذا كان في الدولاب تزوير، فهو «على سبيل المصادفة» يقف عند بعض الخانات.

ويكون هناك مثال آخر للمصادفة المحض إذا نَشَأَ عند خلط كريَّات بيض وكُريَّات حُمر في علبة مُعَسْكران، لأنّ جميع الكريّات البيض كانت مُمَغْنَطَة. فتلاقي الكريّات يكون مصادفة ولكن جميع الانتظامات «الناجحة» تُحفظ[٢٨].

ترى الدروينيّة الحديثة أنّ الجُزَيء الحيّ الأوّل من الـ ADN القادر على تكرير نفسه نشأ من انتظام حدث بمصادفة عناصر كيميائيّة مصادفة محض. يُفسِّر الفائز بجائزة نوبل مانفريد أيغن أنّ هذا الرأي لا يُرضي علماء الفيزياء لأسباب إحصائيّة. فإنّ أبسط جينة لِلْا ADN هي سلسلة ٣٠٠ حامض أميني، ٣٠٠ موقف كلّ منها يمكن أن تحتلُّها أربع نوى. فاحتمال أنّ الجُزَيء الوحيد «الصالح» ينشأ من عدد لا يُحصى من الانتظامات غير الناجحة، مع أنّها محتملة كيميائيًّا، هو عدد ٧٢ تتبعه ١٠٨ أصفار. إنّه عدد لا نهاية له: إذا ملأنا العالم (قطره ٢٠ مليار سنة ضوئيّة) بأصغر الذرّات، ذرّات الهيدروجين المضغوطة إلى أقصى حدّ، فإنّ العدد الجامع للذرّات يكون ٧٢ مرّة أقلّ من هذا العدد[٢٩].

---

(٢٨) G. BLANDINO, «Il finalismo biologico», in *Civ. Cattol.* 1985, II, 147ss.

(٢٩) M. BLONDET, «Darwin addio, la vita non nacque dal caso», *Il Giornale,* 30/10/1987.

يواصل إيغن كلامه فيقول: «إنّ احتمال أنّ الحياة وليدة المصادفة المحض هو إذًا صفر في الواقع. فالذرّات الضروريّة لأوّل جُزَيء يمكن أن تكون على بعد مليارات من السنين الضوئيّة، ومدى وجود العالم كلّه غير كافٍ لتلاقيها»(٣٠).

قوانين المصادفة المحض

درس علماء الرياضيّات العُليا الحديثة المصادفةَ ، واستنتجوا من هذا الدرس بعض قوانين تُستعمل على نحو مستمرّ في البحوث الإحصائيّة.

أ - أوّل قانون للمصادفة هو عدم النظام

إذا قُذِفت في الهواء قبضة من العيدان الصغيرة، كان هناك احتمال بأنّ بعضًا منها تنتظم في شكل هندسيّ، ولكن هذا ينقص هندسيًّا حتّى يصير في الواقع شيئًا مستحيلًا كلّما أصبح الشكل معقّدًا ومنتظمًا.

ب - المصادفة المحض مضادّة للوحدة

يُلاحظ دائمًا في المصادفة المحض الفقدان المطلق لمخطّط يرتّب الأجزاء ويوحّدها، ذلك المخطّط الذي نجده، على عكس ذلك، بأوضح وجه في أعمال الفنّ والصناعة التي يقوم بها كائن عاقل. حتّى هنا، فكلّما كثرت الأجزاء كانت الوحدة التي تؤلّفها أوثق. وكذلك ينقص الاحتمال نقصًا هندسيًّا حتّى يصبح في الواقع صِفْرًا، حتّى ولو وُضِعَت هذه الأجزاء معًا بالمصادفة.

---

(٣٠) M. EIGEN et R. WINKLER, *Il gioco. Le leggi naturali governano il caso*, Adelphi, Milano, 1986; G. BLANDINO, «The causes of Evolution, A Critic of Darwinism», in *Accademia Naz.* dei Lincei, *Rendiconto delle scienze fis., matemat. e natur.*, n. 79 (1986) 10 mai.

ج – المصادفة المحض هي غير مستقرّة حتمًا

حتّى إذا أنتجت المصادفة «بطالع عجيب» جملة معقّدة من الأجزاء تُساهم في العمل لغاية واحدة، **فهي تهدمها لوقتها بعدئذٍ**، لأنّ العمل للحفاظ على ائتلاف موفّق وأكثر من ذلك، إنتاج مكرّر أو متسلسل لهذا الائتلاف، يُخالف مخالفة مطلقة طبيعة المصادفة ذات القوّة العمياء.

د – ليست المصادفة تدريجيّة

يُسلِّم أنصار المصادفة بأنّه غير محتمل إلى أقصى حدّ، طوال مدى وجود العالم، حدوث ولو مرّة واحدة، نشوء بنية منظّمة مثل بنية خليّة حيّة نشوءًا طارئًا ولو فجائيًا. ولكنّهم يعتقدون أنّ النشوء البطيء والتدريجيّ، وقد أثّر فيه الانتقاء الطبيعيّ، كان ممكنًا ومحتملًا في تلك الفترة نفسها.

ليست فرضيّتهم صحيحة حتّى مع المصادفة المحض، بمعزل عن قوانين غائيّة طبيعيّة. فقد ثبت بحساب الاحتمال أنّه يحتمل نشوءٌ فجائيّ بالمصادفة لمجموعة صناعيّة أكثر من نشوء تدريجيّ لآلات بسيطة لا تهدم نفسها لوقتها، بل تحافظ على نفسها وتنتج آلات تزداد تعقيدًا وتحسّنًا، حتّى إنّها تكوّن المجموعة الصناعيّة. فالتدريج يفترض نشوء سلسلة من المصادفات العجيبة تزداد تعقيدًا وتحدث كلّها متتابعة على الخطّ نفسه من التقدّم، ولهذا السبب يمكننا أن نعلن قانون المصادفة الرابع : **«المصادفة المحض ليست تدريجيّة»**(٣١).

---

(٣١) «Il caso e l'anticaso. L'errore del Darwinismo», in *Civ. Cattol.* août 1968, pp. 256-268.

الإيمان العاقل: إيمان پلانك Planck وأينشتاين

إنّ حسابات شبيهة بالحسابات التي قام بها لعهد قريب جدًّا مانفريد أيغن تنفي نشوء أوّل خليّة حيَّة نشوءًا طارئًا، نشرها ماكس پيرُوتس Max Perutz الفائز بجائزة نوبل للكيمياء العام ١٩٦٢(٣٢).

إذا كان لِجُزَيْء واحد من الپروتين المركَّبة على سبيل المثال من ٥٣٩ من الحامض الأميني المرتّبة بحسب ترتيبها الدقيق، أن تُنشِئَه المصادفة المحض، لكان تطلَّب مكانًا أوسع بكثير من عالمنا، المليء بالأمثلة العشرين جميعها لحامض الأميني الموجودة التي تستمرّ في الائتلاف في ما بينها طوال آلاف من مليارات السنين. ثمّ إنّ المصادفة المحض تُدمِّر بغتة كلّ انتظام نافع وظيفيّ كما يشرح ذلك الفائز بجائزة نوبل للطبّ العام ١٩٧٦ جورج وُلد Wald: «إنّ الانحلال العفويّ أكثر احتمالًا، ويجري بسرعة أكبر من التآلف العفويّ. إنَّ اتّحاد الحوامض الأمينيّة، الواحد بعد الآخر، على سبيل المثال، كي ينشئ بروتينة واحدة، حصولُه قليل الاحتمال، ولكن انحلال الحوامض الأمينيّة أكثر احتمالًا، وهو بالتالي يجري بسرعة كبرى. نجد أنفسنا في حالة أسوأ من پنيلوپ Pénélope وهي تنتظر أوليس Ulysse. كانت پنيلوپ الصبور تفتّق في الليل ما صنعت في النهار، أمّا في ما يخصّ الحوامض الأمينيّة فليل واحد كاف لتفتيق عمل قرن»(٣٣).

وتابع وُلد: إنَّ جُزَيْئًا واحدًا من البروتين لا يُجدي نفعًا. «إنّ

---

(٣٢) Max F. PERUTZ, «The Emoglobine Molecule», in *Scientific American*, Nov. 1964.

(٣٣) G. WALD, *L'origine della vita*, Zanichelli, Bologna, *1968*, *cit.* in *D.* RAVALICO, *La creazione non è una favola*, Ed. Paoline, Cinisello Balsamo (MI), 1987, p. 92.

البروتين تؤلِّف تكتّفًا عظيمًا شديد التعقيد لا نهاية لتنوّعه. فهنا حقًّا تنشأ الصعوبات، إذ لا يكفي أن يكون قدرها موافقًا ونِسَبُها موافقة. ولا بدَّ أيضًا من أن تنتظم في رسم صحيح موافق، على مثال ذلك»[٣٤].

درس الأُستاذ جون تيلر بونر John Tyler Bonner وهو عالِم حياة عظيم الشأن، من جامعة پرنستُن، جراثيم خلق البحر التي هي في جوهرها الجراثيم ذاتها في البحور البدائيَّة، وتشبه أيضًا الطحلب الأوّل. فكتب في كلامه على هذا النبات الصغير ذي الخَلِيَّة الواحدة: «إنّه يعرض علينا مخطَّط معمل كيميائيّ معقَّدًا تعقيدًا فريدًا، وفيه أقسام كثيرة وآلات كثيرة والعديد من أجهزة مراقبة التثبيت. إنّه يستطيع البقاء إلى ما لا نهاية له، ويستطيع بالتآلف أن يحلَّ محلّ الأجزاء المفقودة، ويستطيع أن يَنمو لا بل يستطيع فوق ذلك، بناء شيء مساوٍ لنفسه.

من الواضح أنّ ليس في داخله آلات أو عجلات، في حين أنّه يحتوي قدرًا كبيرًا من جُزَيئات بروتينيّة. وهو يحتوي، في المعدَّل نحو ٢٠٠ مليون مليون منها. إنّ هذا الخاطر المحيِّر يؤثِّر تأثيرًا شديدًا في المخيّلة، حتّى إنّ كلّ عزم على فحص كيفيَّة عمل هذه الوحدة المليئة بملايين الملايين من الجزيئات البروتينيّة يبدو خارجًا عن منال ذكائنا[٣٥].

إنّ ترتيب العناصر في كلّ بروتينة مُحكم جدًّا. كتب الدكتور فريديريك سانغر Frederick Sanger الفائز بجائزة نوبل للفيزياء العام

---

(٣٤) D. RAVALICO, *op. cit*. p. 96.

(٣٥) J. TYLER BONNER, *Le idee della Biologia*, Mondadori, Milano, 1964, *cit*. in D. RAVALICO, *op.cit*. p. 97.

١٩٥٨ و١٩٨٠، والذي اكتشف الأنسولين وهو بروتينة من أبسط البروتينات ومن مشتقّات الـ ADN: «يكفي تغيير مكان واحد من حوامض الأميني الستّة والتسعين لجعله غير فعّال. إذ نحصل على بروتينة أخرى ليس لها قاسم مشترك مع الأنسولين، وهي بالتالي عاجزة عن مراقبة هذا التحوّل الغذائيّ الخاصّ»(٣٦).

رأينا أنّ المصادفة المحض، من غير دفع القوانين الطبيعيّة الغائيّة، لا تستطيع إعداد جُزَيء واحد من البروتين، وقد تحقّقنا مع عالِم الرياضيّات ماكس بيروتس أنّه لا يكفيه كلّ اتّساع العالم ولا المليارات من السنين منذ وجوده. فكيف يُزعم أنّ المصادفة تنجح في أن تضع ملايين جزيئات البروتين الضروريّة لأوّل طحلب في مكانها وشكلها الموافقين؟

ولكن، أيستطيع أحد أبدًا أن يتصوَّر ما هي البروتين حتّى أعظمها ضخامة، تجاه شريط من الـ ADN مع بضعة مليارات من النوى؟ كان اكتشاف الـADN العام ١٩٥٤، بسعي كريك و واتسون Crick et Watson ضربة شديدة لأنصار المصادفة المحض. إنّ الـ ADN الذي بمعزل عنه لما استطاع الطحلب الأوّل أن يتناسل، هو قمّة معجزات الطبيعة، وتفسيره بالمصادفة قمّة الحماقة.

صدق إسحق باشفيس سنغر Isaac Bashevis Singer الفائز بجائزة نوبل للآداب العام ١٩٧٨: «نَسَبَ عدّة مفكّرين مادّيّين إلى آلة التطوّر العمياء، ما يزيد من المعجزات والمصادفات غير المحتملة والخوارق، على ما نَسَبَ إلى الله جميعُ علماء اللاهوت في العالم»(٣٧).

---

(٣٦) F. SANGER, *cit.* in D. RAVALICO, *op. cit*, p. 106.

(٣٧) مجلّة *Geo*، شباط ١٩٨٣.

كتب الفيلسوف أتيان جيلسون Etienne Gilson: «عندما يُسأل أنصار المصادفة: لماذا في العالم الكائنات المنظّمة تلك، يُجيبون: إنّها المصادفة. أيُّ امرئ كان يُمكنه بالمصادفة أن يضرب في لعبة البليار ضربة معلِّم، ولكن عندما ينجح لاعب بليار في سلسلة من مائة ضربة، فالقول إنّه نجح بالمصادفة يعرض تفسيرًا يتّصف بالضعف»[٣٨].

أكّد ألبير أينشتاين مع أنّه كان يحسب حساب مليارات السنين واللاعبين: «كلّ مَن يهتمّ بالبحث العلميّ لا يسعه إلّا أن يقتنع بأنَّ روحًا تظهر في ما نسمّيه قوانين الطبيعة. إنَّها روح أسمى بكثير من العبقريّة البشريّة، بحيث يجب على الإنسان بما لديه من وسائل وضيعة أن يشعر تجاهها بالتواضع»[٣٩]. وأضاف ماكس پلانك العظيم: «إنّه لأمر غير قابل لأن يشكّ فيه البحث الفزيائيّ، فحجارة بنية العالم البدائيَّة ليست موضوعة الواحدة بجانب الأخرى بمجموعات منفردة من غير تماسك، بل متَّصلة كلّها معًا بحسب مخطَّط واحد. وبعبارةٍ أخرى أنّ شرعيّة شاملة تسود جميع أحداث الطبيعة، يمكننا أن نعرفها إلى حدٍّ ما على أقلّ تقدير»[٤٠].

فما من شيء يمنعنا من توحيد القدرتين، بل إنّ ميل طبيعتنا المفكّرة إلى تصوُّر يوحِّد العالم يتطلَّب توحيد القدرتين اللتين تعملان في كلّ شيء، وكلتاهما يغمرهما سِرّ يُخفى علينا، يكمن في نظام عالَم العلم وإِله الديانات[٤١].

---

(٣٨) E. GILSON, *God and Philosophy*, New Haven, Yale University Press, 1941, p. 127.

(٣٩) A. EINSTEIN, *The Human Side*, Princeton University Press, N.J., 1979, *cit.* in AA. VV. *Parapsycologia e sopravvivenza*, Ed. Mediterranee, Roma, 1984, p. 28.

(٤٠) M. PLANCK, *Scienze, Filosofia, Religione*, Ed. Fabbri, Milano, 1973, p. 163.

(٤١) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

عبد السلام وجمال الطبيعة

لقد اضطرّتنا الرياضيّات إلى التخلّي عن سكّان خارج الأرض والعودة إلى الأرض. فلنسلِّم على سبيل غير المعقول بأنّ المصادفة المحض أنشأت أوّل حيّ من خَلِيَّة واحدة مزوَّد الـ ADN. فكيف يُفسَّر ظهور أعضاء معقّدة فيها ائتلاف جميع الأجزاء المختلفة المتكاملة؟ إنّ التطوّر من غير قوانين طبيعيّة مفضّلة، تسيّرها عوامل تعود إلى المصادفة والانتقاء الطبيعيّ، لا يُفسِّر ظهور أعضاء وظيفيّة.

إنّ عضوًا ليجعل تفوّقًا ما، مهما كان قليلًا، في الصراع من أجل حياة الحيّ الذي يمتلك العضو، يحتاج إلى **أن يعمل**، ولو على وجه بدائيّ ناقص. وهذا يقتضي أنّ جميع الأجزاء الجوهريّة هذه قائمة في الوقت نفسه، في الموقف الموافق منذ البدء.

ولهذا السبب، إذا نشأ على سبيل المصادفة، في حَيٍّ بدء عضو جديد بتبدّل دقيق جينيّ، فإنّه يزول عن الوجود بفعل المصادفة نفسها، لأنّه لا يجعل لهذا الحيّ تفوّقًا طفيفًا على أمثاله.

يجب أن تخرج بفعل مصادفة محض أجزاء العضو الجوهريّة كلّها معًا، وهو أمر غير محتمل، مثل ظهور معمل صالح للعمل، ظهورًا غير متوقّع على أثر زلزال أرضيّ.

وليس هذا بكاف. إنَّ جمال الطبيعة الرائع، وتناسقات بنيات الأحياء وقِيَمها الجماليّة هي أيضًا وقائع يجب ألّا تُنسى ولا يُقلَّل من قيمتها. لا يمكن القول إنّها خليقة باطنة من صنع الإنسان، فهي تُظهر بوضوح ترتيبًا وانسجامًا ووحدة الأجزاء نفسها التي هي في ما هو خارج عنّا. وهي ما عدا ذلك، تقتضي ائتلافًا دقيقًا بين مثل هذه

الوقائع الخارجيّة وذوقنا الجماليّ الباطن. ولا يمكن القول أيضًا إنّ الجمال يُلازم الوظيفيّة كما يسعنا أن نلاحظ ذلك في الجزء الأكبر من التنظيمات التي يُنشئها الإنسان.

أيجب علينا الافتراض أنّ الجمال الأصيل الموضوعيّ أنشأته المصادفة؟

المصادفة بلبلة وتركيب مشوّش. وإنّ الإناقة، على وجه خاصّ، والتناسق والانسجام في الأشكال والألوان لا تجعل أيّ تفوّق يُذكر للحيّ الذي يمتلكها، كأنّ ذلك يمكنه أن يساعد على بقائه وعلى توريث سلالته وميزاته.

إنّنا نستطيع أيضًا، كما يقول عبد السلام الفائز بجائزة نوبل، أن نلقى الله في حقيقة الطبيعة وجمالها. فالعلم بدنوّه من رؤية جمال الطبيعة بقرب وعمق، يمكنه أن يصبح اختبارًا دينيًّا حقيقيًّا صادقًا يحثّ على تجاوز تقسيم حقيقة الأشياء المتصلّب بين «طبيعيّة» و«فائق الطبيعة»[٤٢].

شروط نشأة الحياة وبقائها في الأرض

شروط الحياة على الأرض كثيرة ومعقّدة.

أ - تدور الأرض على نفسها في خطّ الاستواء بسرعة ١٦٠٠ كيلومتر بالساعة. فلو دارت بسرعة ١٦٠ كيلومترًا بالساعة لكان النهار والليل أكثر طولًا عشر مرّات، ولأحرقت الشمس الحارّة النبات، في حين أنّ كلّ نبتة نجت يقتلها البرد.

ب - الشمس ينبوع حياتنا، وحرارة وجهها خمسة آلاف

(٤٢) «Scienza e bellezza», in *Nuova Umanità*, Mai-Juin 1988, pp. 33-47.

وخمسمائة درجة، والأرض بعيدة على وجه كاف لكي تدفئنا من دون أن تحرقنا. ولو أرسلت إلينا نصف إشعاعها فقط لمُتنا بردًا، في حين أنّنا نبقى مُشوِيِّين لو أرسلت إلينا إشعاعها بمعدَّل مرّة ونصف المرّة.

ج - إنحناء مدار الأرض، بمعدَّل ٢٣ درجة بالنسبة إلى الخطّ العموديّ يعطينا الفصول. ولولا هذا الانحناء لتحوَّلت أبخرة المحيطات نحو الشمال ونحو الجنوب، وتكدَّست قارّات من الجليد.

د - لو كان القمر، على سبيل المثال، يبعد ثمانين ألف كيلومتر منّا بدَل أن يكون على بعده الذي هو فيه، لغطّى المدّ والجزر القارّات كلّها مرَّتين في النهار، ونقل الانجراف الجبال نفسها.

هـ - لو خُزِّن الأوكسيجين في الصخور لكانت قشرة الأرض أثخن نحو ثلاثة أمتار، ولكن لم يكن أيّ شكل للحياة ممكنًا.

و - لو حُلَّ الأنهيدريد الكربونيّ وجميع الأوكسيجين في المحيطات، لارتفعت المياه مترًا فقط، ولكن لم يكن ثمَّة وجود للحياة النباتيّة[٤٣].

يختلف الحيّ عن الآلة كلّ الاختلاف

ولكن، بالرغم من جميع الأسباب المذكورة حتّى الآن لصالح الغائيّة، فإنّ السبب الأقوى لم يذكر بعد. إنّه **الاختلاف الجوهريّ** بين البنيات الماديّة والغرائز، بين الأجهزة والإحساسات، بين الآلات والذكاء، بين الأجهزة الآليّة والأحياء.

---

(٤٣) C. A. MORRISON, *Man does not stand alone*, New-York, 1944.

إنّ البروتينات والـ ADN والـ ARN، وأكثر من ذلك العين والأذن والجهاز العصبيّ وجهاز الدورة الدمويّة هي بنيات معقَّدة إلى أقصى حدّ، وتعقيدها أشبه بتعقيد الناظمات الآليّة، أي إنَّها أجهزة آليّة ولكنّها تحوي أيضًا حقيقة تختلف اختلافًا جوهريًّا. فبوسع جهاز آليّ أو ناظم آليّ العمل والجواب عن طلبات الإنسان، ولكنّه لا يشعر بالإحساسات والحاجات والانزعاج واللذّة، ولا يرى ولا يعرض على نفسه مشكلات، ولا يفهم ما يعمل وما يقول. نحن نعرف جميعًا ويؤكّد الخبراء أنّ الناظمات الآليّة لن تصل أبدًا إلى الشعور الداخليّ، إلى الـ «أنا» الواعي، إلى الحسّ. فبين الأجهزة المصنَّعة والكائنات الحيّة إذًا فرق جوهريّ، وهوّة. حتّى لو استطاعت المصادفة المحض تركيب الخليّة الأولى وفيها الـ ADN، فالمسألة تبقى جهازًا آليًّا، لا الحياة ولا، أقلّ من ذلك، الحياة القادرة على إنتاج الذكاء. فالوحدة في جهاز آليّ خارجيّة، لأنّ تعاون الأجزاء هو حَرِيٌّ بأن يُقال له قسريّ أي تفرضه إرادة خارجيّة. في حين أنّ التعاون في البنيات الحيَّة، يُشعر به على أنّه حاجة، من أجل خير خاصّ، لأنّ جميع الأجزاء يعمل فيها مبدأ يوحِّدها. فلذلك وحدة البنيات الحيَّة هي كاملة داخليّة، تأتي من المبدأ الحيويّ، وهو غير مركَّب من أجزاء، لا لشيء إلّا لأنّه يوحِّدها، ولكنّه حاضر كلّه في جميع الأجزاء وفي كلّ واحد منها. ولذلك نؤكّد مع الفلسفة كلّها أنّ الحَيَّ هو أعظم جدًّا من جهاز آليّ.

ولكنّ أنصار المصادفة يكرهون كراهية شديدة جدًّا افتراض تفسير يخرج عن دائرة الأسباب الطبيعيّة، حتّى إنّهم يفضّلون مصادفة ساحرة تُخرِجُ، وعيناها معصوبتان، من قبَّعة التطوّر الكبيرة أرانب حيَّة وشموعًا موقدة وحمائم ترفرف من غير أن يكون قد وضعها أحد في تلك القبّعة.

إنّ أنصار المصادفة هم إواليّون (Mécanicistes). كتب مونو: «إنّ الاكتشاف الحديث الكبير هو تفسير الطبيعة تفسيرًا إواليًّا محضًا»(٤٤).

إنّ مثل هذه الإواليَّة نتيجة منطقيّة لمذهب المصادفة، لأنّه إذا كان الإنسان والكائنات الحيَّة نتيجة المصادفة المحض، فلن يمكنها أن تكون سوى أدوات.

لا تشعر الناظمة الآليّة باللذّة

تختلف الحياة، حتّى في أشكالها السُفلى البدائيّة، وأكثر من ذلك كثيرًا، عند الحيوانات والإنسان اختلافًا تامًّا عن عمل أداة.

إنّها أشبه بمُدير لا يُرى يوزّع الأوامر، وهو متأهّب لتبديل تصرّف جميع الأجزاء أو جزء واحد، ليلبّي الحاجات المشتركة أو ليحارب المعتدي.

والأمر واضح عند الحيوانات ولكنّه ظاهر عند النباتات أيضًا، وهي تحيا حياة متّصلة بالحياة الحيوانيّة. حتّى في أبسط الحيوانات نجد تصرّفات غائبة عن الأجهزة الأكثر تطوّرًا، أنشأها الإنسان الحديث منذ قرون من التقدّم الصناعيّ.

عند الحيوانات ثمّة شيء يبعد كثيرًا عن عمل الجهاز الآليّ، وهو الشعور باللذّة والانزعاج لأنّهما شعوران بالخير وبالشرّ الخاصّ. وآخر الأمر أنّ المعرفة الحسّيّة تفترض على نحوٍ ما «حياة باطنة» أو شخصًا يمكنه الدخول في باطن ذاته، ويقوّم على وجه ذاتيّ أخبارًا عمّا يجري في باطنه وفي خارجه. فما من ناظمة آليّة

---

(٤٤) J. MONOD, *Il caso e la necessità*, *cit.*, p. 43.

تقلّد الذكاء البشريّ تقترب أدنى اقتراب من شرف هذه النفس.

ولا نتكلّم على الذكاء في عقل الإنسان، وعلى عواطفه وأحداسه واكتشافاته، وما ترتاح إليه روحه، وحرّيّته واختياراته الخُلقيّة. إنّ جميع كبار الفلاسفة والمفكِّرين وعلماء النفس الروحانيّين الأقدمين منهم والحديثين، وهم أُناس يبدو أنّ أنصار المصادفة يجهلونهم، يتّفقون في يقينهم على أنّ الروح تحيا في مستويات تختلف اختلافًا جوهريًّا، وطبيعتها تفوق على وجه مطلق الإحساس والغريزة، وعلى قدر أعظم، عملَ الأدوات الآليّ. من هؤلاء الفلاسفة نذكر على سبيل المثال لا الحصر: أوغسطينس Augustin، توما الأكوينيّ Thomas d'Aquin، ديكارت Descartes، پسكال، كانت، هيغل Hegel، روسميني، بلونديل، سپينوزا Spinoza، برغسون، ياسپرس، فون هارتمان Von Hartmann، مرسال، وهايدغر Heidegger، وكيركِغارد، ماريتان، مونييه، تيار دي شاردان، يونغ، أدلِر Adler، وفرانكل... إلخ...

يفترض الانتقاء الطبيعيّ قوانين غائيّة

يؤكّد أنصار المصادفة المحض أنّ بنيات الأحياء نشأت بعمل مَخرج ذي حدَّين: المصادفة - الانتقاء الطبيعيّ، وهم يعنون أنّ الانتقاء الطبيعيّ هو نفسه أيضًا جزء من المصادفة. نحن، أنصار الغائيّة نشارك في الرأي المختصّ بالمخرج ذي الحدّين، لكن نلفت النظر إلى أنّ الانتقاء الطبيعيّ يحتوي، إن لم يكن على جميع القوانين الطبيعيَّة التفصيليَّة التي تنظّم تصرّف الأحياء وتوجّه نحو تقدّم وظيفيّ أكبر، فعلى قسم كبير منها، ويعبّر عن ذلك. فهو أشبه بالقول إنّ التطوّر تحقّق بالمخرج ذي الحدّين: المصادفة ونقيض المصادفة.

ويتطلّب الانتقاء الطبيعيّ أيضًا وعلى الخصوص أداة نفسيّة تتألّف من قوانين طبيعيّة موجَّهة وغائيّة، أي كيانًا غير ماديّ يفوق كلّ أداة ماديّة: وهو الحياة بما فيها من ميول وغرائز موجّهة توجيهًا غائيًّا(٤٥).

فقد استطاعت المصادفة أن تبني وتحسّن طوال مليارات من السنين أجهزتها الدقيقة (الخلايا والأعضاء والأجهزة والأنظمة والعيون والآذان والقلوب والقوائم والجلود وأعضاء التناسل) لأنّ الأحياء حتّى البدائيّة منها، شعرت على نحو دائم بأنّها مدفوعة إلى البحث عن غذائها وإلى أكله وتحويله إلى كيانها الخاصّ، وإلى مجابهة الشدائد والتكيُّف مع التبديلات، ومحاربة الأعداء والتناسل والدخول في نزاع مع المزاحمين للحصول على شروط أفضل، والهرب من الأحداث التي قد تسبِّب الموت. وبكلمة واحدة، لأنّها كانت مُسَيَّرة بنزوات مستمرّة وموجّهة نحو الرغبة في الحياة. فهذه هي القوانين الطبيعيّة وميلها إلى أن تُنشئ بالعمل في وقت واحد مع المصادفة، بنيات تكون على وجه مطّرد أصلح للعمل، ونحن أنصار الغائيّة نسمّيها الغائيّة الإحيائيّة.

يجب إذًا الاعتراف بأنّ الانتقاء الطبيعيّ والتبديلات الجينيّة الصغيرة الطارئة لا يسعها أن تعمل وتجعل تنظيم الكائن الحيّ الإحيائيّ يتقدّم، لو لم يكن في الحيّ نزوة موجّهة نحو غاية، نحو هدف، نزوة تفترض مسبقًا ذكاءً عَرَضَ الهدف على نفسه وأراد تحقيقه. مثل هذه النزوة قد تسمّى حبَّ الوجود أو الرغبة في الحياة أو شهوة الحياة ونزوة الكفاح للحفاظ عليها.

---

(٤٥) G. BLANDINO, «Il caso e l'anti-caso», in *Civ. Catt.*, août 1988, pp. 256ss.

إنّ المبدأ الذي يحرِّك كلَّ أداة طارئة أو اصطناعيَّة هو **الإكراه**. وعلى عكس ذلك، فالمبدأ الذي يحرِّك كلَّ حيّ هو **الجاذبيّة**.

إنّها نوع من الميل غير الشعوريّ إلى أشكال بدائيّة على نحوٍ أقلّ أو أكثر، من السعادة والحبّ، أو إلى الخير، أو ميل غير شعوريّ إلى الله الذي هو كمال هذه القِيَم. كتب الفيلسوف ماريتان: «يجب لهذا السبب الاستنتاج، أنّ ما من عامل يعمل ويسعى إلى هدفه إذا لم يكن يسعى قبل كلّ شيء إلى الخير الباقي. حقًّا، إنّ جميع العاملين في العالم، أيًّا كانوا، يتحرّكون نحو أهدافهم الخاصّة بهم، بدافع تحرُّكهم نحو الله الهدف الأخير السامي، وبدافع المحبّة التي بها يُحبّ الله كلَّ كائن أكثر من حبّه نفسه».

وهكذا يجب إذًا آخر الأمر، التوصّل إلى ذكاء ينوي الغايات التي تصبو إليها الأشياء وطبيعتها(٤٦).

تسقط الأوراق من غير أن يتدخَّل الله

إنّ الفكرتين الأساسيّتين في الكتاب المقدَّس والعقيدة الكاثوليكيّة، في الموضوع الذي نبحث فيه، هما **خلق الله العالَم، والكائنات الحيَّة والإنسان، ومعرفة الله الإنسانيَّة من خلال العقل**. يبدو لنا أنّه لا بدّ من بقاء الخلق والمعرفة بحقّ في ميدان علم اللاهوت، وقد نُسيا ونُحّيا جانبًا، لأنّ العلماء أنصار المصادفة نكروهما، ولا بُدّ من قبول المؤمن الحديث بهما، على أنّ الكتاب المقدَّس يؤكّدهما، ولهذا التأكيد تأييد عقليّ متين في براهين العلماء أنصار الغائيّة.

---

(٤٦) J. MARITAIN, *Alla ricerca di Dio*, trad. ital., Ed. Paoline, Roma, 1972, pp. 59, 64.

كانت النظريّة الوحيدة البديلة للنظريّة الغائيّة ولنظريّة المصادفة نظريّة الخَلق التي كانت ترى، باستناد خاطئ إلى حرف الكتاب المقدَّس، أنّ الله قد خلق كلّ جنس من الكائنات الحيَّة بتدخّل مفرد من غير أيّ تطوّر كان. إنّ مثل هذه العقيدة لا يؤيِّدها العلم ولا الكتاب المقدّس، وهي وحي دينيّ لا علميّ(٤٧).

هل خُلِقْنا بالعقل أم بالمصادفة؟ أجابت نظريّة الخَلْق: خَلَقنا العقل. وأكّدت نظريّة المصادفة أنّها هي التي خَلَقتنا. وجواب نظريّة الغائيّة والمؤمن الحديث هو: لم تخلقنا لا هذه ولا تلك، بل العمل المشترك بين هذه وتلك.

إنّ عقلًا من مثال إنسانيّ يعمل بالتجميع، وهو ينفي المصادفة على قدر كبير من الإمكان، ولهذا السبب هو سريع جدًّا. لنفترض أنّه يريد تركيب حامض نَوَويّ. سيُوحِّد جزيئات كبيرة فيما بينها. وسوف تقوم لتركيب الجزيئات الكبيرة، بتوحيد جزيئات بسيطة بعضها ببعض وهلمّ جرًّا. كلّ شيء يتطوّر حتّى في التفصيلات، بحسب المشروع. وهكذا فالذي يبني آلة يصنع القطع ويضعها معًا بدقّة بحسب الرسم والمخطَّط المصمَّم من ذي قبل.

وعلى العكس من ذلك، يكون في الطبيعة من باب التشبيهيّة النظر إلى الخلق والعناية الإلٰهيّة على أنّهما مشروع يحقّقه الله في كلّ تركيب خاصّ أو حدث. لقد حصلت المصادفة حينًا بعد حين، تقودها قوانين تفضيليّة، طوال ملايين من السنين، مع إخفاقات لا يُحصى عددها، على جزء نافع لتركيب بنية وظيفيّة، وهذا الجزء اختير وأثبت بفعل قوانين غائيّة.

---

(٤٧) ومن الكتاب المقدّس نفسه يتّضح أنّه ينبغي ألّا نفهم تفاصيله فهمًا حرفيًّا، لأنّه يورد، في ما يخصّ الخلق، روايتين مختلفتين كلّ الاختلاف (تكوين ١ و٢).

حتّى في إدارة شؤون العالم، لا يبدو من الصواب القول إنّ كلّ ما يحدث هو مشيئة الله، بمعنى أنّه هو الذي صمّم وقرّر كلّ حدث بمفرده.

كتب پُولْكِنغهُورن: «"كلمة المصادفة" في نظر امرئ مثل دونالد ماك كاي Donald Mac Kay[٤٨] هي اختصار "السبب مجهول"، فحسب أنّه يؤمن بأنّ كلّ شيء تنفيذ مخطّط يشرف عليه الله إشرافًا تامًّا. هذا الموقف غير قابل للخراب من وجهة نظر المنطق ولكنّه غير مقنع في شيء. لماذا اختار الله إخفاء يده اليمنى وراء مظهر المصادفة؟ فنظرة پيكوك Peacock أكثر جاذبيّة[٤٩]، إذ هو يؤكّد أنّ المصادفة تقوم في داخل الله بدور إيجابيّ للكشف عن تحقيق ما يُحتمل حدوثه»[٥٠].

يُقال: «ما من ورقة تسقط من غير أن يشاء الله ذلك»، ولكن الأوراق تتساقط مصادفة. وبالمصادفة تقع المصائب عندما لا تكون نتيجة ذنوب الناس. فالمصادفة ارتباط أحداث طبيعيّة، لا بل إرادات بشريّة تتضافر في إحداث نتيجة لا يتوقّعها الإنسان. أمّا الله فيتوقّعها ويأذن بها في معظم الأحيان، لخير نهائيّ يريد أن يجنبه منها من أجل جميع الناس من أصحاب النيّات الحسنة.

إنّ الله لا يخطّط ولا يقرّر الحروب وسائر أعمال الناس الظالمة، لا بل قد جعل في الضمائر قانونًا غائيًّا يخالفها هو شريعة الخير والشرّ، كما أنّه يمنح الإنسان القدرة على كبح أهوائه الغريزيّة.

---

(٤٨) D. M. MAC KAY, *The Clockwork Image*, Oxford University Press, 1974; *Science, Chance and Providence*, Oxford University Press, 1978.

(٤٩) A. R. PEACOKE, *Creation and the World of Science*, Oxford University Press, 1979.

(٥٠) J. POLKINGHORNE, *Scienza e fede, cit.*, p. 103.

كلّما أساءت قوانين الطبيعة إلى امرئ بمفرده تدخّلت قوانين أخرى غائيّة مطبوعة في العقل البشريّ، كالميل إلى إثارة العبقريّة والقدرة عليها، لمكافحة الشرور، والميل إلى طلب تعويض في الخيرات الروحيّة التي تفوق الخيرات المادّيّة المفقودة، إنّه ميل الأبرار إلى مساعدة البائس.

إنّ الذي يتقبّل بإيمان مصيره في الأرض والأحداث حتّى الشاقّة منها في حياته، يُحسن العمل بمشيئة الله، لأنّ هذه الأحداث، وإن وقعت بمعزل عن اختياراته أو بإرادة الناس الآخرين، أو بالمصادفة، فإنّه يتحمّلها لمشيئة الله، وبعون النعمة يستعملها ليدرك الهدف الأوّل في حياة الإنسان. يعلّم الكتاب المقدّس أنّ الله هو بنفسه يقوم على قدر شدّة المحنة، بعمل روحيّ ليسند ويشدّد في الباطن، فيساعد الذي يسلّم نفسه إلى الله، على أن يحصل من الألم على تقدّم روحيّ يسير به إلى أفراح أعمق وأثبت كثيرًا من الأفراح التي لم يستطع الحصول عليها في المرحلة العابرة هذه. إنّ موقفنا لهو وسط بين موقف ماك كاي وموقف بيكوك. وهو، لذلك، الموقف الذي يتبعه علماء اللاهوت أكثر من غيره على أساس الإنجيل، إذ إنّ الله يترك على العموم الأسباب الطبيعيّة تعمل، لكنّه يتدخّل في أحداث الحياة الروحيّة الحاسمة في كائن بشريّ، حتّى تتبع هذه الأحداث مسارًا ما مؤلمًا في بعض الأحيان، ولكن دائمًا بهدف خير هذا الشخص وجميع الأبرار. يجوز الكلام على مصادفة تسيّرها يد الله، ولكن سنتكلّم على ذلك في مكان آخر.

فالمصادفة وحدها قد تجرّنا إلى الفوضى، ولكنّها إذا سيّرها الله، قادتنا إلى البيت.

يا داروين العزيز، ليست المصادفة كلّ شيء

لا تنفي المصادفة والخَلق بعضهما بعضًا. فهناك مثل بوسعه أن يوضح فكرنا. ففي الدائرة المحيطة بمدينة دُشّن لوقته حيٌّ جديد، لكن لا تجارة فيه. وإذا أمَرَت سلطة مستبدّة مواطنين خاصّين بفتح تجارة، ودلّت بوضوح إلى مكان البضاعات التي ستباع وإلى كيفيّتها ونوعيّتها، ظهرت المتاجر لوقتها بحسب التفصيلات المفروضة، إذّاك يحصل شيء أشبه بالنظريّة الخَلْقيّة.

فلنفترض على عكس ذلك أنّه ما من أحد يأمر بمثل ذلك (فلا بُدَّ من أن تنشأ الحوانيت بالمصادفة)، لكن ما من مصالح اقتصاديّة لفتح الحوانيت (فلا قوانين طبيعيّة). يُرجَّح كثيرًا أنّ المتاجر لن تفتح أبدًا فيضطرّ الناس إلى الذهاب إلى الأحياء المجاورة لشرء حاجيّاتهم، فيحصل شيء أشبه بنظريّة المصادفة.

ولنتصوّر آخر الأمر أنّ البلديّة لا تصدر أوامر في هذا الشأن مع أنّها مطّلعة اطّلاعًا حسنًا على المصالح التجاريّة، فبعد بضعة أشهر يكون في الحيّ جميع أنواع البضاعات من الصنف الأوّل لا بل بضع موادّ ترف. فالمصالح التجاريّة هي أشبه بالقوانين الطبيعيّة الموَجِّهة وبالانتقاء الطبيعيّ، لأنّه حتّى في هؤلاء الناس تكمن الحاجة إلى الحياة والرغبة في حياة أفضل وبقاء الأقوى، هذه هي الغائيّة. يبدو أنّ الله، كما يفكّر العالِم الإنكليزيّ پيكوك وغيره من عُلماء الفيزياء الأحيائيّة، قد اختار عمدًا استعمال المصادفة طريقة لتحسين الإمكانيّات الضمنيّة التي في الخليقة. «يستعمل الياناصيب العملاق في الكون الكومة الضخمة من الإمكانيّات، ليستخرج منها تلك التي هي صحيحة وفي الوقت نفسه صالحة للتعبير عن قصد الله»[٥١].

---

(٥١) D. J. BARTOLOMEW, *Dio e il caso*, SEI, Torino, 1987, p. 180; A. R. PEACOCKE, *Creation and the World of Science*, Clarendon Press, c.3.

المصادفة تنزل إلى درجة العامل غير المختصّ

يؤكّد أنصار الغائيّة أنّ التطوّر دفعته إلى الأمام التبدّلات الجينيّة التي تبدو طارئة، ووجّهه الانتقاء الطبيعيّ، وهو على عكس ذلك، مبنيٌّ على القوانين الغائيّة. لكن يبدو أنّ الاكتشافات العلميَّة الأخيرة تذهب إلى أبعد من ذلك وهي أشدّ غائيّة من أنصار الغائيّة. حتّى إنّ التبدّلات الغائيّة لا تكون دائمًا طارئة. ففي بعض الأحوال توجِّهها قوانين ترمي إلى تكييف الحَيّ وفق التبدّلات البيئيّة غير الملائمة.

كتب الأستاذ لودوفيكو غلّيني Lodovico Galleni، من جامعة بيزة: «إنّ مُستجدّات علم الحياة التطوّريّ تُعرِّض بسرعة إلى أزمة بعض الافتراضات التي هي، على عكس ذلك، ضروريّة لتفسير ظواهر التطوّر تفسيرًا داروينيًّا»[٥٢]. تحدث بحسب حاجات الحَيّ ليتكيَّف مع بيئته الجديدة، تنقّلات «ترسپوزوني» (Trasposoni) (وهي أجزاء من الـ ADN اكتشفتها في السنوات الأربعين الأميركيّة الفائزة بجائزة نوبل برباره مك كلنتوك Barbara McClintock من قسم إلى قسم آخر للجينوم، فتسبِّب تبديلات مفيدة في شكل أعضاء الحيّ نفسه وقيامها بالعمل أو يحدث بحسب الحاجة، إنتاج نُسخ إضافيّة لِجين مُحدّد. يُواصل غلّيني: «إنّ الجسم، إزاء هذه الحالة من الضغط، يردّ بزيادة بضع مئات المرّات من الجينات التي تُتيح للأنزيمات القادرة على أن تتغلّب على حالة الضغط»... «كلّ ذلك يجعلنا نفكّر في جهاز ردّ اسْتُدْرِك من قبل»[٥٣].

---

(٥٢) L. GALLENI, «Cosa resta di Darwin. Le nuove teorie dell'evoluzione», in *Avvenire*, 27/10/1990, p. 13.

(٥٣) المرجع نفسه.

يواصل عالِم بيزة: «إنّ مستجدّات علم الحياة التطوّريّ في السنوات الأخيرة تظهر قدرات مدهشة غير متوقّعة لتطوّر الجينوم[٥٤]، وتميل أكثر فأكثر إلى تقليل دور المصادفة داخل الافتراضات التطوّريّة. يتبع تطوُّر الجينوم قوانين دقيقة تبدو إحدى القوى التي توجِّه التطوّر[٥٥]». فالمصادفة هي، في هذه النظرة الجديدة، المهندس الرئيس في أوّل الأمر، ثمّ معاون ثانيًا، والآن تنزل إلى درجة عامل غير مختصّ».

يُعبِّر عالِم فيزياء علم الحياة الألمانيّ والفائز بجائزة نوبل، مانفريد أيغن في كتابه اللعب *Das Spiel*، عن القضيّة التي يأخذ بها اليوم كثير من علماء الحياة، وهي تخالف المصادفة المحض التي ينادي بها مونو. فالعنوان الفرعيّ يبدو دليلًا على النيّة: «القوانين الطبيعيّة توجّه المصادفة»[٥٦]. أو، كما كتب أيغن في مقدّمة الطبعة الألمانيّة لكتاب مونو، «على قدر ما يعود أصل الشكل الفرديّ إلى المصادفة، يكون مسارُ الانتقاء والتطوّر ضرورة لا مَفرّ منها. ما من شيء أكثر من ذلك ولا أقلّ. بل، **لا للمصادفة وحدها**»[٥٧].

فالأمر هو كما كتب عالِم الحياة النمساويّ روبِيرت رِيدي Rupert Riedi: «إنّ الله الذي يقتصر على اللعب بزهر النرد يكون لاعبًا. ولا يكون لأيّ عمل من أعماله معنى. حتّى إنَّ أينشتاين ظلّ في حيرة من هذا الأمر. لكنّ إلهًا لا يلعب ألبتَّة بزهر النرد، يبني آلة وما من عمل من أعماله يكون حُرًّا». يُسائل مانفريد أيغن نفسه:

---

(٥٤) الجينوم هو مجموع جينات الفرد.

(٥٥) L. GALLENI, *art. cit.*, *Avvenire*, 27/10/1990.

(٥٦) M. EIGEN - R. WINKLER, *Das Spiel*, München - Zürich, 1975.

(٥٧) M. EIGEN, Préface à l'éd. allemande de J. MONOD, *Zufall und Notwendigkeit*, p. XV.

«أفَيلعب الله بزهر النرد؟»، «بلا ريب، لكنَّه يتبع قواعد لعبه»(٥٨).

خلاصة القول هي إنّ أيغن تَخلّى في ميلانو العام ١٩٨٧ عن الفكرة القائلة إنّ الحياة ظهرت في العالم الجامد ظهور بنت يتيمة للمصادفة، وإنّه من الأقلّ - أي الخواء - نشأ الأكثر وهو الجمال والذكاء والحبّ. وُلدت الحياة على عكس ذلك، بطاعة دقّة الرسم الرياضيّ وبهائه. فالتطوّر موسيقى ارتقت من الحرّيّة إلى التعقيد، من أوّل أداء إفراديّ أنشده الباكتيريوم الأساسيّ إلى أوركسترا الإنسان السيمفونيّة(٥٩).

أكّد ذلك كارلو روبيا الفائز بجائزة نوبل للفيزياء العام ١٩٨٦، في ردهة المؤتمرات بفندق ڤرسيليانا دي مارينا دي بيطراسانتا أمام جمع غفير: «إزاء ما في القوانين الطبيعيّة والأحيائيّة من التناسق والعقلانيّة، يستحيل عدم التسليم بعقل منظِّم».

ختم بربيلّيني أميدي كلامه بقوله: «كان لعهد الوضعيّة نظرة موحَّدة ولكن مُنقِصة للوجود. فليس هناك سوى المادّة. كلّ شيء، وكلّنا نحن مادّة. يمكن الوصول بطرق أخرى إلى نظرة موحَّدة، ومع ذلك غير مُنقصة. يمكن حدوث ذلك لنا، بمعزل عن هواجس المادّيّة. ويمكن حدوث ذلك لنا في واقعيّة العلم الحديث نفسه، وفي واقعيّة الديانات نفسها أيضًا، وهي واقعيّة الكلمات والطقوس والصلاة»(٦٠).

---

(٥٨) R. RIEDL, *Die Strategie der Genesis*, München - Zürich, 1976, p. 122.

(٥٩) M. EIGEN, in *Il Giornale*, 30/10/1987.

(٦٠) G. BARBIELLINI AMIDEI, *La riscoperta di Dio, cit.*, p. 117.

بيار تيار دي شاردان والجذب إلى نقطة أوميغا

كان لبيار تيار دي شاردان، وهو عالِم وفيلسوف ولاهوتيّ (١٨٨١–١٩٥٥)، الفضل في أنّه اكتشف ووصف، في تطوّر المادّة والأحياء، اتّجاهًا مستمرًّا للسير «اتّجاهًا دقيقًا ومدارًا مُمَيَّزًا»[٦١]، «ومجموعة موجَّهةً بوضوح وصاعدةً من الذرَّة الأبسط إلى أعلى الأحياء»[٦٢].

إنّ القوانين التي توجِّه هذا الصعود العجيب تظهر بشكل دفع متواصل، ووثبة «موجِّهة إلى»، ودورانٍ «حول»، وغريزة يجب أن تتمّم أعمال محدَّدة، ومرام لِنَيل أهداف معيّنة، ورغبات خاصَّة ونزعات فطريَّة.

إنَّها أشبه ببرمجة ناظمة آليّة، وتشغيل حاسبة الكترونيَّة مختصرة في هذه الكلمة: **الحاجة أو الجاذبيَّة الطبيعيَّة**.

حتّى الجهة التي إليها تدفع الحاجة هذه يمكن اختصارها: خطّة السير تتّجه دائمًا إلى تعقيد – وحدة أكبر. «نعني بتعقيد شيء ما مزيَّةً يتّصف بها هذا الشيء بأنّه مركَّب: ١) من عدد أكبر من العناصر ٢) مرتَّبة في ما بينها على وجه أوثق. فالمسألة إذًا ليست تعقيدًا بل **تعقيد حول نقطة دائرة**[٦٣]».

هكذا يبدو التطوّر والكون أجمع والتاريخ الإنسانيّ كلّه رسالة تتطوَّر على وجه واحد وهو أشبه بتجلّي فكر كبير.

---

(٦١) P. TEILHARD DE CHARDIN, *Le Phénomène humain*, 1940, Edit. du Seuil, Paris, Oeuvres 1, p. 154.

(٦٢) Id., *Vie et Planètes*, Oeuvres 5, pp. 139-140.

(٦٣) Id., *Vie et Planètes*, Oeuvres 5, pp. 137-138.

فرسالة التطوّر هي أنّ المادّة كلّها والوجود تقودهما من الداخل حاجة توحيد (وهي شكل غير واعٍ لِما يشبه الحبّ)، وبعد ظهور الوعي، شكل لضرورة توحيد نفسيّ وروحيّ يكبر دائمًا، ويتّجه إلى حبٍّ كامل شامل أبديّ.

المَسارُ بطيء وعلى درجات، وبمعاونة المصادفة، يكون الانطلاق من الكثرة (الخواء) إلى مزيد دائم مَن عمل بالوظيفة، ومن الجمال والتنظيم والروح الجماعيّ.

وسنميِّز، ونحن نأخذ عن تيار، بين مراحل التطوّر المختلفة التي تتضمَّن رتبة ذات شأن.

إحياء المادّة

في العناصر دون الذرّيَّة وفي الذرّات يكتشف العلم نوعًا من الجاذبيّة، «حاجة» إلى الانضمام إلى جُزَيْئات محدَّدة، ثمّ إلى جُزَيْئات كبيرة محدَّدة يُقال لها عضويّة لأنّها تؤلِّف نسيج الأجسام الحيَّة. تحرِّك الفيزياء دفعة دائمة موجَّهة إلى الأحيائيّة. وتعمل المصادفة بإحداث عدد لا يُحصى من مصادفات ذرّات وجُزَيْئات معظمها غير مُجدٍ، ولكنّها، بمساعدة الدفعة الموجَّهة، ينتهي بها الأمر إلى توليد أوّل حيّ ذي خليّة واحدة.

بذلك تصل المادّة إلى درجة أولى في التعقيد – الوحدة لأنّ الملايين من الجزيئات البروتانيّة وأجزاء الخليَّة الكثيرة العدد تتعاون لهدف واحد هو حياة الخليّة نفسها.

فالحاجة هي التي تحرّك دائمًا جميع العمليّات المتوالية في الكائن الحيّ؛ إنَّها الحاجة إلى إبقاء جميع الأجزاء متّحدة وعاملة، وإلى التغذّي بموادّ محدّدة وتحويلها ليحصل الحيّ مرّة أُخرى على

الطاقات المفقودة؛ وهي الحاجة إلى قدر محدّد من الحرارة، وغريزة البقاء، وغريزة الدفاع عن النفس، والميل إلى التكيّف مع تبدّلات الأحوال الخارجيّة، والميل إلى الإصلاح والتعويض عن الوظائف التي قد تكون أُفسدت، والحاجة إلى التناسل. إنَّ الانتقاء الطبيعيّ لا يمكن أن يعمل بمعزلٍ عن جميع الميول الطبيعيَّة والفطريَّة هذه.

تنظيم الكائن الحيّ

إنّ الكائن الحيّ لِيُحسن سَدّ حاجاته إلى البقاء والتكاثر، يُزوَّد ميلًا إلى أن يستعمل بعض التبدّلات الجينيَّة الصغيرة التي تحدث بالمصادفة في تنازع البقاء، وآخر إلى توريث هذه التبدّلات نسلَه. لا يُفيد ذلك التكوين الأوَّل في العضو أو الجهاز لأنّ التكوين يقتضي ظهورًا غيرَ مُتوقَّع ومتزامنًا لآلاف من التبدّلات الجينيّة كلّها في التتابع الموافق. ولكنّه يُفيد، على عكس ذلك، لتحسين أجهزة أو أعضاء تعمل من قبل ولو على نحو بدائي. «للقرن قيمة انتقائيّة عندما يكون قد نَما نموًّا حسنًا. ولكن هل يُيَسِّر الانتقاء الطبيعيّ نموًّا لحجمه عندما يكون بالكاد في أوّل مرحلة من شأنه؟ مثل هذه الأمثلة الكثيرة تكوّن حالات نموذجيّة لإثبات وجود عامل باطن في التكوّن القويم، مستقلّ عن الانتقاء الطبيعيّ»[٦٤].

ينتج من ذلك أنّ تكوين الأعضاء أوّلًا لا يأتي من التطوّر البطيء، بل من تبديلات كبيرة غير متوقّعة، أي - وهذه حجّة تخالف مذهب المصادفة - من ظهور الأعضاء نفسها ظهورًا

---

(٦٤) G. G. SIMPSON, *Rythme et modalités de l'évolution*, Albin Michel, Paris, 1950, p. 244.

مفاجئًا. هذا هو رأي عدد كبير من علماء الإحاثة الذين يلفتون النظر إلى أنّ التبدّلات التطوّريّة مثبتة فقط في دائرة كلّ عائلة حيوانيّة، في حين أنّ جميع التجمّعات الكبرى (النماذج، والطبقات، والجماعات) تظهر ظهورًا غير متوقّع:

في العصر القبكمبريّ، (قبل نحو ٦٠٠ مليون سنة)، جميع اللافقاريّين؛

في العصر الأوردوڤيسيّ (قبل نحو ٤٦٠ مليون سنة) الأسماك الأولى؛

وفي العصر الترياسيّ، (قبل ١٩٠ مليون سنة) أولى حاملات الثدي. إذ ليس لها أشكال متحجّرة سابقة يمكن ربطها بها[٦٥].

إنّ الكائن الحيّ، وقد نُظِّم وركِّب من عدّة أعضاء، يصل إلى درجة عليا من التعقيد - الوحدة نسبة إلى الكائن الحيّ ذيّ الخليّة الواحدة: فجميع أجزاء كلّ عضو وجميع الأعضاء تعمل معًا لخير الجسم كلِّه.

تؤدّي استدلالات تيار دي شاردان لا إلى هذه النتيجة وهي أنّ الله هو علّة العالم والحاجات والأُمنيّات التي تحرِّك آلة التطوّر العملاقة فحسب، بل وعلى الخصوص، أنّه الهدف الأخير الذي تسعى إليه جميع الحاجات والأماني. فالتطوّر، لهذا السبب، هو أشبه بقطار يمرّ ببقعة نعرفها، فيقف عند محطّات مختلفة يمكننا أن

(٦٥) V. MARCOZZI, *Caso e finalità, cit.*, pp. 188ss; E. GUYENOT, *L'origine des espèces*, Publications Universit. Françaises, Paris, 1966, pp. 23 ss; V. CAPPELLETTI, *L'interpretazione dei fenomeni della vita*, Il Mulino, Bologna 1973; P. LEONARDI, *La evolucion biologica*, trad. de l'it., Ediciones Fax, Madrid 1957, pp. 76ss; P. P. GRASSE, *L'evoluzione del vivente*, Adelphi, Milano, 1979, p. 124.

نراها. إذ إنّنا لم نَرَ محطّة الانطلاق ولكن لما كُنّا نعرف المحطّات المتوسّطة، فالعقل يقنعنا بأن نُسَلِّم بتلك أيضًا. ويعني ذلك أنّ الله علّة الغائيّة والتطوّر.

يجتاز القطار البقعة التي نعرفها ثمّ يُواصل سيره إلى ما بعد الأُفق، حتّى وإن لم نَرَ المحطّة الأخيرة التي يتّجه إليها، فعلينا أن نفكّر في إمكانيَّة وجودها. هذه هي النتيجة التي تفيد أنَّ الله هو الهدف الأخير لأسمى حاجات العقل البشريّ وأمانيه الطبيعيَّة.

فالنتيجة هي أنّ الوقائع والأفكار التي عُرِضت حتّى الآن ليست حججًا علميّة حقًّا، ولا يسعها إذًا أن تُظهر اليقين الرياضيّ، لأنّ الله لا يقع في متناول اختبار الحواسّ وهو لذلك غير قابل لأن تتحقّقه. ولكن يبدو لنا أنّه يمكن أن يُقال لها حجج قويّة بالإشارات، وقابلة لأن توصِل إلى اليقين الأدبيّ وهو أساس الإيمان المعقول. ثمّ يأتي اختبار الله الروحيّ ، الذي وإن كان لا يبلغ الرؤية الكاملة، فهو يُؤكّد اليقين.

هذا ما يؤكّده أندري ساخاروف Andrej Sacharov وغيره، وهو عالِم فيزياء نال شهرة عالميّة، إذ فاز بجائزة نوبل العام ١٩٧٥ ، وكان أوّل مَن دعا إلى الانفتاح، وقام بجهد كبير جدًّا ليُبقي نور العقل في ظلمات الليل الشامل، وقد دفع ثمن شجاعته غاليًا جدًّا: «لا يسعني أن أتصوَّر العالم والحياة الإنسانيَّة من غير مبدأ، يجعل لهما معنى، ومن غير ينبوع حرارة روحيّة قائمة في ما بعد المادّة وقوانينها. أعتقد أنّه يمكن تحديد هذا الشعور بأنّه دينيّ»[٦٦].

---

(٦٦) A. D. SACHAROV, *Memorie*, Sugar Co, Milano, cit. d'après *Corriere della Sera*, 2/12/1990, art. de V. STRADA, *Andrej Sakharov, dalla bomba alla libertà*, p. 5.

أيقبل العِلم أنّ للكون بدءًا؟

إكتشف عالِم الفلك الأميركيّ إدوين پاول هوبّل Edwin Powell Hubble (١٨٨٩-١٩٥٣) أنّ المجرّات تبتعد بعضها عن بعض بسرعة على مدار بعدها منّا. وقد وضع لذلك نظريّة توسّع الكون وفيها: إنّ الكون يتوسَّع بضغط انفجار عظيم أوّل (بيغ بانغ) وقع قبل نحو ١٥ مليار سنة. وتعدّ فرضيّة الـ (بيغ بانغ) اليوم في أوساط الجماعة العلميّة العالميّة الفرضيّة الأكثر احتمالًا لأصل الكون، وإن لم يكن من داعٍ إلى اعتبارها صيغة رواية الخلق المجدَّدة التي لا يقبلها جميع العلماء. فما يشكّ فيه قسم من علماء الفلك ليس الانفجار الأوّل ومدّة المليارات الخمسة عشر من السنين، بل النظريّات على حالة المادّة قبل الانفجار. مهما يكن من أمر، فجميع العلماء متّفقون على أنّه لم يكن وجود لون من الحياة الأحيائيّة ممكنًا في الكون قبل ١٥ مليار سنة(٦٧).

يُقدَّر أصل الحياة بنحو ٥ مليارات سنة وهي في مسار تطوّر لا يقبل رجعة ولا تقهقرًا.

يُضاف إلى ذلك أنّ الهيدروجين في كلّ نجمة يتحوّل على نحوٍ منتظم إلى هليوم وعناصر أُخرى، وهذا التحوّل مسارٌ لا رجعة فيه، أي إنّ الهيدروجين لا يمكن إنتاجه بأقدار لا يُستهان بها على إثر تفكّك عناصر أُخرى(٦٨). فلو كان الكون في الوجود منذ الأبد لما بقي شيء من الهيدروجين.

---

(٦٧) N. DALLAPORTA, «L'istante iniziale del tutto», in *Avvenire*, 28/12/1989, pp. 13ss.
بحسب العلماء، إنّ الساتل الأميركيّ COBE أكّد، في ربيع ١٩٩٢، صحّة نظريّة الـ Big Bang.

(٦٨) C. TRESMONTANT, *Comment se pose aujourd'hui le problème de l'existence de Dieu*, Seuil, Paris, 1966, p. 34.

إنّ قانون بقاء الطاقة، آخر الأمر، يتناول جملة الطاقة في جميع أنواعها في عالم الآلة والكيمياء والكهرباء والحرارة، وفي هذه الأنواع نوع هو الطاقة الحراريّة ويُقال لها المبدّدة لأنّها لم تبقَ قادرة على التحوّل كلّها إلى طاقة أُخرى (قانون القصور الحراريّ). «لذلك يمكننا الاستنتاج أنّه كان للكون أيضًا بدْءٌ. وإلّا، لمّا كان للكون منذ الأبد وجود، كانت طاقته أيضًا منذ الأبد تتحوَّل. ولو حدث ذلك، لكانت الطاقة كلّها قد تحوَّلت إلى طاقة حراريّة، وسادت العالم حرارة من نوع واحد، ولكان كلّ نشاط قد انتهى»[٦٩].

يتبع ذلك أنّ المادَّة، أو على أقلّ تقدير، مسارها التطوّريّ الحاضر، ليست أبديَّة وتتطلّب لهذا السبب قدرة خلّاقة لبيدأ وجودها.

---

(٦٩) J. BIVORT DE LA SAUDEE, *Essai sur Dieu, l'homme et l'univers*, Ed. du Vieux Colombier, Paris, 1957, p. 98.

٤ - الثقة الأساسيّة

لِمَ المصائب إذا كان الله موجودًا؟

في النظرة إلى العالم التي يعرضها تيار، المادّة والروح، العلم والإيمان، العالم والله، ذلك كلّه يلتقي متّحدًا مؤتلفًا. كلّ شيء موحَّد، كلُّ شيء مُفَسَّر، وفي وفاق جوهريّ مع الإيمان المسيحيّ وأكثر العلم حداثة. قوّة تيار هي في قدرته على الدمج، إذ لا يترك أيَّ عنصر جانبًا، بل يجمع جميع العناصر في نظرة فعّالة موحّدة.

يمكن في وجهة النظر هذه الردّ على كثير من الاعتراضات التي تبدو لأوّل وهلة تناقض الإيمان. لِمَ يولَد بعض الأطفال مشوَّهين أو ضعفاء الإدراك أو مصابين بغير ذلك من مثل هذه الفظائع الكثيرة؟ لِمَ هذا العالم هو ارتباط غير قابل فصله، من الأعاجيب والأغلاط، ومن انسجام الأنغام والأصوات المزعجة، من النظام والاختلال؟

يكاد الجواب أن يكون مستحيلًا، إذا فكّرنا في أنّ العالم قد خُلِقَ كلّه، وأنّ كلَّ حادث فرد هو من مشيئة الله وإرادته. هذا هو الإلٰه الذي ينكره الملحدون: «يحرِّك الدمى الذي لا تُرى ويحرِّك جميع أسلاك الطبيعة وتاريخ كلٍّ منّا. الله أرسل النجاح، وهو الذي شاء المصيبة». «ما من ورقة تسقط إنْ لم يشأ الله ذلك». «إنّه إلٰه يعذِّب الأطفال».

يمكن، على عكس ذلك، الإجابة إذا كانت الأحداث المُفردة تُحدّدها المصادفة، والله ينظر إلى هدف أخير فقط لكلٍّ منّا.

إنَّ عمل الله في النظرة إلى التطوّر التي نظرناها، لا يجري في **المألوف من الأحوال**، بقرارات مفردة تتناول حوداث مفردة في الطبيعة، وأقلّ من ذلك في حوادث مفردة في تاريخ البشر. بل يسري في داخل الأشياء والأحياء، بفعل القوانين الطبيعيّة والميول والأمنيّات الفطريّة، تاركًا بعض المجال للمصادفة وللاختيارات البشريَّة الحرّة. إنّ ما يظهر من الميول الطبيعيّة وعمل الإقناع في داخل العقول البشريَّة يهدف إلى تحقيق انسجام وهناء أخيرين، عند انتهاء التطوّر الأحيائيّ والتاريخيّ، وعند انتهاء تطوّر كلّ شخص روحيًّا.

يُحكم على مَسار تطوّريّ بالنظر إلى نتيجته الأخيرة، وليس بالنظر إلى مراحل التهيئة المتوسِّطة. خلقُ العالم لمّا ينتهِ قطّ[1].

إنّ المصادفة والأغلاط والذنوب البشريَّة تعمل مع غائيّة الله لأنّ وجود القوانين الموجِّهة والإشراقات الباطنة التي تميِّز نوعًا من الحَلّ يُصحِّح المصادفة والأغلاط والذنوب البشريَّة.

فالنظر إلى شرّ الدنيا من هذه الزاوية، يؤيِّده كثير من مفكّري العصر، وهو لا يهدم وجود الله الحكيم الكريم، بل وجود الله الحكيم الكريم على وجه بشريّ فحسب. فالمشكلة، وإن بقيت عسيرة غامضة، ولا سيّما من وجهة عاطفيّة لمَنْ يتألّم في الوقت الحاضر، تحتوي فتحات مشرقة ولا تخالف هكذا الإيمان مخالفة واضحة[2].

---

(١) D. BARTHOLOMEW, *God of Chance*, SCM Press Ltd, London, 1984.

(٢) M. J. LANGFORD, *Providence*, SCM Press, London, 1981.

تنزل الأحداث الطبيعيّة المتناقضة مثل المطر والشمس على الأبرار والأشرار، فنزولها على الأبرار يصير بعون باطن من الله، تطهيرًا وتقدُّمًا. في حين أنّه يمكن تسميتها عقابًا شافيًا للأشرار لأنّهم يتلقّونها بتواضع، فتؤول إلى التوبة.

جناحا الفراشة ينشآن في الخادِرة

من النظريّة التي عرضناها للغائيّة وهي تعمل مع المصادفة تأتي عبرة أُخرى ذات شأن. ظنَّ فويرباخ وفرويد وآخرون غير مؤمنين أنّهم يصنعون الإيمان بالله بتفسيرهم إيّاه على أنّه مبنيٌّ على حاجة الإنسان.

يمكننا الردّ أنّ التقنيَّة وجمال الطبيعة هما أمران ملموسان وبرهانان على وجود الله، غير فريدين، ومستقِلَّيْن عن أيِّ حاجة دينيّة كانت. ولكن حتّى إذا توقّفنا على الحاجة، لاحظنا في هذه الحالة، أنّها أمنيّة فطريّة طبيعيّة، لا بل الأُمنيَّة العُليا بالنظر إلى سائر الأُمنيّات. فهي، لهذا السبب على وجه ما، برهان جديد موضوعيّ على وجود الله.

الأمر الذي لا يُنكر وجود الدين في جميع أزمنة التاريخ وفي جميع أماكن العالم، يثبت أنّ هذه الأمنيّة فطريّة طبيعيّة. وكونها الأمنيّة العُليا نراه عندما نشبّهها بسائر الأُمنيّات، من حبّ البقاء، والطعام والتناسل، وحياة فضلى في الأمور الماديَّة، والصداقة والعدالة، والحقيقة والحرّيّة. فالتوق إلى الله يبغي القيمَ الأخيرة هذه، قيمًا أبديَّة غير محدودة.

كتب ڤيتّوريو ماركوتسي: «إنّ ميلًا طبيعيًّا ليس سوى توق أو نزعة إلى شيء ما. لكن كيف للنزعة أو للتوق الذي جوهره هو في

حدّ ذاته الميل إلى شيءٍ ما أن يكون في الوجود من غير أن يكون هذا الشيء في الوجود؟ لو لم يكن موضوع الميل موجودًا، لما نشأ الميل الطبيعيّ».

«لا سبيل للمرء أن يتصوّر ميلًا طبيعيًّا وهميًّا. تحظى الفراشات بغريزة الطيران وهي في داخل قشرة الخادِرة الضيّقة. ولكن هذه الغريزة لا تنشأ عبثًا. فالمضغة تنشأ في سرير بطن الأمّ المظلم وتظهر لها أعضاء لن تجد غرض ميولها إلّا بعد الولادة. فالطيور القواطع تنقاد لغريزتها وتسلك طرقًا لم تقطعها قطّ، فتقودها تلك الطرق إلى الهدف الذي تتوقّعه».

«لجميع الميول الطبيعيّة غَرض ولجميع الغرائز هدف. فللإنسان ميل طبيعيّ إلى الحياة التي لا تزول، وطبيعة لا تُقْتَلع جذورها مفطورة على السعادة»(٣).

ومن جهة أُخرى لا تجد هذه الميول الغَرَض الملائم في الحياة. فإذا لم نُرِدْ التسليم بما هو غير معقول، مفترضين أنّ للإنسان وحده ميولًا وهميّة، على عكس ما نلقاه عند سائر الكائنات الحيَّة، فلا بُدَّ من الاستنتاج أنّ مثل هذه الميول غرضها الملائم في الله وفي الاشتراك التامّ في حبّه الذي يبلغ كماله في حياة ما بعد الأرض.

ليس الله ضامنًا المصائب

تُفسِّر نظريَّة المصادفة التي تقودها القوانين الغائيّة ما يأتي به العلم منسجمًا ووجود الله، ولكن هل تُحسِن لذلك تفسير ما ورد في

---

(٣) V. MARCOZZI, *Il problema di Dio e le scienze*, Morcelliana, Brescia, 1974, p. 241.

الإنجيل على أبوّة الله؟ فهناك أُناس يشعرون لدى قراءتهم الإنجيل بأنَّ النظريَّة المعروضة تكاد تَدَع جميع إدارة العالم للمصادفة. فيسأل المرء ما دورُ العناية الإلَهيّة؟ أيُّ قيمة للصلاة لكي ينجو الناس من المصائب؟ وفي هذه النظرة نفسها أيُعنى الله بكلٍّ منّا؟

نُجيب أنّ هذه النظريَّة هي مخالفة لتصوُّر ساذج عن الدين، على أنّه نظام عامّ لضمان جميع الشدائد. ولكنّه في رأينا، موافق موافقة تامّة على تعاليم الإنجيل وعلى الشرح الذي تظهره الكنيسة.

يُعنى الله بكلٍّ منّا أوّل الأمر من خلال القوانين الطبيعيّة، أي من خلال الأماني والقدرات التي جعلها فينا. والمصادفة هي الترابط غير المرتَّب لأحداث تأتي بها القوانين الطبيعيّة، لكنَّ الله قد توقّع تطوّرها لكُلٍّ منّا، وقدَّم إلى كلّ واحدٍ منّا القوى والقدرات ليتغلَّب على الأحوال الأكثر اختلافًا.

والله من جهة أخرى يرعى كلّ خليقة خصوصًا بالعون الداخليّ من الأفكار والمشاعر والعزائم الإيجابيّة التي يوحيها إليه. فالصلاة كما يعلِّم الإنجيل، تفيد خاصّة وقبل كلّ شيء، لنيل ملكوت الله فينا، أي بالتبدُّل الباطنيّ وتطوّر القدرات الشخصيّة والنموّ الروحيّ الذي منه يمكننا الحصول على تقدُّم خُلقيّ ممّا يحدث لنا.

على العكس من عناية - مرضع ترعى مَن تحضنه في حضانة مزوَّدة الهواء المكيَّف، فإنَّ لنا عناية - مدرسة للبقاء تزوِّد تلامذتها التجهيزات التي لا بُدَّ منها، وتقذف بهم ليغامروا في مسعى شاقّ ساطع، لكي يبنوا بأنفسهم جزءًا من المشروع.

ولا يُنفى في بعض الأحوال، تدخّل الله من خلال القوانين الطبيعيّة في بعض حوادث ظهور له: ظواهر طبيعيّة تأتي بها قدرات

غير مألوفة عند روحنا، مثل شفاآت يجريها الإيمان، على سبيل المثال.

بل لا تنفي المعجزة الحقيقيّة نفسها، أي تدخّل مباشر يقوم به الله في قانون طبيعيّ ليظهر نفسه ويُعين إيماننا. فهناك بعض الناس من أهل عصرنا متّفقون على أنّ الله موجود، لكن بشرط ألّا يظهر نفسه، كما قال أندريه فروسّار.

إنّهم يفضّلون تصديق الرجال الصغار اللابسين الثياب الخضر والذين ينزلون من الصحون الطائرة، على تصديق الله الذي يظهر نفسه في قوانين الطبيعة وفي المعجزات.

لكنّ الإنجيل يكلّمنا على معجزات **هي آيات لصالح الإيمان** وترافق الذين يؤمنون، شأن أوراق اعتماد للذين لا يؤمنون. وتسلّم الكنيسة بهذه الإمكانيّة، بكثير من الحذر والتقتير، حتّى في أيّامنا. في تمّوز ١٩٨٩ اعترف أسقف مدينة كاتانيا واللجنة الطبّيّة الدوليّة اعترافًا رسميًّا بمعجزة لورد الخامسة والستّين. ولكن يبدو أنّ هدف المعجزة هو قبل كلّ شيء أن تكون آية. ويبدو أنّه إذا أُريد التخفيف عن خليقة مفردة تتألّم كانت معونة باطنيّة قويّة بواسطة الصلاة، ومعونة خارجيّة تأتي من محبّة الآخرين مألوفة على وجه أكثر في تلك الحال.

خلاصة القول، في النظرة العلميّة إلى المصادفة والغائيّة والقوانين الطبيعيّة، إنّ عناية الله واهتمامه بكلّ خليقة بمفردها يبقيان أمرًا جوهريًّا للمؤمن، لكنّهما يعملان خصوصًا في داخل روح الإنسان. لقد تلقّى الإنسان من الطبيعة ويتلقّى من النعمة قدرات كافية لكي يتسلّط على الشرّ ويذلّل مصاعب الحياة. فلا بدّ من أن تسلك قوانين الطبيعة سبيلها كما تقضي العادة. ويعرف المؤمن

بالاختبار أنّ الله عندما يتقبّلنا بلطفه وصفاته الذي لا حدّ له، ويُذيقنا سالفًا شيئًا من مذاق هذا العالم حيث ينتهي كلّ شيء في الحبّ، فتتحوّل المأساة إلى مغنّاة، والكارثة إلى تدريب، وسوء الطالع إلى حسن الطالع(٤).

المخترع يخلق أعمالًا ذات معنى

إنّ الاختيار بين المصادفة والغائيّة الأحيائيّة يرتبط باختيار أوسع شامل بين معنى الحياة الإنسانيّة وفقدان معناها، بين الريبة والثقة الأساسيّة.

ماذا نعني بكلمة «معنى الحياة»؟

للكلام معنًى إذا عبّر تعبيرًا منطقيًّا عن أمر حقيقيّ. وللآلة ضرورة إذا لبّت حاجةً، أو ادّخرت الوقت والتعب، أو لم تصرف أكثر ممّا تدّخر. وللمؤسّسة مبرّر وجود عندما يكون ما تقتضيه من البذل والعمل على قدر النتيجة المرجوّة.

وللحياة الإنسانيّة معنى إذا كانت جميع حاجات الإنسان الفطريّة يمكن أن تلبّي متطلّبات جميع الناس، ولا سيّما الحاجات العميقة؛ وعندما تُعوّض تضحية بعض الحاجات تلبية غيرها نُقِرُّ بأنّها أهمّ ومن نَمط أعلى.

الحاجة الفطريّة الأعمق عند الإنسان، والخاصّة به دون سواه، والتي تميّز الإنسان من الحيوان، هي النزعة إلى ما هو أفضل دائمًا أبدًا وإلى الكمال. إلى كمال التقنيّة، لكن خصوصًا كمال الحقيقة والعدل والمحبّة. هذه هي الحاجة التي أتاحت الفرصة السانحة

(٤) P. T. GEACH, *Providence and Evil*, University Press, Cambridge, 1977.

للتطوّر العظيم لدى الإنسان، وتفوّقه الذي ظلّ دائمًا يكبر بالنظر إلى سائر الأحياء، ونشأة الحضارة وتطوّرها، وإيمان الإنسان بالعلم والفنّ والعائلة والعدالة الاجتماعيّة والحرّيّة.

وتلقى هذه الحاجة أكبر تعبير عنها في الإيمان الدينيّ: إنّه يأتي من الثقة الأساسيّة بأنّ لحياة الإنسان معنى، أي يقابل حاجةَ كلّ كائن بشريّ ونزعته الطبيعيَّة إلى العدالة والحبّ الكامل والحقيقة والجمال الشامل والسلام والفرح الثابت، واقع يوافقه. وهو واقع قريب المنال من جميع الناس أصحاب النيّة الحسنة، وليس من أصحاب حسن الطالع وحدهم.

ثمّة صلة كائنة بين الغائيَّة الأحيائيَّة ومعنى الحياة، فلوجودنا معنًى أو لا معنى بحسب الكائن الذي أنشأنا.

إذا كنّا أولاد قوى عمياء، مثل القوى الكيميائيَّة - الفيزيائيَّة، فلا يمكن أن يكون لنا معنى حقيقيّ. فمن الواضح أنّه ليس بوسع قوّة لا عقل لها أن تُنشئ أعمالًا ذات معنى(٥).

ولكن إذا كان هناك، على عكس ذلك، مخترع فنّان عظيم، فالأمر يتبدَّل تبدُّل الليل نهارًا. وهناك إمكانيَّة بل احتمال أن يكون كياننا متناسقًا في روحه، فيقوم توافق بين حاجة روحنا إلى ما لا حدَّ له، وإمكانيَّة حقيقيَّة لتلبيتها.

ما كان عقل ليصنعنا من غير غاية، ولما كان ليتركنا محرومين، وقد جعل فينا العطش إلى العدل والمحبّة، وأجهزة صالحة لبلوغ الهدف السامي.

هكذا، فمن المنطق أن نفكّر في أنّه، حتّى لو كان كلّ فرد

---

(٥) A. JÄGER, *Dio*, Marietti, Casale Monferrato, 1984.

عرضة للمصادفة والمصيبة، فقد جعل العقل الإلٰهيّ في كلٍّ منّا قوى موجِّهة تُتيح لجميع الناس التغلّب على المحن والانتفاع بها لنبلغ غايةً ذات معنى.

إذا كانت الطبيعة موجَّهة توجيهًا غائيًا، أمكننا الاستنتاج أنّه لا بدّ من أن يكون لحياة الإنسان معنى. لكن، حتّى على العكس، إذا شعر أحدٌ واكتشف من خلال حدسه، وبالرغم من جميع الآلام، بضرورة معنى الحياة، فإنّه مُهيّأ تهيئة مناسبة ليعرف قيمة الأدلّة التي تؤيّد الغائيّة.

قطاران يسيران في اتّجاهين مُعاكِسَين

الثقة والريبة الأساسيّة

إذا كان كلّ شيء في الطبيعة الحيَّة، كما رأينا، يتحرَّك نحو غائيّة، صحَّ قول ذلك أيضًا في حياة الإنسان. وإذا كانت أُمنيَّات الإنسان الفطريّة العُليا كما بوسع كلّ واحد أن يتحقَّق ذلك، هي الكامل الثابت من العدل والحقّ والمحبّة، نتج من ذلك أنّ جميع الكائنات الإنسانيّة، إذا تبعت «التعليمات» أمكنها الوصول، بعد سلوكها الطرق مدّة، إلى تلبية حاجاتها وأُمنيّاتها كلّها بما فيها أسماها وهي السعادة الدائمة.

يصل المرء إلى هذه النتائج الساذجة الخياليّة بسلوك طريقين: طريق أكثر تفكُّرًا وأقرب إلى ما يأتي به العلم، طريق الغائيَّة؛ وطريق أكثر حدسًا واتّصالًا بالتفكير في حياتنا وحياة الآخرين، طريق الثقة الأساسيّة(٦).

---

(٦) M. POCHET, *Dio esiste... per fortuna*, Città Nuova, Roma, 1984.

إنّ الاختيار بين الثقة والريبة الأساسيّة يمكن تشبيهه بما يحدث في محطّة كبيرة يجب أن يدخل فيها جميع المسافرين ويختاروا قطارًا، وليس هناك سوى خطّين فحسب. وينطلق في كلّ ساعة قطاران في اتّجاه معاكس، ويؤدّيان إلى بلدين فيهما كلّ شيء ينقض نقضًا تامًّا ما في الآخر.

إنّ كثيرًا من الناس لا يقرّرون، وينتظرون في المحطّة ليروا إذا كان ثمّة قطار يتّجه نحو جهات وَسَط أقلّ جذريّة وشمولًا. ثمّ يرون بعد ذلك أنّه لا قطار آخر، فيجب عليهم اختيار واحد من الاثنين.

القطار الأوَّل يشغله أناسٌ هادئون واثقون، ولكنّ أسباب الراحة فيه قليلة جدًّا ومقاعده خشنة أو لا مقاعد فيه. وهو يمرّ في أماكن «ساذجة خياليّة» يُقال لها: حبٌّ ثابت رجل – امرأة، وعائلة، وتربية الأولاد أخلاقيًّا، واستقامة في عالم فاسد، وأصالة في العمل، وعدالة اجتماعيّة، وحرّيّة لجميع الناس، وعلم وتقنيَّة حليفا الأخلاق الكريمة والإيمان. يواصل القطار السير في أماكن «وهميَّة وغير واقعيَّة»، مثل: «العودة إلى عصر الذهب»، «اقتراب الفردوس المفقود»، «الإنسانيّة الجديدة»، «صلاة التأمُّل»، «عفاف»، «التجرُّد من الخيرات الماديَّة»، «المحبّة الملتزمة». ولا نبلغ بعض هذه الأماكن إلّا بالطائرة... ويُقال للمطار الأخير «بلد المُثُل العُليا المحقَّقة: الله».

في القطار الآخر جميع أسباب الراحة التقنيّة وجميع أسباب اللهو الغريزيّة، في البدء على الأقلّ. يشغله أناسٌ واقعيّون عمليّون يعرفون ما هي الحياة وكيف يسير العالم. يصل القطار بادئ ذي بدء إلى الأماكن التي يُقال لها: الأعمال التجاريّة، وقوانين السُّوق، والحاجات الجنسيَّة، واللامبالاة الدينيّة، والنسبيَّة الأخلاقيَّة،

والحبّ الحرّ، والعلم وحده، والواقعيّة، وتخطّي الخير والشرّ، وتخطّي الصواب والخطأ. يتابع السير في الطائرة فتُنزَع صفة قداسة «المُثُل العُليا الكاذبة»، والارتياب، والوقاحة، والعدميَّة. ويُقال للمطار الأخير: مدينة التقنيَّة والغريزيَّة الصرف: جهنَّم.

أنظر إلى الكعكة لا إلى الفتحة وحدها

من العجيب أنّ الخياليِّين الذين يؤمنون بالمُثُل العُليا هم من أنصار الواقع، في حين أنّ الواقعيّين الذين لا يؤمنون إلّا بالفيزياء يرفضون عاطفيّة الأشياء.

إنّ الفيلسوف بيتر فُوسْت Peter Wust هو أوّل مَن حلَّل الخيار الأساسيّ بين الثقة والريبة الأصليّتين(٧). بداعي الصلة الوثيقة بين الثقة الأساسيّة والمُثُل العُليا الخُلقيّة، فهو يرى في الثقة تَهَيُّأً الإرادة للحقيقة والخير، في حين أنّه يطابق بين الريبة والعمى المتأثّر كثيرًا أو قليلًا بالأنانيَّة وسوء الإرادة.

إنّنا مع هانس كونغ لا نريد أن نُسرِع هكذا إلى فصل الناس بين نِعاج ومعز، ولا أن نصِف دائمًا وعلى وجه آليّ الريبة بأنّها ذنب.

ومع ذلك فإنّنا نسلِّم بأنّ هناك أُناسًا يبالغون في تضخيم الصعوبات النظريَّة التي تعترض الإيمان، لكي يُجنِّبوا أنفسهم الصعوبات العمليّة المعاشة. ويشكّون في نوعيَّة الثمار لأنّه يجب التسلّق لقطفها.

عاد هانس كونغ إلى موضوع الثقة الأساسيّة وتبسَّط فيه، فحلَّل

---

(٧) P. WUST, *Ungewissheit und Wagnis* (1937), München, 1962.

الاختيار الأساسيّ على هذا النحو[٨]:

«في الريبة الأصليّة يلفظ الإنسان «لا» أساسيَّة، ولكن لا يمكن التمسُّك بها وبجميع نتائجها في العمل، في ما يختصّ بالواقع المُحتمل العائد إليه، وبواقع الدنيا. إنّه ينغلق هكذا على الواقع: فهذا الموقف الأصليّ السلبيّ يساوي تعلُّقًا بالعدم وبطلان الواقع، وتردّدًا لا قرار له تجاه جميع ما يشعر به الإنسان ويتحقّقه».

«لا يميل الإنسان من تلقاء نفسه إلى الـ«لا». ففيه شيء يرفض عزمًا أساسيًّا سلبيًّا ينكر معنى الحياة وإمكان تلبية توق الإنسان إلى الحقيقة والحرّيّة والعدالة. ومع ذلك يبقى الإنسان حرًّا، حرًّا ليقول أيضًا «لا». إنّ تجربتي الشكّ والعدميّة هما تجربتان أصيلتان جدّيّتان. إنّهما مبنيّتان على ما للواقع من صفة مشكوك فيها، إذ يمتزج فيها الشرُّ دائمًا أبدًا بالخير وفي بعض الأحيان يتغلّب تغلُّبًا تامًّا، حتّى إنّ المرء يتعرَّض لتجربة التشديد على الشرّ، ونكران الثقة في انتصار الخير.

«إنّ «لا» لا يمكن التمسُّك بها بطريقة مترابطة في العمل. أجل يمكن القول إنَّ كلّ شيء غير معقول، وبعض الحالات المفردة هي وحدها معقولة، ولكن الثقة في الحالات المفردة غير منطقيّة مع الريبة الأصليَّة. كيف تكون الخطوة المفردة معقولة عندما يكون الطريق كلّه غير معقول؟ لأنّ الذي يختار العدم مع العدميَّة لا بُدَّ له مع ذلك من أن يستعير على وجه متواصل من الوجود في أثناء العمل... حتّى الأشد ارتيابًا لا بدَّ له مع ذلك حينًا بعد حين من الثقة ببقيّة من الصدق والاستقامة عند الآخرين، بشيء من المعنى لتصرّفه وحياته». فبمعزل عن ذلك لا يبقى له سوى الانتحار.

---

(٨) H. KÜNG, *Dieu existe-t-il?*, Seuil, Paris, 1981, pp. 514ss.

«يميل الإنسان من نفسه إلى «نعم». فليس هو غير مبالٍ إزاء هذا العزم. فإذا أقمتُ تجاه الاختيار بين الخواء والكون، بين غير المعقول والمعقول، بين القيمة وعدمها، بين الكيان والعدم، فإنّي أشعر بميل منذ الآن: أفلا أريد أن أرى وأفهم وأرغب وأنجح وأكون سعيدًا؟»

«عندئذٍ من غير تفاؤل مفرط أقول «نعم» أساسيّة للواقع غير الأكيد»... «أستطيع في العمل أن أبقي «نعم» مع جميع نتائجها، في الحياة العمليّة. وقول «لا» للواقع يتعثَّر في تناقضات صارخة تزداد زيادة مطّردة، وعلى عكس ذلك فقول «نعم» التي تتقبَّل الواقع غير الأكيد قابل لأن تُعاش وتُثبَّت في جميع الشدائد. فالريبة في حدث مفرد يمكن على وجه تامّ التوفيق بينها وبين الثقة بالواقع الشامل. من الصواب أنّ الثقة الأصليّة لا تثبت من غير أن تجابه دائمًا صعوبات وشكوكًا، ومن غير خطر المرارة والخيبة، ولكن يُمكن التغلُّب على ذلك كلّه بأمانة مستمرَّة للقرار الأصليّ الذي أُخِذ».

«والثقة الأصليّة تعني هنا الرجاء، لا هذا الرجاء أو ذاك بل رجاءً أساسيًّا يدوم بالرغم من جميع الخيبات، وهو الشرط لكي تكون الحياة الإنسانيّة الأصيلة ممكنة وترياقًا لليأس»[٩].

قد أكون متشائمًا على صعيد الحدث المفرد من الحبّ أو العائلة أو العدالة في هذا العالم، أو في عملي، أو من هذا النظام السياسيّ أو حسن العاقبة لهذه المؤسَّسة، أو السعادة في حياتي الأرضيّة، وأنا مع ذلك أحفظ الثقة الأساسيّة بأنّ في الله انتصارًا

---

(٩) هانس كونغ، المرجع المذكور، ص ٥١٨.

نهائيًّا للخير وإمكان تعويض، ولو بعد جهد، للذي يندم على الشرّ الذي فعله.

أندريه مالرو وموت الله

إذا لم يكن لله وجود، فَقَدَتْ جميع القِيَم الخُلقيَّة أساسَها وجذورها وسندها. مَنْ نكر الله وأراد أن يكون منطقيًّا وجب عليه أن يتقبَّل الريبة الأساسيَّة والعدميّة.

ينشئ كامو في أسطورة سيزيف Sisyphe نظريَّة مُحزنة على وجود الملحد الحديث فيحاول الجواب عن السؤال الأساسيّ: هل تستحقّ الحياة أن تُعاش أم لا؟ يقول: «في عالم جُرِّد بغتة من الوهم والأنوار يشعر الإنسان بأنّه غريب، ولا دواء لهذا المنفى لأنّ الإنسان محروم من ذكرياته لوطن مفقود ومن الرجاء لأرض ميعاد»(١٠).

الشبه لا بل الصدمة بين حدود القِيَم التي في العالم ورغبة القيم الكاملة رغبةً عميقة كامنة في الإنسان، ورؤية الإنسان نفسه يجرفه ما هو زائل، في حين أنّ في قلبه حاجة ماسّة إلى ما هو مطلق، وشعوره بأنّ الألم والموت يمزّقانه وفيه عطش لا يُروى إلى الحبّ الأبديّ، هذا هو السجن غير المعقول الذي يتخبَّط فيه إلحاد عصرنا.

يُسلّم المسيحيّ بوجود الله والإنسان، لكنّ الإنسان الحديث يريد الاختيار: إمّا الله وإمّا الإنسان. ويختار الإنسان باسم العَظَمة التي له. كتب مالْرُو: «في آخر القرن التاسع عشر أعلن نيتشه أنّ الله

---

(١٠) A. CAMUS, *Le mythe de Sisyphe. Essai sur l'absurde*, NRF, Gallimard, 1942, p. 30.

قد مات. وهذا يعني أنّه يجب على الناس انتظار ملكوت الإنسان... وجعل حالة الإنسان تسطع بالوسائل الإنسانيّة.

ولكن ما الذي حدث حتّى الآن؟ كان يجب أن تتبع النزعة إلى الله نزعةُ الإنسان إلى نفسه، إلى تجاوزه لنفسه. وعلى عكس ذلك، يحدث لنا أن نرى إذلالًا، وحياة بورجوازيّة تتمرَّغ في الترف واللذّة، وفنّ تسكين مغلقًا على الطبيعة، فلا إبداع، ولا فتح. تَبِعَ **موتُ الإنسان موتَ الله**(١١).

فتصرُّف السواد الأعظم اليوم على أثر علمَنَة الجمهور، يبقى لائقًا في خارجه فحسب، عندما يخطر للعالم أنّه لا يستطيع الإفلات من العقوبات البشريّة المباشرة.

إنّ الأخلاق، بمعزل عن الله، لا تلزم لأنّ الضمير نفسه الذي يبتدعها يستطيع أن يبدّلها أو يدمّرها. وليست سليمة لأنّها تؤدّي إلى مثل هذه النتائج المتوازية في ما هو خير وما هو شرّ.

كتب ألِكْسندر سولجنيتسين: «لقد تحرّر الناس تحرُّرًا نهائيًّا من تراث العصور المسيحيَّة الخلقيّ وما فيها من ثروات التقوى والبذل، فاتّخذت الأنظمة الاجتماعيّة صفات مادّيَّة تزداد زيادة مطّردة. ويُمكن القول آخر الأمر إنّ الغرب قد دافع حقًّا بنجاح لا بل بسخاء عن حقوق الإنسان، ولكن انطفأ في الإنسان على وجه تامّ الشعور بمسؤوليّاته لدى الربّ والمجتمع. في العقود الأخيرة هذه تغلّبت تغلُّبًا نهائيًّا الأنانيَّة الشرعيَّة في الفلسفة الغربيَّة وأصبح العالم في أزمة روحيّة حادَّة ومأزق سياسيّ. ولا تستطيع جميع النجاحات

(١١) A. MALRAUX, Conférence à l'Unesco, Revue Fontaine 1947, dans *Etudes*, VI, 1949, p. 290.

التقنيّة التي أصابها التقدُّم، بما فيها النجاح في الفضاء الخارجيّ، وقد عُظِّم شأنه تعظيمًا كبيرًا، أن تعوّض العالم من البؤس الخُلقيّ الذي يتخبَّط فيه القرن العشرون»[١٢].

كلُّ هذا يثبّت عمليًّا سقوط الإنسان، بمعزلٍ عن الله، في العدميَّة، أي التيقُّن من العدم، والتناقض، وفقدان معنى حياة الإنسان وقيمتها.

زجاجة فيها قليل من الشراب

لا تُسَكِّن الحياةُ نزعة الإنسان إلى كمال القِيَم من جهة. فكلّ كائن بشريّ مضطرّ إلى أن يقول عاجلًا أم آجلًا: «الحبّ، حلمتُ به مختلفًا، لا وجود لصداقة كاملة. وما هو عجيب يُفسد حالًا. لا عدالة لجميع الناس في هذا العالم. والديموقراطيّة لا تفي بوعودها. والاشتراكيّة تخيِّب».

ونجد من جهة أخرى في هذا العالم «قطع» معنى، وأجزاء قِيَم حقيقيّة، وكسورًا من معنى الحياة أي قليلًا من الصدق، والاستقامة، والجمال، والصداقة، وبعضًا من تحقيق العدالة، وبعض مُثُلٍ من الحبّ المخلص، ولحظاتٍ من السلام والفرح الحقيقيّ.

هذا بعض الشيء، لكنّه ليس كلَّ شيء. إنّه أشبه بعض الشبه بالعثور على زجاجة «إكسير الفرح» تكاد أن تكون فارغة. إنَّها في نظر بعضهم خيبة وحسب، لأنّها تكاد أن تكون فارغة. وهي في نظر بعضهم الآخر مفيدة جدًّا لأنّها بعض الشيء. يرى الأوَّلون أنّها إذا

---

(١٢) «Solgenitsin riabilitato dall' Unione degli Scrittori di Mosca», in *Avvenire*, 6/7/1989.

لم تكن كلّ شيء فإنّها كما لو لم تكن شيئًا. ويخطر ببال الآخرين: لنشرب هذا القليل ولنكتفِ به. فمن الحماقة التمسُّك بأحلام الكمال.

يرى أصحاب الثقة الأساسيَّة، على العكس من ذلك، أنّه إذا كان هنا شيءٌ من الشراب، فذاك علامة على أنّ امرءًا صنعه في مكان آخر. فإذا طُلب وُجد. وفي أثناء ذلك فلنأخذ هذا القليل الموجود ولنحاول بكلّ قوّتنا أن نجعل عالمنا يتقدَّم. ولكن لا ننسَيَنَّ من أين كان أصل هذه القيمة الجزئيّة، ولا نتخَلَّيَنَّ عن الحاجة الفطريَّة إلى طلب المطلق والكامل.

مثَل الإنسان مثَل فتى وُلد وحُفظ في أماكن مظلمة، في العزلة دائمًا، فلم يرَ قطّ الشمس والألوان ولم يسمع الموسيقى، ولا أصدقاء حقيقيّون له، ولم يرَ فتاة قطّ. إنّ نزعاته الفطريّة تدفعه إلى الشعور بأنّ لهذه الأمور وجودًا لأنّه يَحِسّ بأنَّ الطبيعة تستحقّ الثقة. فإذا كان عطش، فثمَّة ماء في مكان ما. يغذّي رجاءه المعقول ومضات النور الذي يراه، والألوان الشاحبة التي يَلْمحها، والأصوات التي يصغي إليها والنزعة إلى شيء يشبهه ويختلف عنه ولم يره قطّ، ولكنّه يشعر بأنّه لا بدّ من وجوده.

إنّ الإيمان بالله والثقة الأساسيّة التي تنبع منه هما شيء يشبه ذلك. فمن نموذجات بضاعة يرتفع الإيمان إلى مركز إنتاج. ومن أجزاء منحوتة يكتشف فنّانًا. ومن السواقي والأنهار التي تسيل يُدعى إلى تخيُّل البحر. ومن حبّات الذهب في النهر يَستنتج وجود عرق ذهب في الصخور بالأعالي. وإذ يرى وميضًا من خلال الغيوم، يخطر بباله ينبوعَ نورٍ كبيرًا.

ترى الريبة الأساسيَّة الكعكة فُتحة وحمار الزَّرد حيوانًا أسود

في جوهره. في حين أنَّ إيمان الحدس أو الثقة بالواقع يلاحظ، على عكس ذلك، أنّ لحمار الزَّرد خطوطًا بيضًا، ويرى فضلًا عن الفتحة، الكعكة خصوصًا. وهو يرى أنّه لا بدّ من طاهية قادرة على صنع كعكات أخرى، وإعطاء منها مَن حصل على كعكات صغيرة جدًّا. وخلاصة القول، إنّ الريبة الأساسيّة حتّى إذا اعترفت بنقائص واضحة، وفي بعض الأحيان هائلة في هذا العالم، فإنّها تجد بعض الشيء الإيجابيّ، وأنّه مدهش مثل خطوط من البريق الورديّ في الشرق، يبشِّر ببهاء يعجز الإنسان عن تصوُّره.

خطّ توجيه الحياة

الثقة الأساسيّة تجيب عن السؤال الذي كان يُسائل به لايبنتز Leibnitz نفسه: لِمَ في الوجود شيء وليس العدم؟

بين جواب أهل الثقة وجواب أهل الريبة الأساسيّة، ما من قِيَم متساوية كما لو كان الميزان في توازن. والفرق بين الكفّة الواحدة والأخرى لا حدَّ له لأنّ شيئًا ما أثقل من العدم ثقلًا لا حدَّ له. وخصوصًا عندما يكون هذا الشيء منظَّمًا، وله صفات إيجابيّة، وقيمة، كما هو الأمر في ما نحن بصدده. إنّ ما هو منظّم يدلّ على ذكاء، وعلى شيء جميل، ومفرح، أو صواب، أو محبّب، ويفترض ينبوع جمال، وخلقًا حسنًا، ورفقًا، أي ينبوعًا روحيًّا.

إذا لم أجد في البرِّيَّة شيئًا حسنًا، فلا حاجة إلى التفسير. فذاك ما كان يمكن توقّعه. إنّه الشيء الطبيعيّ على أحسن وجه في البرِّيَّة. ولكن إذا وجدتُ مقشَّشة وشيئًا من الخمرة الجيّدة فيها، فإنّ ذلك القليل يجعلني أفكِّر تفكيرًا معقولًا في الكرم والكرّام. فالمقشَّشة في نظر الريبة نصف فارغة، ولكن لا يحقّ للريبة أن تُنكر الكرّام

بالاستناد إلى فراغ القسم الفارغ. فلا مساواة بين قِياسَي المقشَّشة. فبعض الشيء يفوق العدم بما لا حدَّ له.

سيمكن حقًّا الاعتراض أنَّ القسم المليء غير كافٍ لسفر شهر في البرِّيَّة، أو أنّ أفراح حياة الإنسان لا تساوي الهموم والآلام عند معظم الناس، ولكن ما من أحد يستطيع أن ينكر أنّه بحسب العنوان المكتوب على المقشَّشة يمكن الحصول على كمّيّة كبيرة من الخمرة الجيّدة هذه.

إنّ آلة لا تعمل فيها إلّا بضع قطع فحسب، في حين أنّ سائر القطع مكسورة، يمكن اعتبارها عديمة الفائدة على وجه التقريب من جهة الإنتاج، ولكن تبرِّر الثقة الأساسيَّة بأنّ هناك في مكان ما مصنعًا قادرًا على إحكامها، أو على استحداث آلة أخرى صالحة.

كتب هانس كونغ: «هذه الثقة الأصليّة ليست غير معقولة أبدًا. فإنّ ذلك في الحقيقة يعود إلى طبيعة الاختيار. هل ينطوي العزم الأصليّ على اختيار بين إمكانين متساويَيْن؟ كلّا، ففي هذا الموضوع لا يكون الاختيار بين الأحمر والأخضر، أو بين الأبيض والأسود، بل يكون الاختيار بين النور وعدم النور، وبين الضياء والظلمة التامّة! وليس الأمر أيضًا مثل الاختيار الشهير في حياة هِرَقل Hercule عند مفترق الطرق، لأنَّ في هذا الميدان لا يكون الاختيار بين اللذّة والفضيلة، بين الميل والواجب، بل بين العدم والوجود»(١٣).

إنّ الثقة الأساسيّة هي خطّ التوجيه الذي يُفهمنا أنّه لا بدَّ من أن تحمل الحياة معنًى عند جميع الناس. كتب داغ هامارْشُولد Dag

---

(١٣) هانس كونغ، المرجع المذكور، ص ٥٠١.

Hammarskiöld أمين سرّ الأمم المتّحدة والفائز بجائزة نوبل للسلام العام ١٩٦١، في عيد العنصرة العام نفسه، قبل الموت الذي نزل به في أثناء رسالة سلام عند حدود الكونغو: «لا أدري مَن أو ما الذي عَرَض السؤال. ولا أدري متى عُرِض. ولا أدري حتّى إذا كنتُ قد أجبتُ عنه. ولكنّي أجبت ذات مرّة نعم عن شيءٍ أو أجبتُ أحدًا».

«منذ تلك اللحظة نشأ اليقين بأنَّ للوجود معنًى، وأنّه لهذا السبب، حياتي وهي تذعن لها هدفٌ».

«منذ تلك اللحظة عرفتُ ماذا يعني «ألّا يلتفت المرء إلى الوراء» و«ألاَّ يهتمّ بالغد».

«قادني في متاهة الحياة خطّ توجيه الجواب، فوصلتُ إلى زمان ومكان بلغتُ فيهما حيث أعرف أنّ الطريق يؤدّي إلى النصر، وأنَّ الانهيار الذي يقود إليه هو النصر. وصلت إلى حيث أعرف أنّ ثمن التزام الحياة هو الإهانة، وأنّ الإذلال الأعمق هو الارتفاع الأعظم الذي يتيسّر للإنسان. ولذلك فَقَدَتْ كلمة الشجاعة معناها على قدر ما لم يكن ممكنًا أن يُنزع منّي شيء»(١٤).

فلا سعادةَ إذًا في هذا العالم، ولكنّنا نذوق منها بعض الجرعات. وهذا ما يجعلنا نرجو بتعقّل أنّنا إذا سلكنا سواء السبيل، أمكننا بلوغ المؤرِد.

---

(١٤) D. HAMMARSKIÖLD, *Zeichen am Weg*, München-Zürich, 1965, p. 170.

٨ - الفلاسفة

فويرباخ، ماركس، نيتشه وتأليه الإنسان

كتب جيوڤانّي ماركيزي[١]: «إذا أردنا أن نكلِّم الإنسان اليوم على الله في موضوعات الثقافة العصريَّة، لا يمكن إهمال عامِلَيْن واسعي الانتشار هما: الإلحاد وعدم المبالاة بالدين. ولكن كيف آل الأمر بالناس إلى إقامة تضادّ بين الله والإنسان؟ ما العوامل الثقافيّة ولا سيّما الفلسفيّة التي سبَّبت نظريّة نكران الله جذريًّا، ذلك النكران الذي يؤيِّده إنسان اليوم على أنّه مُطلق جديد مستقلّ على وجه تامّ بالنظر إلى الله؟

فإذا انطلقنا من هيغِل فإنّ فويرباخ وماركس ونيتشه هم المؤلِّفون الأعظم شأنًا للانتقال من القبول الشامل بالله إلى نكرانه، ليؤكِّد في الوقت نفسه «تأليه الإنسان».

«في «سماء» الإنسان تنطفئ «النجوم» التي جعلت معالم على طريق الإنسانيّة الروحيّ والثقافيّ. يلتفت النظر إلى الأرض وقد وُضِعت في أيدي الإنسان الذي أصبح «بالغًا راشدًا»، وبالتالي لم يعد بحاجةٍ إلى وصايات خارجيَّة. تُكرِّر الأَنَسِيَّة الملحدة في جميع

---

(١) G. MARCHESI, «Dalla negazione di Dio alla divinizzazione dell'uomo», in *Civ. Catt.*, 1982, 1, pp. 17-32.

الصِيَغ: «يجب أن يموت الله ليحيا الإنسان»(٢).

ومع ذلك فالإنسان في نظر الكتاب المقدَّس مُقام في محور الخليقة، لقد أُقيم ملكًا عليها وسيِّدًا، وتُعرض عليه صلة طاعة الله وتقبّل مشيئته، وذلك لتوجيهه إلى أعلى قمم المجد والسعادة التي يدعوه الله إليها. يؤكِّد الوحي المسيحيّ أنَّ الله أصبح إنسانًا كي يستطيع الإنسان أن يصير إلٰهًا. لا يُحظَّر الطيران على الإنسان، بل الطيران من غير مراعاة التعليمات التي يزوّده إيّاها مبدع الديناميكا الهوائيَّة، والتي لا بدّ منها لطيرانٍ آمنٍ سليم. فتأليه الخليقة نفسها ليس أمرًا مشروعًا فحسب، بل الهدف الأوّل الذي أراده الله، ولكن بحسب القواعد التي يعرفها الخبير بالألوهيّة. لا تكون الخليقة الإلٰه الذي يتصوّره الإنسان، بل الإلٰه الذي هو حقًّا.

في أصل المركزيَّة البشريّة الحديثة، وينظر إليها على أنّها حماية لكرامة الإنسان، نلقى قبل كلّ شيء تلميذًا لهيغل، هو فويرباخ، يذيب ذوبانًا تامًّا اللاهوت في الناسوت. فالإنسان هو بدء الدين ومحوره ونهايته. ليس الله سوى ظهور الكائن البشريّ وتطوّره.(٣) «وعمل العصر الحديث هو تحقيق الله وتأنيسه، وتحويل اللاهوت وتذويبه في الناسوت». «شعور الإنسان بالله هو شعوره بنفسه، ومعرفة الله هو معرفة الإنسان نفسه»(٤).

---

(٢) C. FABRO, *Introduzione all'ateismo*, Studium, Roma, 1969; A. Del NOCE, *Il problema dell'ateismo*, Il Mulino, Bologna 1964; AA. VV., *Dibatto sull'ateismo*, Morcelliana, Brescia, 1967; H. DE LUBAC, *Ateismo et senso dell'uomo*, Citadella, Assisi, 1968; AA. VV., *L'ateismo contemporaneo*, SEI, Torino, 1967-70, 4 vol; A. GANOCZY, *Parlare di Dio nella società odierna*, Paideia, Brescia, 1980; J. B. LOTZ, «Il problema di Dio oggi», in *Civ. Catt.*, 1981, II, pp. 250-262.

(٣) L. FEUERBACH, *L'essenza del cristianesimo*, Universale Economica, Milano, 1949, pp. 17, 103, 158.

(٤) L. FEUERBACH, *La filosofia dell'avvenire*, Laterza, Bari, 1975, pp. 93, 18, 20.

يرتبط بفويرباخ، لأسباب مختلفة، معلّمو الشكّ الثلاثة: ماركس، فرويد ونيتشه. فالدين في نظر الثلاثة، ولا سيّما المسيحيّة، هو انسلاب (ماركس)، ووَهْم (فرويد)، وعدوّ الحياة (نيتشه)، يجب تحرير الإنسان منه بإعادته إلى نفسه، وإلى أخلاقيّة جديدة.

إنّ كارل ماركس هو من الوجهة الروحيّة، سليل الإلحاد الأَنَسيّ العائد إلى فويرباخ، ولقد جعل لفكر معلّمه دويًّا عالميًّا وأعلن للعالم «الإنجيل الجديد»، وهو يريد أن يكون أنسيَّة جديدة مبنيَّة على **الإلحاد والشيوعيّة**: «الإلحاد هو الأَنَسِيَّة الناتجة من إلغاء الدين، والشيوعيّة هي الأَنَسِيَّة الناتجة من إلغاء الملكيَّة الخاصّة»[٥].

إنَّ وظيفة النقد العمليّ هي مكافحة «العالم المقلوب رأسًا على عقب» (الدولة والمجتمع الرأسماليّ) الذي يُعتبر فيه الدين «أفيون الشعب»، فيصبح «الأريج الروحيّ» و«الهالة»[٦].

وواصل ماركيزي الكلام فقال: «وبقدوم ماركس نزل الظلام على علم ما وراء الطبيعة الغربيّ: فالواقع كلّه يقتصر على العمل. وما شأن الدين؟ كان ماركس يرى أنّه سينطفئ بشكلٍ طبيعيّ، من جرّاء تقدّم المجتمع الشيوعيّ تقدّمًا اجتماعيًّا. وسيُخضع بعدئذٍ مفسّروه الدين لا للنقد فحسب، بل للاضطهاد العنيف. ومع ذلك، يعود الفضل في انتشار الإلحاد في العالم كلّه، إلى فكر كارل ماركس»[٧].

---

(٥) K. Marx, «Manoscritti economici-filosofici del 1844», in *Opere scelte*, Editori Riuniti, Roma, 1960, p. 157.

(٦) *Id., Pour la critique de la philosophie du droit de Hegel, Ib.*, pp. 57-58.

(٧) G. MARCHESI, *art. cit.*, p. 27.

وواصل ماركيزي الكلام فقال: «ولكنّ النتائج القصوى التي انفتح عليها الإلحاد العصريّ توجَز في ما أتى به فريدريك نيتشه وفي مصيره المفجع... ففي كتابه المروِّع **هوذا الرجل** الذي أُلِّف قبيل الكارثة التي نزلت به، وهو لون من المقدّمة وحصيلة مجملة لجميع ما أَلَّف هو بنفسه: «أنا أوّل مَن اكتشف الحقيقة، لأنّي كنتُ أوّل مَن شعر بالكذب لأنّه كذب، **وقد رفضته**»(٨). ولا يشمل نيتشه بكلمة «كذب» هذا المظهر الخاصّ أو ذاك من مظاهر الدين كما ظهر في صيغه التاريخيّة، بل جوهر المسيحيّة نفسه.

كتب في **المعرفة السارَّة**: «أعظم أحداث العصر هو أنّ الله قد مات، وأنّ الإيمان بالإله المسيحيّ قد أصبح غير مقبول، وأخذ يُلقي ظلاله الأولى على أوروبّا». فلدى هذا الخبر «نشعر بأنّ أشعّة فجر جديد تشرق علينا»(٩).

فنكران الله نكرانًا جذريًّا هو في نظر نيتشه ما لا بدَّ منه لتمهيد الطريق لقدوم المضادّ لله، كما هو **الإنسان السامي** الذي جاء وصفه في **هكذا تكلّم زرادشت**. وأعمل المطرقة فابتغى تدمير الماضي كلّه. وقد أنبأ أيضًا سالفًا - وساهم في التحضير - بمجيء المصائب الشديدة التي قلبت عصرنا رأسًا على عقب. وقد بلغت نتيجة جهده النهائيَّة ذروتها لمّا سقط عقله في هاوية الجنون.

وواصل ماركيزي الكلام فقال: «إنّ **فلسفة العدم** التي تقول بأنَّ الحياة البشريَّة لا معنى لها، وأنّها غير معقولة، أثَّرت تأثيرًا عميقًا في العصر الحديث. ولكنّ النتيجة النهائيّة هي اختبار «موت

---

(٨) F. NIETZSCHE, «Ecce Homo», in *Opere*, Adelphi, Milano, 1970, vol. VI, t. 3, p. 375.

(٩) *Id.*, «La gaia scienza», in *Opere, cit.*, vol. V, t. 2, pp. 204-205.

الإنسان» المفجع وقد غرق في عزلة يائسة، لأنَّه بمعزل عن الله وعن النسبة إلى أساس وجوده الخاصّ المطلق، يجد نفسه تجاه اكتشاف فراغ الحياة من المعنى اكتشافًا مؤلمًا... «يؤول به الأمر حتمًا إلى تجريد الوجود من الإنسانيَّة، ذلك الذي وُضعت له نظريَّة الوجوديّة الملحدة اليائسة لجان پول سارتر».

ومن باب المفارقة أنّ نيتشه نفسه بقي في دائرة المسيحيّة يتحدَّى المسيحيّين ويحرّضهم على أن يحيوا إيمانهم على وجه أكثر تماسكًا، وعلى أن يتحدّثوا عن الله حديثًا يزداد إحكامًا مطّردًا، من غير أن يجعلوا من عظمته عبارة عزاء فحسب. ذلك بأنّ نيتشه نفسه شأن ماركس وفرويد، وقد ظنّ أنّه يضرب الإيمان المسيحيّ، ساهم في الكشف عن تزويراته وتصويب تفسيراته المنحرفة. وهذا يُفسِّر كيف اهتمَّ المسيحيّون ولا سيّما مرسال، ومونييه، وماريتان، وپاپيني، وشيلير، وغوارديني Guardini، ودي لوباك de Lubac، وأورس فون بلتّسار، بما كتب نيتشه، فردّوا عليه ولكنّهم حفظوا في الوقت نفسه معنى التحدّي الملازم لنظريّته القائلة بأنّ «الله قد مات»(١٠).

وختم ماركيزي كلامه بقوله: «إنّ فكرًا يظنّ أنّه يستطيع أنّ يحقِّق نفسه على أنّه مشروع مستقلّ استقلالًا ذاتيًّا على وجه تامّ، برفضه الله، ينتهي به الأمر، كما يشهد بذلك التاريخ الحديث، إلى أن يريد التصرّف بالإنسان على وجه استبداديّ».

---

(١٠) Cf Y. LEDURE, «Il pensiero cristiano di fronte alla critica di Nietzsche», in *Concilium*, 1981, 5, pp. 745-759.

الإلحاد في الاختبار: سبعون عامًا من التجارب على الشعوب

إنّنا نستطيع بنظرنا إلى الأحداث العالميّة في السبعين سنة الماضية في كلّ البلاد التي استوحت أعمالها من عقائد معلّمي الإلحاد الكبار، الحكم على قيمة هذه العقائد. هذه الأحداث هي نتيجة نوع من التجربة أُجريت بإدخال الاكتفاء الذاتيّ إزاء الله، من خلال وسائل الإعلام الاجتماعيّ والمدرسة، لا على أفراد جُعلوا رسائل تجربة، بل على الشعوب الغربيّة كلّها طوال حقبة تاريخيّة بأجمعها.

يعترف جميع الناس اليوم بأنّ النازيّة التي اتّخذت نيتشه معلّمًا لها كانت عار القرن العشرين.

وقامت شيوعيّة ماركس بانتهاك حرّيّة الإنسان وكرامته على امتداد حقبة طويلة وعلى نطاق أوسع، واليوم، منذ انفتاح غورباتشوف، يعرف ذلك الأمر الشيوعيّون أنفسهم. كلّ هذا القدر الكبير من العبوديّة وإراقة الدماء، لم يكن نافعًا حتّى لرفاه اقتصاديّ قريب من رفاه سائر البلاد الأوروبّيّة. كلّ هذا القدر من اضطهاد المؤمنين ودعاية إلحاديّة ضخمة منظّمة لم تنجح في محو الإيمان.

كتب سولجنيتسين: «إذا طُلب إليّ أن أدلّ جملة على سبب الثورة المشؤومة الأهمّ التي تبتلع نحو ستّين مليونًا من المواطنين، فلا يسعني إلاّ أن أكرّر القول: نَسِي الناس الله، فلهذا السبب جرى ما جرى». حُرِمَ الضميرُ الإنسانيّ عظمته الإلٰهيّة فأظهر حدودًا لها دور حاسم في أفظع جرائم هذا العصر.

إنّ إعصار الإلحاد والتدمير الذاتيّ يبتلع القرن العشرين. هذا

السقوط المدمِّر في الهاوية يظهر بمظاهر لا ترتبط على وجه خاصّ بنظام سياسيّ، ولا بمستوى محدّد من التطوّر الاقتصاديّ والثقافيّ، حتّى ولا بالميزات الوطنيّة[١١].

ذلك بأنّ حضارتنا الدنيويّة القائمة على الاستهلاك، مهما كانت بعيدة من شنائع النازيّة والستالينيّة، مُهَدَّدة بفُقدان الإنسانيّة. اليوم نعلم أنَّ إيمان أهل القرن التاسع عشر الساذج في العلم والتقنيّة، والذي كان عليه أن يغنينا عن الإيمان بالله، قد آل به الأمر إلى أن يكون من غير غرض، فلا يقول كلمة في المشكلة الأخيرة الحاسمة: القِيَم التي تجعل للحياة معنًى.

مارتن هايدغر والسعي إلى الله

إنّ الريبة التي رمى بها فويرباخ وفرويد ونيتشه الإيمانَ بوصفه هربًا من الواقع، ومن الالتزامات التاريخيّة القاسية، قد يكون سببًا في التصرُّف الفعليّ لكثير من أنصاف المؤمنين. ولكن هل يُوافق ذلك حقًّا جوهر المسيحيّة؟ أم هو بالأحرى صيغة جزئيّة تاريخيّة تعود إلى ضعف التعليم المسيحيّ الغنيّ بما لا حدَّ له، وعدم تماسكه البشريّ؟

دَمَّر معلِّمو الريبة هؤلاء القِيَم السابقة، لكنّهم لم يسعهم إعادة نسج النسيج الذي خرَّبوه بكثير من الشغف لُحمةً لحمة. إنّ مختلف السلطات الاستبداديّة التي اجتازت تاريخ عصرنا وأزمة القِيَم الخُلقيّة في العائلة، ومعنى الحياة، التي تنفث السمّ في مدنيَّة الاستهلاك الحاضرة هي تأوين السياق التاريخيّ المدمِّر الإنسان الذي أقاموا أنفسهم حملة أعلامه.

---

(١١) سولجنيتسين، بحسب مجلّة *National Review*، نيويورك، ٢٢/٧/١٩٨٣.

بحث الفيلسوف مارتن هايدغر، بتحليل له حياتيّ طويل، عن وسيلة للتغلّب على عدميَّة معلِّمي الريبة وإلحادهم. إنّ فكره هو على وجه أكيد منفتح على مسألة الله، لكن هل يصل فعليًّا وفلسفيًّا، إليه؟ حتّى إنَّ أحسن الدراسات في هذا الشأن، لغموض طريقته في التعبير وتعقيدها، لا تنجح في الإجابة عن هذا السؤال(١٢).

إنَّ الارتياب من العقل الذي استعاره هايدغر من كانْت وهيغِل، ونفي حدس كيركغارد، يفسِّران في رأينا هذا الإخفاق. ويصل فلاسفة معاصرون آخرون إلى الله، فلسفيًّا وبوضوح، بانضمامهم إلى واقعيَّة توما الأكويني ومدرسته التي لا تزال حيّة في الفكر المعاصر(١٣).

كتب جيوڤانّي ماركيزي: «في حين يتّهم هايدغر الميتافيزيقيَّة الغربيّة كلّها بـ«نسيان الكائن»، فهو لا يلاحظ أنّ توما الأكويني على أقلّ تقدير، قد فكَّر في الكائن في ذاته، فتقدَّم فلسفيًّا إلى الله تمام الكينونة.

ولكن هل عرف هايدغر فكر توما الأكويني الحقيقيّ؟ يبدو أنّ معرفته الفلسفة المدرسيّة أُخِذت من تصوّر «الكائن المشارك» العائد إلى دونس سكوت Duns Scot وهو بعيد جدًّا عن القدّيس توما.

يمكن المفكِّرون المسيحيّون مواصلة ما قبل علم اللاهوت الذي عرضه هايدغر لِيُولِيَ، في نور الوحي الإلٰهيّ، كمال مضمونه

---

(١٢) Cf C. FABRO, *Introduzione all'ateismo moderno*, cit., pp. 944-973; J. LOTZ, «Né ateismo, né teismo nella filosofia di M. Heidegger», dans AA. VV., *L'ateismo contemporaneo*, SEI, Torino 1968, AA. VV., *Heidegger et la question de Dieu*, Grasset, Paris. 1980; M. HEIDEGGER, *Lettera sull'umanesimo*, par les soins de G. Vattimo, SEI, Torino, 1975.

(١٣) M. HEIDEGGER, *Che cos'è la metafisica?*, La Nuova Italia, Firenze, 1953; *... senza della verità*, Bocca, Milano, 1952.

الأصليّ، الذي بحث عنه هايدغر بشغف في سعيه الأساسيّ... ولكن مثل هذا الكمال يمكن أن ينبجس من الانفتاح الصريح على الله، ومن الالتقاء الشخصيّ بسرّه، وهو تمام الكينونة وأساس مطلق للكائن الإنسانيّ والتاريخ»(١٤).

عمّانوئيل كانتْ والارتياب من العقل

كانت امرأة جالسة على رصيف تَيَنُّ، فتمتم عابر سبيل:

«ماذا حدث لكِ؟». فنظرت المرأة إليه وأَجابته: «حدث لي أنّي أحتاج إلى هبة منك لأنّي عمياء صمّاء خرساء منذ مولدي».

حاول كانْت أن يثبت بالعقل أنّ العقل أعمى، أصمّ وأخرس حيال الله، لأنّه لا يستطيع إدراك أيّة حقيقة تتجاوز الاختبار الحسّيّ.

يُجيب الفلاسفة الواقعيّون وأتباع مار توما الجُدد، على كانْت، بالإضافة إلى حججٍ كثيرة يبرزونها للدفاع عن العقل، أنّه إذا كان ما يريد إثباته حقًّا، فإنّ ما يريد إثباته باطل. ذلك بأنّه يسعى إلى إثبات قضيّة فلسفيّة لا تدركها الحواسّ، بهذا العقل الذي يُعلنه عاجزًا عن إدراك حقائق تفوق حقائق الحواسّ.

إنّ الفيلسوف الذي يقول إنّه لا يؤمن بقدرات العقل، يؤمن بها هو بنفسه في الواقع، لأنّه يقوم بعمل فلسفيّ، وكلّ قضيّة فلسفيّة تفوق الحواسّ.

ولكن الواقعيّة تثبت أنّ الإنسان يتجاوز الرياضات الفكريّة

---

(١٤) G. MARCHESI, «Il problema di [illegible] da Nietzsche a Heidegger», in *Civ. Catt.*, 1982, II, pp. 545-559. Cf J. [illegible] [illegible]omo-essere-tempo-Dio; sul dialogo tra Heidegger e Tommaso d[illegible]», in *Rassegna di teologia*, 1978, p.. 306.

ويتوصّل في أحوال كثيرة إلى اليقين، حتّى في حقائق لا تستطيع الحواسّ إدراكها، لا بل يستطيع تحقيقها، وهي تتيح له، من جميع الوجوه، اختبار قدرة العقل اختبارًا مباشرًا. وهكذا اليوم بالدفاع حقًّا عن العقل يُدافع الإنسان عن إيمان ليس ذاتيًّا محضًا(١٥).

في بداية سلسلة من المحاضرات الموجَّهة إلى جامعيّي أُوكسفورد الكاثوليك ألقى الأب توما كوربيشلي Corbishley محاضرة ليؤكِّد أنّ العقل يستطيع بلوغ بعض الحقائق التي تتخطّى الحواسّ، ومنها حقيقة وجود الله. فقد أعلن: «لنبدأ بأن نكون واضحين منذ البدء بقولنا: ليس من الضروريّ على الإطلاق، لا بل إنّه لأمرٌ مستحيل، تأييد حقوق العقل على وجه مباشر». فأيًّا كان تأكيدي فإنّه يثبت حتمًا سيادة العقل؛ في حين أنّه أيًّا كان تأكيد المرتاب، حتّى إذا حاول نقضه، فهو يعمل للقبول بأنّه غير قابل للتجريح».

ثمّة حقائق كلّ واحد منّا على يقين منها، حتّى ولو كان غير قادرٍ على إثباتها بالاختبار. وبوصولي إلى النتيجة الأكيدة لمثل هذه الاستدلالات أدرك قدرة العقل على معرفة الحقّ. «فإذا عرفتُ في فرصة سانحة ما، أنّي أعرف، يصبح الأمرُ أكيدًا جدًّا أنّي أعرف أنّه

---

(١٥) S. BRETON, *Approches phénoménologiques de l'être*, Vitte, Paris, 1959; L. CHIESA, *La base del realismo et la critica neokantiana*, Univ. Lateranense, Roma, 1969; A. De Conninck, *L'unité de la connaissance humaine et le fondement de sa valeur*, Louvain-Bruges, 1943; E. GILSON, *Réalisme thomiste et critique de la connaissance*, Paris, 1939; E. JACQUES *Introduction au problème de la connaissance*, Publications Universitaires, Louvain, 1953; B. LONERGAN, *Insight, a study of human understanding*, Longman, London, 1963; J. MARECHAL, *La critique de Kant*, et *Le Thomisme devant la philosophie critique*. Paris, 1947; R. MASI, *L'essere e la verità*, Morcelliana, Brescia, 1957; J. VAN STEENBERGHEN, *Epistémologie*, Louvain, 1945, etc...

يمكنني المعرفة»(١٦). إنّ جميع القرارات المهمّة المختصّة بالحياة تُتّخذ لدى شخص عاقل، بالاستناد إلى احتمالات حسنة أو يقينيّات أخلاقيّة، يأتي تأكيدها بالتجربة بعدئذٍ.

توما الأكويني والواقعيّة

يبلغ تيّاران، من بين التيّارات الفلسفيّة الأساسيّة، اليقين الأدبيّ بوجود الله: واقعيّة أتباع توما الأكويني، والوجوديّة المستوحاة من تعليم القدّيس أوغوسطينس. في المذهب الأوّل، تتغلّب مراقبة الواقع الخارج عن الإنسان ويُؤكّد أنّ العقل يستطيع أن يعرف آثار الله ويكتشفها فيه. وندرس في المذهب الثاني باطن الضمير الإنسانيّ، فنجد فيه علامات حضوره الأكيدة.

يجتاز التيّاران تاريخ الفكر الإنسانيّ، وهما يبحثان عن تعهّد وجوه تقدّم مفكّري عصرهما والردّ على نقدهم. وهكذا على سبيل المثال، أجبر نقد كانْت والمثاليّة الحديثة لقدرات العقل الواقعيّين على خلق مبحث للعلوم وواقعيّة نقديّة بوسعهما الردّ على اعتراضاتهم.

إنّ واقعيّة مذهب مار توما الحديث الجوهريّ يميِّز بين العلم الاختباريّ التجريبيّ (الاعتراف بالظواهر وأسبابها الفيزيائيّة) والفلسفة (معرفة، بالعقل، الأحداث والوقائع التي لا تدركها الحواسّ). حتّى في الحالة الثانية هذه، يُعرف بالقيمة الموضوعيّة لمعرفة الإنسان، ويُفسّر، إذ تُراعى أسباب نَقْدِ كانْت، العمل

---

(١٦) T. CORBISHLEY, *Perché la religione è ragionevole*, Ed. Il seme, Milano, 1962, pp. 20-21; L. BOGLIOLO, *Antropologia filosofica; alla scoperta dell'uomo*, Univ. Lateranense, Roma, 1972.

النفسيّ الذي به يُخرج جوهر الأشياء من الوجود ويُحفظ سالمًا لجهة المضمون، في الفكر.

يسند العلمُ والفلسفةُ والتاريخُ الإيمانَ بشكل متين، إذ يثبت كلٌّ منها، إلى حدّ اليقين الأدبيّ، أنَّ لله وجودًا، وأنَّ المسيحَ هو وحي الله الأكثَر ضياءً. يذهب الإيمان إلى ما بعد العلم والتاريخ والفلسفة، بتسليم نفسه إلى المسيح، وإقباله على تعاليمه، وهو يتبيَّن بالعقل سموّها ويتقبَّل أيضًا حتّى الأمور التي لا تُدرك بوضوح.

يُتَجنَّب في واقعيّة مذهب توما الأكويني عقبتا الفكر الإنسانيّ وهما: **العقلانيّة** التي تعتمد على العقل وحده، فتنبذ أسرار الإيمان، وتؤول اليوم إلى النسبيّة، والوضعيّة، والارتياب، والعدميَّة. والعقبة الثانية هي **الإيمانيّة** التي تدع الإيمان وحده يقودها، ناكرةً كلّ قيمة معرفيَّة للعقل في ما بعد الظواهر، ومتخلِّية لذلك عن بناء كلّ مقدرة معرفيَّة تتنبَّه لجميع مظاهر عمل المعرفة.

ڤالتر كاسِبِر Kasper: الإيمان، اليوم، هو عكس الهروب من العالم

لا تزعم الفلسفة المسيحيّة أنّها تجد طرقًا قاطعة، وحججًا دامغة، تثبت وجود الله، إذ لا يكون الإيمان إيمانًا بعد ذلك.

إنّ الطرق التي تؤدّي إلى الله، والتي يُبرزها الكتاب المقدَّس، هي واضحة في سيرة كبار الأنبياء، **والمسيح**، والمسيحيّين الموثوق بهم في الماضي والحاضر. والكتاب المقدَّس مع ذلك يدلّ أيضًا على طريق الطبيعة التي تسلكها الأكوينيّة الجديدة.

يبدو لنا أنّه بمعزل عن هذه الطرق لا مفرَّ من السقوط عاجلًا أم آجلًا، في اليأس أو في اللامبالاة المطلقة حيال الله. ويمكن اليوم

التعبير عن الله بأنّنا نبلغه لا بالفلسفة وحسب، بل، في نظر معظم الناس، بحدس الوجود حدسًا شاملًا على أنَّه نكران لغير المعقول وتأكيد ما يُعبَّر عنه.

الله هو القدرة التي تُتيح لنا رجاء مستقبل الإنسانيّة، وتنقذنا من الملل من الحياة وتشجّعنا على تحسين العالم. فالإيمان اليوم هو إذًا عكس الهروب من العالم. فهو لا يقلِّل من سعينا ومن مشروعات الإنسان وصراعاته، بل يبعث فيها الروح ويسندها؛ فليس الإيمان بديل العزاء من الخيبات، بل رجاء يشجِّع على حياة تامّة. وإذا استعاد أصالته، فقد استطاع ذلك بفضل انتقادات المُلحدين التي أتاحت فصل القمح عن التبن.

نستطيع اليوم، لنعرض جوهر الإيمان، الاقتصار على الأمر الحاسم: أيّ موقف أكثر موافقة لواقع حياة الإنسان، أتُراه الإيمان أم الجحود؟

سيستطيع كلّ واحد اختيار ما يشاء، لكن الإيمان، إذا نُظِر إليه هكذا، لن يمكن أن يُقال فيه على نحوٍ أكيد إنّه بعيد من اختبارات الإنسان الحديث ومصالحه(١٧).

إنَّ الفلسفة التي تنطلق من الواقع الخارجيّ، لا تفيد من اتّصال مباشر، ومن اختبار الله باطنيًّا، كالذي يعرضه، على عكس ذلك، انحَدْس، وهو، وإن أقنع، يعرض صورة عن «الكائن الأعظم»، باردة، مجرَّدة وبعيدة.

ولكي أودّ اجتناب تصوّر الناسِ الإيمانَ على أنَّه شبيه بضرورة ذاتيَّة، لا أساس لها في الواقع الخارج عن الإنسان، أعرض عرضًا

---

(١٧) W. KASPER, *Introduzione alle fede*, trad. ital., queriniana, Brescia, 1973.

بسيطًا جدًّا وسهل المنال، ومفيدًا للذين لا يعرفون الفلسفة: طريقين فلسفيَّين لبلوغ الله. وأحيل، الآخرين أو البحث المعمّق عن هاتين الطريقين، على مؤلّفات أكبر تقنيّةً واختصاصًا.

من محفظة فارغة لا يخرج مليار

إبتدأ الفيلسوف الوجوديّ مارتن هايدغِر كتابه **مقدّمة علم ما وراء الطبيعة** بالسؤال التالي: «لِمَ الأشياء موجودة؟ لِمَ أنا موجود؟ لِمَ العالم بأسره في الوجود، لا في العدم؟».

يتّفق جميع الناس على أنّه إذا وقع حدثٌ فلا بدَّ من سبب متناسب. فأيُّ درس كان أم بحثٍ أم اكتشاف أصل ظاهرة يكون بواسطة مبدأ السبب الكافي.

لا حاجة إلى رؤية كائنات ذكيّة في الفضاء بين النجوم لمعرفة هويّتها. يكفي لمعرفة ذلك إرسالات راديو فيها «ذكاء»، مثل قواعد رياضيّة أو أشياء فيها تنظيم لم يصنعه الإنسان. فإنّنا بمراقبة منتوجاتها يمكننا أن نتصوّر الذكاء وطرق عيش شعوب الماضي وأصحاب الفنّ، والمخترعين الذين نجهل حتّى اسمهم.

فإنّ بعض علماء الفلك مثل أورباان لوَ فِرّييه Urbain Le Verrier، باعتمادهم على هذا المبدأ، مبدأ السبب الكافي وحساباتهم، اكتشفوا كواكب لا تُرى حتّى بالراصدات؛ ودرس بعض العلماء مثل رَذِرْفُورد Rutherford درسًا وافيًا تصرُّف الذرّة التي لم يَرَها أحد قطّ، حتّى بواسطة المجاهر الأكثر فعاليَّة.

ولا حاجة إلى إمكانيَّة رؤية السبب أو لمسه. فالأشعّة فوق البنفسجيّة، وتحت الحمراء، وقوّة الجاذبيّة، وموجات الراديو والإشعاعات الذرِّيَّة هي كلّها أسباب معروفة جدًّا وإن لم يرَها أحدٌ

قطّ. حسبنا تحقّق نتائجها.

ثمّ إنّ العقل يؤكّد لنا أنّ لمبدأ السبب الكافي قيمةً حتّى بمعزل عن العالم المادّيّ، وتسري حتّى على الأمور الروحيّة. فأيًّا كان الحدث الذي يطرأ، فلا بدَّ من سببٍ له متناسب، لأنّ ما من شيء يأتي من العدم.

جوزيف ڤان ستينبرغن Steenberghen وطريق قِيَم الحياة الكبرى للذهاب إلى الله

وضع جوزيف ڤان ستينبرغن وهو أستاذ الفلسفة الماهر في جامعة لوڤان Louvain هذا الطريق للذهاب إلى الله(١٨).

المرحلة الأولى: لا بُدَّ من وجود واقع أزَليّ لم يحدثه أحدٌ أو شيء

قد يكون المادّة أو الكون أو الطبيعة أو الروح أو الله أو شيء آخر. لا نريد الآن أن نبحث فيه. ولكن لا بدَّ من شيء له وجود في ذاته، من غير أن يُخلَق أو أن يُسبِّبه كائن آخر. نسمّي هذا الواقع «الكائن الأعلى»، كونه لا سبب له فهو غير مرتبط بكائنات أخرى. إنّه طليق من روابط التلقّي والارتباط.

يستحيل علينا على وجه تامّ أن نتصوَّر كائنًا أو مادّة من غير أصل، تبسط وجودها على أزليّة لا يمكن تصوّرها أو في زمان لا نهاية له، وهو أيضًا أمر لا يمكن التفكير فيه.

ومع ذلك فالعقل يقتضيه. فإذا لم يكن من كائن أزليّ فإنّ

---

(١٨) J. F. Van STEENBERGHEN, *Como sappiamo che Dio esiste*, trad. it,. Roma, 1966.

جميع الكائنات، من غير استثناء، هي مثل الكائنات التي لنا خبرة بها، أي إنّها ذات سببٍ وأصلٍ في الزمان.

ولكن مثل هذا الافتراض، عندما يُفحَص بمزيد من الانتباه يبدو غير معقول. فجميع الكائنات تلقَّت الوجود من غير أن يكون أحدٌ قد أعطاها إيّاه. فذلك أشبه بسلسلة أشخاص يُمرِّرون دِلاء ماء من غير أن يكون أحدٌ قد ملأها من العين قبل ذلك.

أو يمكن تشبيه هذا الافتراض بسلسلة من المرايا لا حدّ لها، تعكس كلّ منها نور مرآةٍ سابقة من غير مصدر ضوئيّ.

إنّه تكرار لا نهاية له لأجهزة هاتف أو مرئيّ تنقل كلمات وصورًا من غير متكلِّم بالهاتف أو في آلة تصوير أوّليّة. وبكلمة واحدة، إنَّ سلسلة مولِّدات أُنتِجَت من غير مولِّد - أصليّ - أوّلًا هي أمر غير معقول.

إنّ الأمثلة المعروضة تجعلنا ندرك الفرق الشامل غير المحدود بين الكائن المطلق وجميع الكائنات التي نراها حولنا، بما فيها نحن بأنفسنا. فلا بُدَّ من التوقّف على مصدر الكينونة الأوّل، الذي لم يتلقَّ الكيان لأنَّه نفسه مصدر الكينونة. ولا تفسير لوجودها في كائن آخر لأنّه مفسَّرٌ في نفسها. إنّها الآخر على وجه تامّ. إذا لم يكن من شيء في الوجود، قبل الزمان، حتّى ولا الكائن المطلق، لما كان في الوجود من شيء، **حتّى في الوقت الحاضر، لأنّه من العدم لا يخرج إلاّ العدم.**

يقتضي العقل ذلك، وهو شيء يراه العقل صحيحًا، لأيّ نوع من أنواع الواقع، لا للظاهرات الأرضيّة فحسب.

المرحلة الثانية: على الواقع غير المسبَّب أن يمتلك جميع الكمالات الحاضرة الآن والقابلة لأن تتحقّقها

فالواقع غير المسبَّب موجود إذًا منذ الأزل. إنّه موجود لا لأنّه أُنتج مثل كلّ واقع نراه حولنا، بل لأنَّ مجرَّد وجوده يعود إلى طبيعته.

هذا الواقع هو، على وجه واضح، أصل جميع الأشياء والأحياء والإنسانيّة. فإذا كان أصل كلّ شيء، فهو أيضًا أصل كمالات الأشياء والأحياء والناس: أصل مختلف جمالات الطبيعة، ومختلف التنظيمات الأحيائيّة في الأجسام الحيَّة، والقدرات، القوّات والمهارات، والذكاءات والأحداس، والمشاعر، واللذّات والأفراح، والتعلّق بالحياة، والشجاعة، والبذل في سبيل الآخرين؛ والثقة، والثبات، والمودّة، والصداقة، والمحبّة، والاستقامة، والصدق، والعدل، والهدوء والسلام الباطنيّ؛ والظرف؛ والغنى؛ والمعرفة والخبرة والحرِّيّة... وهلم جرًّا.

كانت تحتوي هذه الحقيقة، بالقوّة على أقل تقدير، الكمالات هذه، كما أنّ للبذرة بالقوّة قدرات النبات، وللطفل الإمكانات لكي يصير رجلًا ذكيًّا. ذلك بأنّه لا تُنتج حقيقة ما أبدًا ممّا ليس له قدرة على إنتاجها[١٩].

إنّ الذين يؤكّدون أنّ الكمالات خرجت من نفسها من «العدم» على مرِّ الزمان، لا يجعلون لها كيانًا وحقيقة. نحن موافقون على أنّ

---

(١٩) E. GILSON, *Dio e la filosofia*, Massimo, Milano, 1984; C. FABRO, *Le prove dell'esistenza di Dio*, La Scuola, Brescia, 1980.

كمالات الأحياء تتطوّر بالممارسة، ولكن لا يحدث ذلك لو لم يكن فيها الإمكانات لعمل ذلك.

ولكنّ الحقيقة الأولى لم تكن تحتوي كمالات الحياة والعقل الإنسانيّ بالقوّة فحسب. ذلك بأنّ كائنًا يحتوي بالقوّة كمالًا مفترضًا من قبل تلقّى هذا الإمكان من كائن آخر كان له هذا الكمال على وجه قد تطوَّر.

إنّ كلًّا من الإمكان والكمال المتطوِّر قيمتان... إنّهما شيء واقع حقًّا. فالذكاء في الرجل كمال متطوِّر، وهو إمكان في الطفل، وكلاهما مفقود في الغاز أو الحجر.

والإمكان، وإن كان على وجه مختلف واقعًا، كما هو الأمر في منجم الذهب، فهو لا بل واقع على وجه أكثر واقعيّة. إذا لم يكن لي منجمُ ذهبٍ، فلا يمكنني أن أعطيه نفسي ولا أن أعطيه الآخرين، ولا يمكنني على مرِّ الزمان إخراجه من العدم. بالولادة، يمكن المرءَ الحصولُ على قدرة، ولكن من كائن له هذه القدرة. لأنّه ما من شيء أو أحد يمكنه إعطاء ما لا يملكه.

إنّها أسطورة وقولٌ جزاف إنّ الإمكانات خرجت من العدم، وإنّها بعدئذ تطوّرت على مرِّ الزمان. تقتضي الإمكانات الكائنة قبلًا في كائن آخر، الكمالات التي تَعِد بها تلك الإمكانات[٢٠].

إنَّ الجمال هو الحدس بالانسجام الكامن في المادّة. والتنظيم التقنيّ هو سلسلة من الأفكار لبلوغ هدف محدَّد بتنسيق وسائل في ما بينها. والذكاء هو القدرة على جَني جوهر الأشياء. والمحبّة هي القدرة على الاندماج في كائن آخر وفي خيره، وهلمّ جرًّا. لن تكون

---

(٢٠) U. BENEDETTI, *Dio. Il senso della storia*, Vita e Pensiero, Milano, 1983.

التعريفات كاملة، لكن الكمالات والإمكانات التي تتّصل بها هي حقائق، وهي مثل أيّة حقيقة لا يمكن أن تأتي من العدم، حتّى ولا في مليارات السنين. من عدم الذكاء والمحبّة لا يخرج شيء من هاتين الحقيقتين.

إنَّ ما نراه اليوم في الدنيا من القدرات والكمالات قد بثّته الحقيقة غير المسبَّبة التي لم تتلقَّ من أحد شيئًا لأنّها احتوت فيها كلّ شيء. لقد أعطت الآخرين مختلف الإمكانات وخلقت الأحوال الملائمة لكي تتطوَّر على امتداد فترات طويلة من الزمن.

أوجَز جاك ماريتان ذلك، بقوله: «لمّا كان الصلاح - الجمال - الحياة - المعرفة - المحبّة وآخر الأمر الكينونة - في الأشياء على درجات متفاوتة، فلا بدّ إذًا من أن يكون في مكان ما من أجل هذه القِيَم مبرِّر أعلى أو درجة عُليا». «كلّ شيء جيِّد أو جميل هو جميل أو جيِّد جزئيًا أو بالمشاركة. فليس سببُ جودته نابعًا من ذاته».

«ولكن أيًّا كان السبب المأخوذ في الحسبان، فإذا كانت جودته مسبَّبة، فإنّها تتلقّى جودتها من آخر. حتّى ولو وجب علينا أن نقف على علّة أُولى تكون جيِّدة في جوهرها أو جيِّدة في ذاتها»[٢١].

جاك ماريتان وسبيل الضمير إلى الله

ثمّة طريق فلسفيّ إلى الله، في متناول الجميع، إنّه طريق الضمير.

يمسك الرجل المستقيم عن الإساءة إلى غيره بشهادة زور، لا لأنّه لا ينال من ذلك فوائد تُذكر، ولا لأنّ الرياء قد يُفضح أمره، بل

---

(٢١) J. MARITAIN, *Alla ricerca di Dio*, Ed. Paoline, Roma, 1972, pp. 50-51.

لأنَّ ذلك عملٌ سيِّءٌ فحسب.

يسائل ماريتان نفسه: «ما الذي ينطوي على مثل هذا العمل؟» فيُجيب: «إنّ ذكاء هذا الرجل يعرف إذًا تمييز الخير من الشرّ، وهو يعرف أنّه يجب عمل الخير لأنّه خير: إنّه الداعي القاطع الذي يفوق نظام الآداب والرغبات العمليّة كلّه».

«إنَّ عمل الخير للخير ينطوي حتمًا على أنَّ هناك نظامًا مثاليًّا وغير قابل للرفض... وشريعة لأعمال الإنسان تفوق نظام العمل كلّه».

«وكيف يكون هناك شريعة تفوق النظام العمليّ كلّه... إذا لم تكن تحمل في الوجود مقتضيات نظام رهين حقيقة تعلو كلَّ شيء وهي الصلاح نفسه؟».

وكيف أُقبِل عليها، وأنا مندفع إليها من كلّ كياني، للخضوع لهذه الشريعة السامية، إذا لم أُقبل على هذا الخير المنفصل وأوجّه إليه حياتي، لأنّه في الوقت نفسه الخير وخيري الخاصّ؟

«قد يكون أنّ امْرأً تكمن فيه على وجه غير شعوريّ المعرفة التي ذكرناها الآن، لا يجهل الله في عقله الواعي فحسب، بل يُعادي في عقله الواعي وجود الله، بفعل خطأ فكريّ وضلال في الاستقراء، ويُنادي بالإلحاد. يعتقد أنّه ملحد. ولا يُمكنه أن يكون ملحدًا في الواقع إذا اختار وما زال يختار طريق الخير في اختياره الخُلقيّ الأساسيّ[٢٢].

---

(٢٢) ماريتان، المرجع السابق، ص ٨٩-٩٤.

إلى الله على يد الفلاسفة المُحْدَثين

إنّ كثيرًا من الفلاسفة والمفكِّرين المُحْدَثين يبلغون معرفة الله بدروب مختلفة، بعضها أكثر عقلانيّة، وبعضها الآخر أكثر حدسًا.

عمّانوئيل كانْت (١٧٢٤-١٨٠٤): إنّ كانْت وغيره من الذين انطلقوا من مذهبه النقديّ، حتّى في نكرانهم بلوغ المفارِق بالعقل المجرَّد، يعترفون أنّ شريعة الأخلاق، بمعزل عن الله، تبقى بلا أساس: لأنّه، من دون الله، لا يمكنها أن تكون أمرًا مطلقًا يفرض نفسه على الإنسان فرضًا. بل لا تكون عادلة لأنّ الفاجر والبارّ يؤولان إلى مصير واحد بعد الموت.

إنّ العقل العمليّ يؤول بالفيلسوف الألمانيّ لهذا السبب إلى الإيمان بالمسلَّمات التي تجعل الأخلاقيّة ممكنة، بما فيها حرّيّة الاختيار، وخلود النفس، ووجود الله الذي يجزي بالعدل تصرُّفَ الإنسان[٢٣].

ماري فرنسوا مان دي بيران Marie-François Maine de Biran (١٧٦٦-١٨٢٤): إنّ شعورنا الباطنيّ يقول لنا بأنّ ثمّة كائنًا يُرتِّب جميع الأشياء ويجعلنا نرى الله في نظام العالم[٢٤].

جيوزيّي مازّيني Giuseppe Mazzini (١٨٠٥-١٨٧٢): إنّ الأنانيّة تحجب الله في حين أنّ محبّة الوطن والإنسانيّة تكشف عنه. فبمعزل عن الله تسود المادّيّة والأنانيّة ويزول كلّ مثال أعلى.

أنطونيو روسميني Antonio Rosmini (١٧٩٧-١٨٥٥): يتحسَّس

---

(٢٣) *Fondazione della metafisica dei costumi*, 1785.

(٢٤) *Fondamenti della morale e della religione*, 1818.

كلّ إنسان تحسُّسًا طبيعيًّا الكائن المثاليّ. وتنال الشريعة الخلقيّة كمالها في محبّة الله الذي يُحبّ حبًّا مطلقًا لأنّه الكائن المطلق(٢٥).

ڤنتشنتسو جيوبرتي Vincenzo Gioberti (١٨٠١-١٨٥٢): يتحسّس ذهننا الله تحسُّسًا مباشرًا وعلى الحال، وهذا الحدث يجعل منّا كائنات عاقلة. فوجود الكائن الكامل في الحدس الأصليّ يجعلنا نعرف الكائنات الأخرى في حقيقتها لأنّ مبدأها هو في الله(٢٦).

سورين كيركِڠارد (١٨١٣-١٨٥٥): إنّ رئيس مدرسة الوجوديّة يبلغ الله باستبطان ذهنه عينه. فالإنسان لا يجد في باطنه دليلًا إلى الله بل شيئًا يفوق ذلك. إنّه يُحِسّ بكلمته التي تُوجّه إليه بمفرده(٢٧).

ألفونس غراتري Alphonse Gratry (١٨٠٥-١٨٧٢): للإنسان حسّ خارجيّ به يشعر بوجود الأجسام، وحسٌّ باطنيّ به يشعر بنفسه وبأشباهه، وحسٌّ إلٰهيّ به يعرف ضعفه، فيجد الله في أعماق نفسه.

ليون أولّي لاپرون Léon Ollé Laprune (١٨٣٩-١٨٩٨): يعترف هذا الفيلسوف كذلك بالأهمّيّة الأساسيّة للاستبطان الهادئ العميق، يصحبه البحث العمليّ عن جميع القِيَم الأخلاقيّة. فالإنسان الذي يعرف نفسه هذه المعرفة يكتشف أنّ الدافع الذي يحمل على الرغبة والعمل هو الوحي الباطنيّ بما هو أفضل، بما لا حدَّ له، بالله(٢٨).

موريس بلونديل (١٨٦١-١٩٤٩): إكتشف طريقًا إلى الله يفهمها على وجه خاصّ الإنسان الحديث، بإثباته أنّ كلّ عمل إنسانيّ ينزع

---

(٢٥) *Principi della scienza morale*, 1831.

(٢٦) *La teoria del soprannaturale*, 1838.

(٢٧) *Aut-aut*, 1843; *Timore e tremore*, 1843; *Stadi nel cammino della vita*, 1845.

(٢٨) *De la certitude morale*, 1881; *La valeur de la vie*, 1895.

إلى الله، حتّى وإن كان لا يُحسّ بهذه النزعة بجلاء.

إنّ فكرة ما لا حدَّ له تتيح للإنسان أن يقيس كلّ شيء، فيجده دائمًا دون رغبته. يُثبت بلونديل باستناده إلى القاعدة النفسيّة أنّ ما يفوق الطبيعيّة ليس مستحيلًا أو غير ضروريّ، بل المُتَمِّم الذي لا بُدَّ منه للإنسان(٢٩).

إتيان بوترو Etienne Boutroux (١٨٤٥-١٩٢١): ينظر العلم نظرة غير شخصيَّة، باردة، موضوعيّة، إلى الحقيقة الخارجة عن الإنسان. في حين أنّ الحياة، على عكس ذلك، تؤمن بالقِيَم: العلاقات الاجتماعيّة، الفنّ، الأخلاق... فالعلم غير كافٍ لاختيار قيمة والتعلّق بها. يودّ الإنسان أن يؤمن بها. إنّ الإيمان والمثال الأعلى والحماسة هي شروط العمل الإنسانيّ، وشيء لا بدَّ منه على الإطلاق للإنسان. وهي أيضًا عناصر الدين. فالإيمان يقتضي المثال الأعلى، والمثال الأعلى يقتضي الله(٣٠).

ماكس شيلير (١٨٧٥-١٩٢٨): لا يمكن أن تحظى الأشياء والأشخاص بقيمة روحيَّة إلّا إذا نُظِر إليها بنور أعلى. فالحياة، بمعزل عن هذه القيمة، تكون بلا معنى، ولا تستحقّ أن تُعاش(٣١).

هنري برغسن (١٨٥٩-١٩٤١): المعرفة الحقيقيّة هي الحَدْس الذي يقوم على أن نحيا الأشياء في داخلها. ذلك بأنّ التصوُّرات الجامدة والمُبَلْوَرة لا يمكنها أن تُظهر الحقيقة كلّها التي هي تدفُّق دائم. الله هو الحياة المستمرَّة، وهو ينبوع تدفّق الأشياء الذي لا

---

(٢٩) *La pensée*, 1934; *L'être et les êtres*, 1933; *L'action*, 1936; *La philosophie et l'esprit chrétien*, 1944; *Les exigences philosophiques du christianisme*, 1950.

(٣٠) *Science et religion*, 1908.

(٣١) *Dell'eterno nell'uomo*, 1921.

ينضب. إذ إنَّ حياة الصوفيّين واختباراتهم تجلٍّ له واضح[٣٢].

كارل ياسپرس (١٨٨٣-١٩٦٩): إنّ الإنسان في إخفاق علم ما وراء الطبيعة، وفي متناقضات حياته الباطنيَّة الدائمة، يشعر بوجود كائن يفوقه: فسرُّ وجوده هو الدليل على وجود الله[٣٣].

جان پول سارتر: إنّه ملحد يُثبت على طريقته ضرورة الله. فالإنسان يريد اكتشاف الله: هذه هي رغبته الأساسيَّة، إلاَّ أنَّ جهده وآلامه تبقى باطلة. فالإنسان هَوىً لا خير فيه، ومن هنا نفوره من نفسه ومن العالم[٣٤].

مارتن هايدِغر: يؤكِّد أنّ الحياة بمعزل عن الله وعن الحياة الآخِرة غير معقولة. فالكائن في هذا العالم يساوي في نظره العدم لأنّ كلّ شيء مصيره الزوال في الموت. ومن هنا قلق الوجود والبحث عن الله[٣٥].

غبريال مرسال (١٨٩٩-١٩٧٣): الفلسفة هي التجربة الباطنة التي يحياها الإنسان. وبها نتبيَّن أنّنا لا نستنفد الوجود كلّه، بل نشارك في مبدأ أعلى، وأنّنا ببذل أنفسنا في سبيل الله ننفتح على عمل المحبّة[٣٦].

ليون تشيستوف (١٨٦٦-١٩٣٨): إنَّ الفلسفة النظريَّة لا تكشف

---

(٣٢) *L'évolution créatrice*, 1907; *Les deux sources de la morale et de la religion*, 1932.

(٣٣) *Filosofia*, 1932.

(٣٤) *L'être et le néant*, 1943.

(٣٥) *L'essere e il tempo*, 1927.

(٣٦) *Journal métaphysique*, 1927; *Homo viator*, 1943.

معنى الحياة. فالله وحده والإيمان يُدخلاننا فيه[٣٧].

نقولا بردياﭬ (١٨٦٤-١٩٤٨): لا يتوخّى الفيلسوف الأصيل معرفة تركيب العالم، بل تجديد الإنسانيّة: إنّه الفيلسوف الذي يعبِّر عن تجربة دينيّة، إنَّه الفيلسوف بالدعوة[٣٨].

لويس لاڤيل (١٨٨٣-١٩٥١): يحصل الإنسان بالاستبطان الفلسفيّ على الشعور بالمشاركة بينه وبين الكائن الأعلى الذي يستقي منه دائمًا. معرفةُ الإنسان نفسه هي معرفته الله في ذاته[٣٩].

رينه لو سان René Le Senne (١٨٨٢-١٩٥٤): القِيَم هي مقياس النشاط الإنسانيّ. نُقدِّر القِيَم على قدر شعورنا بنزعتنا إلى القيمة المطلقة: الله. إنَّ صحّة الروح هي الإيمان بالقِيَم وبالقيمة المطلقة[٤٠].

جاك ماريتان (١٨٨٢-١٩٧٣): الطرق إلى الله هي الخبرة التي حصل عليها المرء في اختيار الخير، وشهادة أصدقاء الله أي الصوفيِّين. ومراجعة طرق توما الأكويني الخمسة الشهيرة يُقام بها في ضوء اكتشافات العِلم الحديث. يُضاف إلى ذلك أنّ ماريتان يعرض طريقًا سادسًا: طريق تجربة الحَدْس الذي يؤلِّف جانبًا كبيرًا من التفكّر الجديد[٤١].

أوغستو غوتسو Augusto Guzzo: أُستاذ في جامعة طورينو. العقل

---

(٣٧) *Atene e Gerusalemme.*

(٣٨) *Il senso dell'atto creatore*, 1916; *Spirito e libertà*, 1934; *Cinque meditazioni sull'esistenza*, 1936.

(٣٩) *De l'Etre; De l'Acte.*

(٤٠) *Introduction à la philosophie*, 1925.

(٤١) *Alla ricerca di Dio*, trad. it., 1972.

هو في جوهره خُلقيّة يقودها مثال أعلى شامل موجب لكنَّ الإنسان ليس مضطرًّا اضطرارًا جسمانيًّا إلى العمل به. في هذا المثال الأعلى الخُلقيّ يشعر الإنسان بوجود الله وضرورته(٤٢).

لويجي باريسن **Luigi Pareyson**: أستاذ في جامعة طورينو. بوسع الفلسفة بل يجب عليها الاهتمام بالله، فتتبنّى طريقة تفكير توافق دخول التجربة الدينيّة، وتوضح معناها الإنسانيّ على وجه واسع، وتستخرج منها معاني شاملة. إنَّ مشكلة الشرّ، وهي المشكلة الفلسفيَّة الكبرى، لا تجد جوابًا عنها إلاَّ في شخص المسيح وآلامه(٤٣).

كورنليو فابرو **Cornelio Fabro**: أستاذ في جامعة بيروجيا. إنّ معنى كلّ حقيقة وقيمتها يجدان أساسهما الأخير في الحقيقة الأولى التي تتماثل مع الكيان المطلق، ولا يجد العقل البشريّ الراحة حتّى يستريح في هذه الحقيقة العُليا: الله(٤٤).

أنْخِل لويس غونزالس **Angel Luis Gonzalez**: أستاذ في جامعة نافارّا، پمپلونا. إنّ التفكُّر الفلسفيّ يُدرك الله على أنّه علّة الكون الأولى مع كلّ ما يتضمَّن هذا القول، أو يُدرك الكمالات والصفات التي يجب الإقرار بأنّها عائدة إلى الألوهيّة(٤٥).

عمّانوئيل لڤيناس **Emmanuel Lévinas**: أستاذ في جامعة

---

(٤٢) *Verità e realtà*, 1921; *Idealismo e cristianesimo*, 1836.

(٤٣) *Filosofia ed esperienza religiosa*, 1985; *La filosofia e il problema del male*, 1986; *Un discorso temerario, il male in Dio*, 1988.

(٤٤) *Introduzione al problema teologico*, 1953; *Introduzione all'ateismo moderno*, 1969.

(٤٥) *Filosofia di Dio*, 1988.

السوربون وأحد أشهر الفلاسفة المعاصرين. إنّ علم الأخلاق يتقدّم علم ما وراء الطبيعة في المقدرة على الكشف عن الله. إنّ وجه الآخر أو الغَيريَّة، بالشريعة الخُلقيّة التي يُظهرها الله لنا، ترجعنا إليه(٤٦).

أوغستو ديل نوتشه Augusto del Noce (+ ١٩٨٩): أستاذ في جامعة روما. يُقسم تاريخ الفلسفة الحديثة إلى تيّارين كبيرين: الاتّجاه الدينيّ والاتّجاه الإلحاديّ. ويجد هذا الأخير في الماركسيّة التعبير الأكثر تماسكًا وكمالًا. ولهذا السبب يدفع إخفاق الماركسيَّة الحاضر إلى العودة إلى الاتّجاه الدينيّ(٤٧).

ويصل أيضًا إلى الله كلٌّ من المفكّرين عبر فلسفاتهم: كارل لوفِتّ (ألمانيا) Karl Löwitt، وبول ريكور Paul Ricœur (جامعة السوربون)، وفيتّوريو ماتيو Vittorio Mathieu (طورينو)، ولويجي ستيفانيني Luigi Stefanini (جامعة پادوفا)، تيودوريكو مورتّي كوستانتسي Teodorico Moretti Costanzi، وتينا منفريدي Tina Manfredi، وموريتسيو مالاغوتي Maurizio Malaguti (بولونيا)، وأنطونيو پادوڤاني Antonio Padovani (پادوفا)، وغيرهم.

---

(٤٦) *Totalité et infini*, 1961; *Autrement qu'être*, 1978; *De Dieu qui vient à l'idée*, 1982.

(٤٧) *Il problema dell'ateismo*, Il Mulino, Bologna, 1964.

٦ - الهندوسيَّة والحُلوليَّة

إذا كان كلّ شيء الله، فما من شيء الله

إنّ الإيديولوجيّات التي أدَّت بالمجتمع الغربيّ إلى أزمة القيم الحاضرة مؤسّسة على الحلوليَّة والإلحاد. فالإلحاد والحلوليَّة هما نسيبان قريبان. ومن الواضح أنَّه إذا كان، في وسط العالم الماديّ، الإنسانُ هو الله، فلا وجود لله.

فالإنسان، بحسب وحي المسيح، قد هيّأه الخالق ليكون مشاركًا في طبيعة الله، باتّباعه التعاليم وبلوغه الاشتراك الكامل في الحبّ مع الله. لكنّه بعيد جدًّا من أن يكون كذلك الآن. وهذا الأمر ظاهر للعيان.

تبرز اليومَ عدّة بِدَع ذات ميول حلوليَّة: الكون هو الله وأنا جزء منه. كي يتغلّب الإنسان على الألم، يجب عليه أن يعي قيمته الإلٰهيَّة. كلُّ شيءٍ حَسَن. ولا وجود للخطيئة.

إنَّ كلمة «بانتيسم» (الحلوليَّة) مشتقّة من كلمة «پان» اليونانيّة ومعناها «الكلّ»، «وتيوس» أي «الله». كلّ شيء هو الله. إنَّ القيمة العُليا التي منها تأتي جميع القِيَم الأخرى هي: الكون والطبيعة والإنسانيّة. ويُشار بذلك إلى حقيقة تُفهم على أنّها مكتفية بذاتها، ولها في ذاتها تفسيرها الخاصّ، وتخلق نفسها بنفسها، وتخلق

شرائعها فهي إذًا إلهيّة، ولا تحتاج إلى أيّ خالق يعلوها ويكون خارجًا عنها.

الإنسان عابد الطبيعة ونفسه: هذا جوهر عبادة الأصنام، وجوهر كلّ حلوليّة قديمة أو حديثة: الإلٰهة - شمس، الإلٰهة - أرض، الإلٰهة - حرب، الإلٰه - جنس، الإلٰه - ربح، الإلٰه - حزب، الإنسانيّة - الله. هذا جوهر كلّ خطيئة: أُعيِّن أنا بنفسي الهدف الأخير والغاية الأولى من حياتي. ويرمز إليه الكتاب المقدَّس في الصفحة الأُولى بثمار معرفة الخير والشرّ، وهي أن أُقرِّر ما هو خير لي وما هو شرّ. «تنفتح أعينكما وتصيران كآلِهة تعرفان الخير والشر» (تك ٣/ ٥).

إنَّ الحلوليَّة والإلحاد والخطيئة هي الجهاز الكهربائيّ الذي يزعم أنّه يعمل من غير أن يتعلَّق بالمولِّد. هي جهاز التلفزيون الذي يريد بثّ الصور من غير اتّصال بالكاميرا. هي الإنسان الذي ينوي أن يصير الله من غير توجيه الذي هو الله ولا عونه.

قبَّعة فارغة تخرج منها أرانب

تناقضات الحلوليّة

خلق الله، بحسب كشف المسيح، الطبيعة والإنسان، وقد أفسدت ذنوبٌ بشريَّة كليهما. فالله موجود في الطبيعة وفي الإنسان، لكنَّه ليس هو الطبيعة ولا الإنسان. أن نعبد شخصًا كاملًا يقيم معنا في منزلٍ مهدّد بالانهيار، ونسأله مساعدتنا على ترميمه، لا يعني عبادة البيت المهدَّد بالسقوط.

لقد رأينا وأكّدنا بالحجج أنّ تاريخ العالم لا يجري بفعل المصادفة البحت، بل يوجِّهه نقيض المصادفة وهو، في آخر تحليل،

إلٰه الديانات. تؤكّد الحلوليّة أنّ «نقيض المصادفة» هذا لا يعلو العالم، لكنّه هو والعالم ذاته شيء واحد.

فلنفكّر في أنّ نقيض المصادفة هذا الذي نظّم أوّل ڤيروس وجاء به إلى بيتهوڤن Beethoven وأينشتاين لا بدَّ له على أقلّ تقدير من بلوغ كمال ذكاء هذين الرجلين. كتب الفيلسوف الفرنسيّ المشهور كلود تريسمونتان Claude Tresmontant: «إنّ الشكل المنظّم الذي يحمل المادّة حتّى تصير المادّة المنظّمة المفكّرة، هو على أقلّ تقدير، يساوي النتيجة العظمى التي تحصل عليها، أي إنّها وعلى أقلّ تقدير شخصيّة واعية تفكّر مثل الإنسان لأنّها ولدت الإنسان. هذا يعني أنّه يجب أن يُسلَّم لها، على أقلّ تقدير، كلّ ما يعود إلى الإنسان، الشخصيّة والتفكّر»(١).

يُواصل تريسمونتان كلامه فيقول: «يرى أتباع الحلوليّة أنّ الذكاء الحالّ في العالم، والمطلق الذي يعمل فيه، **يُحْدِث نفسه** وهو يُحْدِث العالم. إنّه يصير ما يحقّقه. إنّ علم نشأة الكون هو علم نشأة الله، وتطوّر الطبيعة هو تطوّر الله نفسه. فالمطلق هو إذًا غير مكتمل في البدء، وهو يبتدع نفسه بالتدرُّج. **لم يَصِر بعدُ** وعيًا ذاتيًّا على مستوى المادّة الصرف، ولن يصير كذلك إلّا بابتداعه الإنسانيّة»(٢).

أثبت تريسمونتان في المؤلّف المذكور نقائض الحلوليّة على هذا النحو:

أ - **يأتي الكثير من القليل**: كان الله، في رأي أتباع الحلوليّة، قبل

---

(١) C. TRESMONTANT, *Essai sur la connaissance de Dieu*, Ed. du Cerf, Paris, 1959, p. 107.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٨.

أن يعطي الحياة والذكاء أصلهما مادّة صرفًا. فقد كان الأمر هكذا منذ الأزل، طوال مليارات لا نهاية لها من العصور.

ينطوي هذا الأمر على ما هو غير معقول، لأنّ المادّة بدأت من غير أيّ علّة ومن غير أيّ هدف، سار تطوّرها منذ تلك اللحظة، وسارت طوال مليارات من السنين دائمًا في الاتّجاه نفسه من التقدّم والاكتمال، ودائمًا من غير خطّة ومن غير أيّ فكر يتناول الهدف الذي يجب إدراكه، وتصرّفت تصرُّف الأذكياء، من غير أن تكون ذكيّة، وعملت بقوانين طبيعيّة موجّهة إلى بناء أجسام حيّة إذ لم يكن لها أقلُّ إمكان لعمل ذلك. فالمادّة أعطت نفسها ثروة عظيمة لم تملكها ولم تتلقَّها من كائنات أخرى. فازت البقرة الحلوب بشهادة الدكتوراه وبجائزة نوبل للفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء. أليس هذا الأمر معجزة لا تُصدَّق وتفوق معجزة الخلق؟

القول إنّ المادّة كافية من تلقاء نفسها لتؤدّي حساب حالتها، وتطوّرها إلى مراحل أكثر تعقيدًا، هو قولٌ زائف. إنّه القول بأنّ الكثير كافٍ لشرح توليفات معقَّدة وقد اندمج فيها وهي تقوده. وهكذا يُزعم شرح الكثير بالقليل(٣).

ب - **ذكاءات متنوّعة ومتعارضة**: ليس العالم كائنًا واحدًا، بل مؤلَّف من مليارات الكائنات المتنوّعة، وبين الذين يتمتّعون بالذكاء أُناسٌ مستقيمون وأُناسٌ غير مستقيمين، وأُناسٌ يُحسنون معاملة الآخرين، وأُناس أشرار. لو كانت الذكاءاتُ البشريّة الذكاءَ الوحيد الذي يدير العالم، لكان وجب عليها أن تفكّر جميعها وتكرّر الروح الوحيد والفكر الوحيد الكامنين في الذكاء الكونيّ الواحد.

---

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٧.

ويصادف على عكس ذلك قدر كبير جدًّا من الذكاءات تختلف كثيرًا في ما بينها، وهي حرَّة، لا يمكن توحيدها على الإطلاق في بنية واحدة لأساس مشترك»[٤].

يكون الشرّ جزءًا من الله مثل الخير، والجريمة تأتي منه مثل الحبّ، ويصبح معتقل أوشڤيتز Auschwitz إلهيًّا مع الناصرة، ويصبح المعذِّبون اللهَ مثل القدّيسين.

ما من شكّ في أنَّ إلٰهًا كهذا لا يستحقّ العبادة.

ج - إلٰه روتينيّ ورتيب: بحسب أتباع الحلوليَّة، بطبيعة الأمر، تحظى الطبيعة في الوقت الحاضر بالذكاء والطرافة والإبداع، على قدر ما عند الإنسان. ذلك يُدهشنا لأنّها تتصرَّف منذ مليارات السنين أي منذ أن درس الإنسان قوانينها، **تصرّف آلة على الإطلاق**. وإنّه لأمر يدعو إلى الاستنكار أنّ هذا الكائن الكامل الفائق الذكاء، والفائق النظام الأمين للقانون، لا يبدِّل تصرّفه عندما يؤدّي حفظه القانون إلى كارثة. لو كان شخصًا لوجب علينا بدل أن نسمّيه إلٰهيًّا، أن ندعوه قاسيًا قساوةً وحشيَّة، راسخًا بعناد في عاداته. وهو، على العكس، آلة - مثال تدعو إلى الاستغراب. ففيها ذكاء، ولكن من خلال ذاك الذي بناها، وجعل فيها قوانين صالحة لمعظم الحالات.

إنّ الكوارث الطبيعيّة لدليل ساطع على أنّ الطبيعة هي إنسان - آليّ (robot) ولا معنى لها، إلّا بالنظر إلى الخير العامّ وبصرف النظر عن الحوادث المفردة.

د - كتب ڤيتّوريو ماركوتسي: إنَّ الغرائز تأتي في أحيانٍ كثيرة بأعمالٍ معقَّدة جدًّا تجري بإحكام ودقّة عجيبين، لتصل إلى هدفٍ

---

(٤) M. PARISI, *Dal cosmo a Dio*, Ed. La Parola, Roma, 1980, p. 67.

معيّن قد يكون: بناءَ عشٍّ، حماية السلالة، وحفظ حياة صاحب الغريزة. جميع هذه الأعمال الغريزيّة مثل أعمال الحياة النباتيَّة هي غائيَّة على نحو عال، ولا يمكن تفسيرها من غير التسليم بوجود الذكاء لكنّ الذكاء ليس في الطبيعة[٥].

ذلك بأنّ الذكاء لو كان في الطبيعة أو في الحيوان الذي يقوم بالعمل الغريزيّ، لكان هذا العمل رهنًا بالخبرة، في حين أنّه، على عكس ذلك، يتقدّمها. يظهر ذلك من أنّ معظم هذه الأعمال تتمّ منذ الولادة من غير أن يكون لها الوقت الكافي لتتمتّع ببعض الخبرة.

يعرض ماركُوتْسي كثيرًا من الأمثلة مأخذوة من حياة الحيوانات ويواصل القول: «إنّ الخبرات الشخصيّة وهي ثمرة الذكاء الشخصيّ لا تنتقل بالوراثة. إنَّ الغرائز هي وراثيّة: لذلك السبب فهي ليست ثمرة الذكاء الفرديّ كما أنّها ليست ثمرة الأجداد. هذا الدليل كافٍ لإثبات أنّ الخبرة ليست في الحيوان أو في الطبيعة».

تضاف إلى ذلك «أنّ العمليّات الغريزيّة تبقى في جوهرها متساوية حتّى في الأحوال التي تجعلها غير مُجدية أو مؤذية تمامًا، وإن كان الحيوان قادرًا على تكييفها تكييفًا جسمانيًا»، فهي إذًا «ليست ثمرة ذكاء الطبيعة أو الأجسام التي تأتي بها».

وهناك برهان آخر وهو أنّ الحيوانات لا تتقدَّم. «فلو كانت الغرائز ثمرة ذكاء الطبيعة أو فطريَّة في الأجسام، لوجب الاستنتاج أنّ هذا الذكاء عجيب جدًّا. بالفعل، فالأجسام تحلّ مشكلات

---

(٥) V. MARCOZZI, *Il problema di Dio e le scienze*, 10ª ed. aggiornata, Morcelliana, Brescia, 1974, p. 137.

عسيرة جدًّا لم يحلّها الإنسان إلّا بعد آلاف السنين من البحث. يخطر بالبال المشكلات الشديدة التعقيد كمشكلات التشريح، والرياضيّات، والهندسة التي حلّتها بكثير من الطبعيّة والأناقة حشائش الرمال، والسوس، والنحل، والعنكبوت الناسج».

فمع مَثل هذا الذكاء الخارق يمكن حدوث تقدُّم كبير، أو على أقلّ تقدير، وقوع تحسينات لأعمال تلك الحيوانات. وعلى العكس، فإنّ جميع الحيوانات التي دون الإنسان، منذ الزمن الذي فيه بدأت تقوم بأعمالها الغريزيّة إلى اليوم، لم تجد شيئًا جديدًا ولا تقدَّمت خطوة واحدة[٦]. إنّ الطبيعة، شأن كلّ آلة، تعمل على وجه كافٍ لتدلّ على أنّها طبيعة ذكيّة، لكنّها تُكرِّر على وجه كاف ومقيَّد بقوانين صارمة، لِتُثبت أنّ السبب ليس هي بنفسها.

الحلوليَّة تقتل المحبّة

في الحلوليّة تعمل العبادة الذاتيّة، والمحبّة الذاتيّة، والإدارة الذاتيّة، والفداء الذاتيّ. لا يُحَبّ فيها الإنسان ولا يُحِبّ آخرَ يفوق نفسه: إنّه يُحبّ الذات الكبيرة، الإنسانيّة. إنَّ القيمة الحقيقيَّة ليست الله، إنَّها الآخرون.

لا يقود الإنسان روحٌ سامٍ نحو سعادة تفوقه، بل كلُّ امرئ وحده أو مع آخرين يختار هدفه الأعلى.

لقد سقط في الشرّ فليس له أحد يخلِّصه: إنّه يخلِّص نفسه بنفسه، أو يخلِّصه أُناسٌ آخرون أو لا يُخلَّص. الإنسانيّة وحيدة، متروكة لقواها. فلا يدٌ كبيرة ترفعها، بل هي ترتفع إلى العُلى بشدِّ سيور أحذيتها.

---

(٦) المرجع نفسه، ص ١٣٨-١٤٣.

ليس لمشكلة ألم الأبرياء الكبرى في الحلوليّة فتحةٌ من نور، لأنّ الشرّ في الحلوليّة مظهرٌ من مظاهر الله. إنّه إلٰه ذو حكمة قليلة جدًّا، جبّار، حنون، ويبدو خليقة ضَعُف نفوذُها.

هذا سبب يجعل الإنسان الحديث يتقبّل الحلوليّة، وقد لخّصه عالم لاهوت حديث اسمه كلود داجَنس Claude Dagens: «يودّ الإنسان الحديث أن يكون حرًّا. وقد يكون الله الخالق خطرًا يحدّ حرّيّة الإنسان ويبطلها»(٧). إذا فُهمَت الحرّيّة فقدان قانون سير سواء لجميع الناس.

وفي الحلوليّة، على عكس المحبّة ذات القطبين (أنا والله)، حيث لا تمييز بين الله ونحن، فما من شيء إلّا محبّة أنفسَنا. (أنا وأنا).

لمّا كانت الطبيعة هي الله، فالله هو الذي يُحدث الكوارث والمآسي. فالسيّئات والفظائع تنسب دائمًا إليه، فإمّا إلى جهله وإمّا إلى سوء قصده.

إنّ التخلّف والأنانيّة البشريّة يعودان هما بنفسيهما إلى الله الذي لم يتطوّر بعدُ تطوّرًا خُلقيًّا.

حقًّا، لو كان للعالم والإنسان أن يُعترف بهما على أنّهما الإلٰه الواحد الحقّ، فلا عجب أن يكون في العالم هذا العدد الكبير من الملحدين.

الـ«بهاكتي» (Bhakti) والمحبّة

إذا كانت الحلوليّة المحض تساوي، كما رأينا، الإلحاد لأنّها

(٧) ذكره فيتّوريو مسُّوري في «Vivaio»، *Avvenire*، ١٨/٧/١٩٨٩، ص ١٢.

لا تنظر إلّا إلى العالم المادّيّ وتجعل منه إلٰهها الذي يخصّها، فهناك، على عكس ذلك، أشكالٌ من الحلوليَّة الظاهرة قد تقترب من تعاليم المسيح. ففي الهندوسيّة تيَّار يعتقد أنَّ الله (برهمان) (Brahman) هو كلّ شيء، وأنّ كلّ شيء هو الله. «في الحقيقة، في البدء كان هذا العالم برهمان. لم يكن يعرف سوى نفسه... ولذلك صار كلّ شيء... إنّ الذي يعرف أنّه برهمان يصبح كلّ شيء»[^8] غير أنّ هندوسيّين آخرين يتبعون تعاليم رامانوجا (Ramanuja). إنّهم يُفكِّرون في أنّ الحلوليّة تجعل عبادة الله مستحيلة لأنّه ما من أحد يمكنه أن يعبد نفسه. ولهذا السبّب يُفكِّرون، مثلنا نحن المسيحيّين، في أنّ الله والإنسان حقيقتان متميِّزتان وإن كانت المحبّة (الـ«بهاكتي») تنزع إلى توحيدهما، وإلى أن تجعل الإنسان يستمتع بجميع خيرات الله.

في الـ «بهاغاڤاد جيتا» (Bhagavad Gita) ينمو هذا الميل في أُلوهيّة ناضجة على وجه تامّ: إنَّه استسلام الـ «أنا» المفردة استسلامًا تامًّا للربّ المحبّ القدير على كلّ شيء. إنّ هذا الكتاب المقدَّس يعلِّم طريق الإيمان الواثق «سرادّها» (Sraddha) والمحبّة «بهاكتي» التي تَهب نفسها: إنّهما يحرِّران الإنسان من الخطيئة ويوصلانه إلى طمأنينة النفس ويدخلانه في سلام الربّ الأبديّ.

إنّه شيء يشبه ما قاله بطرس: «لتصيروا شُركاء الطبيعة الإلٰهيّة» (٢ بط ١/ ٤). وما قاله يوحنّا: «سنُصبح أشباهه لأنَّنا سنراه كما هو» (١ يو ٣/ ٢). وما قاله يسوع نفسه: «في ذلك اليوم تعرفون أنّي في أبي، وأنَّكم فيَّ، وأنّي فيكم» (يو ١٤/ ٢٠).

[^8]: (٨) *Brihad - aranyaka Upanishad*, 1, 4.

ليس الله البحر. إنّه في البحر، يتلألأ
مثل القمر في الماء أو مثل شراع
أبيض يظهر...
فَلْيجرِ النهر الصافي
نهر المحبّة، الذي يجري أبدًا
فليجرِ في قلبي. جفِّف،
يا إلٰهي، ينبوعًا عكرًا،
ينبوع إيمانٍ فارغ من المحبّة.

أنطونيو ماتشادو رويز
Antonio Machado RUIZ

٧ - مشكلة الشرّ الكبرى

الرواية البوليسيَّة الكَوْنيَّة

رَوت فرنسواز ساغان Sagan في كتابها مع أجمل ذكراي أنّها في سنّ الرابعة عشرة شهدت مصادفة قدّاسًا في الصباح. وكان بجانبها صبيّة تشهق وهي في مثل تلك السنّ، وقد قُضيَ عليها بملازمة السرير دائمًا على الراجح. وشعرت روائيَّة المستقبل بالاشمئزاز من إله يأذن بذلك. وذكرت في كتب أُخرى أنّها رأت في الوقت نفسه وثيقة على داخاو Dachau، فاكتشفت بعد الشقاء البريء، الشراسة ونتائجها الفظيعة. فعزمت أن تنفي الله من حياتها[١].

منذ أوقات ما قبل التاريخ وُجدت جثّة في خزانة الكون، وأُقيمت دعوى لا تزال قائمة بعد. وتشترك فيها الإنسانيَّة كلُّها وتنقسم فئات وأحزابًا وهي في مناقشات وخطابات يوميَّة.

كيف تُفسّر آلام مَن يُعاني نتائج الشرّ من غير أن يكون قد ارتكبه، والشقاء البريء، والأمّ التي فقدت ولدها في زلزال، والمعوق الذي وُلد بذكاء ناقص وأطرافٍ مشوَّهة، ومصير مَن هو أعمى، أبكَم، أصمّ؟ هناك مَن يرون أنّ الله هو المتّهم الرئيس.

---

(١) F. SAGAN, *Avec mon meilleur souvenir. Bonjour tristesse. Aimez-vous Brahms?*

أليس هو على كلّ شيء قديرًا؟ فكلُّ شيء إذًا يأتي منه. فما من ورقة تسقط من دون أن يشاء الله ذلك.

يرى الملحدون أنّ الأمر الوحيد الذي يثبت براءة الله هو أنّه لا وجود له. يقولون: «الشرُّ وليدُ المصادفة وسوء الطالع، كما أنّ الخير وليد المصادفة وحسن الطالع».

واعتقد كثير من الناس أو سَلَّموا بالقول إنّ جميع الشرور تأتي من خطيئة حوّاء وآدم Adam، أو من پَنْدُورا Pandore التي فتحت الإناء المحظور، أو من الشيطان أو، في رأي المانويّة، من إلٰه الشرّ وهو في حرب دائمة مع إلٰه الخير.

يصف الكتاب المقدَّس الشرّ بأنّه نتيجة خطيئة جميع الناس المتكبّرين الذين يريدون أن يكونوا آلهة أنفسهم، أي مكتفين بذاتهم وغير مبالين بالرزق الإلٰهيّ. لقد ثبت بتفسير الكتاب المقدَّس في السنين الخمسين الأخيرة أنّ ما ورد في سفر التكوين (عن الخطيئة الأصليّة)، يبغي أن يكون وصف خطيئة الإنسان ونتائجها وصفًا رمزيًّا بعامّة، وبخاصّة خطيئة عبادة الأوثان، ما يُقال له في أيّامنا الإلحاد والدنيويّة، وقد كان في الوجود دائمًا بصِيَغٍ وأقدار مختلفة.

إنّ الشرّ، في نظر كثير من المؤمنين، سرٌّ مستعصي الحَلّ، وهم يتقبّلونه بإيمان أعمى في عدل الله ورحمته، تصحبه تجربة فقدان الإيمان.

الشرّ يبقى، على عكس ذلك، سرًّا. لكن عندما يكون العقل صافيًا، يُفكِّر ويتأمَّل في الإنجيل، نستطيع أن نلمح بعض الأسباب التي تدعو الله إلى السماح به من أجل ذويه - القدّيسين والأبرياء - إذ يصير هو نفسه الضحيَّة الأُولى (يسوع المسيح).

تصوّر الله بعد معتقل أوشڤيتز

في أوَّل تشرين الثاني العام ١٧٥٥ زلزلت الأرض في لشبونة Lisbonne، فَخُرِّب نصف المدينة ومات ثلاثون ألف شخصٍ. وبعد هذه الكارثة بعام جعل ڤولتير Voltaire في قصيدة شهيرة: **قصيدة على كارثة لشبونة**، من هذا الزلزال قضيَّة فلسفيّة، إذ عدّه أوضح تكذيب بتفاؤل لايبنتز السائد عندئذ في أوروبّا. إذ لا يمكن بعده مواصلة القول إنّ هذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة، والقول إنّ «كلّ شيء هو حسن» يجب حذفه من الحاضر وقذفه في المستقبل. «سيكون كلّ شيء حسنًا ذات يوم، هذا هو رجاؤنا، كلّ شيء هو حسن اليوم، هذا هو الوهم». في نظر ڤولتير يبقى الرجاء وحده ليسند الإيمان بالعناية الإلٰهيّة، وقد جعلته عسيرة ملاحظة توزيع الخيرات والمصائب في العالم توزيعًا غير منصف.

إنّ فيلسوفًا معاصرًا مرموقًا لويجي پاريسُن يصف مشكلة الشرّ بقوله: إذا كان يكفي الطبيعة لتظهر للإنسان وجهها القاسي في لشبونة أن تفرض نمطًا جديدًا في تصوّر الإنسان اللاهوت، فماذا يجب أن يُقال في الهاوية من الشرّ التي قذفت فيها الإنسانيّة في أثناء الحرب الأخيرة وما رافقها من حوادث المحرقة L'Holocauste، وفيها أنزل الإنسان بالإنسان آلامًا شديدة بخبث شيطانيّ؟ في لشبونة عانى الإنسان ما لا يُطاق من الألم. في أوشڤيتز أُضيف إلى ذلك ما لا يُطاق من أعمال السوء التي قام بها الإنسان. من الواضح أنّ الذنب كلّه كان ذنب الإنسان ومع ذلك وقع اللوم على اللاهوت الذي يُسأل بجزع: كيف أَذِنَ إلٰه يقول إنّه رحمان رحيم، بمثل هذه الفظائع، ويشهدها من غير أن يتدخَّل. في ما يروي إسحق باشڤيس سِنغِر Isaac Bashevis Singer أنَّ يهودًا نجوا في أحيان كثيرة من

المحرقة وهم يصرخون، وقد هالهم الأمر: «لا وجود لله» أو، «الله قاتل».

وواصل باريسن الكلام بقوله: «ولكنّ المسألة معقَّدة جدًّا فلا يمكن تركها لحلّ سريع يعود إلى الكفر أو الإلحاد». وهناك فيلسوف ذو شأن عظيم هانس يوناس Hans Jonas تلميذ هايدِغر في ألمانيا ووايتهِد Whitehead في أميركا، ومؤلِّف أخلاقيّة المسؤوليّة، تعرّض لخطر الجواب بمحاولة عَرَضها عرضًا محكمًا كارلو أنجلينو Carlo Angelino[٢]. عرض يوناس المشكلة لأنّه يهوديّ وفيلسوف. كونه فيلسوفًا، فهو يُطالب للفكر بعمل علم لاهوت فلسفيّ يجابه، بعبارات من الحاضر، مشكلة الشرّ في مظهره المزدوج: الذنب والألم.

«أيُّ إلٰه استطاع أن يأذن بالمحرقة؟ ينطلق جواب يوناس من حجّة أبِقور Epicure وهي، في عبارات متنوِّعة، تجتاز تاريخ علم اللاهوت، من لكتانس Lactance إلى لوثر Luther، ومن الفلسفة إلى هيوم Hume وشوپنهاور Schopenhauer، وتستند إلى مأزق ذي حدَّين: لا يمكن أن يكون الله في الوقت نفسه حنونًا وقديرًا على كلّ شيء، لأنّه في وجه الشرّ الهائج، فإمّا أنّه قادر على إزالته ولا يريد ذلك، وإمّا أن يريد إزالته لكنّه غير قادر على ذلك. إذ يبدو مستحيلًا الجدال في رحمة الخالق، بحيث لا يبقى سوى نكران قدرته أو حصرها. فالنتيجة هي أنّ الله، إذا لم يتدخَّل في أوشڤيتز، فلأنَّه لم يكن في حالة تمكّنه من فعل ذلك.

إنّ مَن يؤكِّد وجود الله ولربّما حتّى الذي يشكّ في وجوده،

---

(٢) H. JONAS, *Il concetto di Dio dopo Auschwitz*, Il Melangolo, Genova, 1989.

سيجد نكران قدرته المطلقة هذا مُحَيِّرًا. لكنّ فكر يوناس، إذا فُسِّرَ بمعناه الحقيقيّ، يقوم على الإيمان بأنّ الله بعدما صنع الإنسان حرًّا مثله، جعل بذلك لنفسه مصير ألم. إنّ عمل الخلق هو بنفسه تضحية، لأنَّ الله بجعله مكانًا للإنسان ولحرّيّته، أقام حدًّا لنفسه وقيَّدها. . . يُضاف إلى ذلك، أنّ الإنسان بما له من حرِّيَّة قادرة على التقبّل أو الرفض، يستطيع أن يناقش اللاهوت، ولا يكون الله مَن لا يقبل هذا الخطر أو يعرِّض نفسه عمدًا لمعارضة الإنسان.

في هذا الألم يكمن حدُّ القدرة الإلٰهيّة. إنّ القدرة الإلٰهيّة ليست مُكرهة حتّى إنّها تنجح نجاحًا منقطع النظير. فهي مُقنعة لأنّها تعترف بحرِّيَّة الإنسان، وفي حين تعرض الخير، فهي على أهبة الاستعداد لتلقّي منه الشرّ. ولا يعني ذلك أنّ الله «يأذن» بالشر، بل بدقيق العبارة يخضع له. إنّ قدرته لا تعمل إلّا على سبيل «الصبر». فالله برصانة كلِّها تحفُّظ يرعى حرِّيَّة الإنسان حتّى الخاطئ، بمعنى أنّه وهو يعترف بالحرِّيَّة، يترك له تبعة الشرّ كلّها[٣].

ليس الله فاعل الشرّ، بل هو مثلنا ضحيَّته

ليس الله قديرًا على كلّ شيء بصعق الأشرار وتجنُّب الكوارث، بل بمساعدة الأبرار على جني الفائدة الروحيّة من الأشرار ومن الكوارث. كتب جان دلومو: «رأى الناس مدّة طويلة علامة الله في غير المألوف والخارق والعجيب. لقد غيَّر انطلاق العلم نظرتنا. للتوجّه إلى الخالق، ثمَّة عمل المسارات الطبيعيَّة المعقَّد تعقيدًا لا حدَّ له، حتّى إنّه يجب قلب حجج «معلّمي الشكّ»، - ماركس ونيتشه وفرويد وورثتهم - الذين ظنّوا أنّهم يستطيعون

(٣) L. PAREYSON, «La divina impotenza», dans *Il Giornale*, 25/7/1989, p. 3.

تقليص، بل إزالة «مجال الإيمان». وهو، على عكس ذلك، اتَّسع أمام أنظارنا(٤).

كانت شعوب الماضي تنظر إلى اللاهوت على أنّه قدرة تُدير العالم بمعاقبة الأشرار ومكافأة الأبرار في هذه الحياة. لقد كان الوحي ثورة حقيقيّة إذ أوحى بفكرة تواضع الله الأساسيَّة.

قلَّ أن تظهر القدرة الإلٰهيَّة بهذه الاستثناءات المُبيّنة قوانين الطبيعة، فهي على عكس ذلك تظهر ظهورًا متواصلًا بالعمل في الداخل لخير المؤمنين مع هذه القوى الخفيّة التي أدرجتها في الروح، وهي الثقة، والصبر، ومكافحة الشدائد التي لا تكلّ، ومعاضدة المتألِّم.

وواصل دلومو الكلام بقوله: «ما كان حَدْسًا في العهد القديم أصبح مستمرًّا في العهد الجديد: فالشبيه بالإلٰه، والمتواضع، والضعيف يتلاقون منذئذٍ. وُلد ابن الله ليلًا في إسطبل... وكاد جنود هيرودس أن يقتلوه. ثمّ عاش ثلاثين عامًا حياة خفيّة. وبلغت صورة الله المألوفة ذروتها في آخر أحداث حياة يسوع، وقد برزت في غسل الأرجل يوم الخميس المقدَّس، ثم القبض عليه، فسوق «الحمل الإلٰهيّ» إلى الموت(٥).

كتب مولتمان Moltmann: «إدراك الله في المصلوب يقتضي ثورة في فكرة الله»(٦).

وقد لاحظ عمّانوئيل لڤيناس: «إنّ فكرة حقيقة تظهر في

---

(٤) J. DELUMEAU, *Ce que je crois*, Bernard Grasset, Paris, 1985, p. 53.

(٥) دلومو، المرجع السابق، ص ٥٨-٥٩.

(٦) J. MOLTMANN, *Le Dieu crucifié*, Cerf, Paris, 1978, p. 178.

تواضعها، فكرة حقيقة مُضطَهَدة، هي وجه العَظَمة الممكن الوحيد (وهذا يعني أنّ يسوع لو لم يُضْطَهَد، لما كان الشاهد لله العظيم). إظهار نفسه على أنّه المتواضع، وحليف المغلوب، والفقير، والمُضْطَهَد يعني حقًّا، عدم الدخول في النظام... التواضع يزعج إزعاجًا تامًّا... ويُعرّض للاضطهاد والإذلال اللذين هما وجهان للحقيقة(٧).

كتب فرانسوا ڤاريّون François Varillon: «كلّ تاريخ الوحي هو التحوُّل التدرّجيّ من الإلٰه الذي يُعدّ قدرةً، إلى الله الذي يُعبَد على أنّه محبّة»(٨).

وصف ديتريش بونهوفر Dietrich Bonhoeffer في إحدى قصائده التي نظمها في السجن، صلاة المسيحيّين قائلًا:

«يذهب الناس إلى الله في بؤسه
فيجدونه فقيرًا حقيرًا، لا نار له ولا مكان،
ويرونه فريسة الخطيئة، والضعف، والموت.
المسيحيّون هم بقرب الله في ألمه»(٩).

إستنكار الله القدير على كلّ شيء الذي لا يخلّص الشهداء من التعذيب، يجب أن يتحوَّل إلى الإعجاب بالله، وهو بنفسه شهيد يُنشئ في الشهداء، بلغة باطنة خفيّة، عظائم روحيّة تفوق القوى البشريّة وتنتج اتّحادًا أبديًّا يربطه بهم.

---

(٧) E. LEVINAS, «Un Dieu homme», dans *Recherches et Débats*, n. 62, 1968, pp. 186-192.

(٨) فرنسوا ڤاريّون، **فرح الإيمان بهجة الحياة**، الطبعة الخامسة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٩.

(٩) D. BONHOEFFER, *Resistenza e resa*, Bompiani, Milano, 1969, p. 298.

ليس الله سوى محبّة. إنّه لا يقدر إلّا على ما تقدر عليه المحبّة. فصفات الله هي القدرة، والحكمة، والجمال، واللامحدوديّة، والسلام، والفرح حتّى في البذل، وهي صفات المحبّة عندما تكون بلا حدود.

هل اقتُحِمَ الجهاز الكونيّ؟

الإيمان أشبه بميدان البحث عند المفوَّض ميغري Commissaire Maigret: إذ لا يمكن بعد إثبات براءة الله في إذنه بالشرّ، ولكن لدينا بعض العلامات الحسنة للدلالة عليها.

كتب رالف والدو إميرسُن Ralph Waldo Emerson: «ما أراه يُقنعني بأن أثق بإلٰهي في ما لا أراه». تعبِّر هذه الجملة تعبيرًا جيِّدًا عن طبيعة الإيمان غير الأعمى والذي لا يرى رؤية تامّة.

أرى بعض الخير في العالم: النظام والغائيَّة في خطوط الطبيعة العريضة، الفضيلة والسكينة في قسم من الإنسانيّة حتّى في الأبرياء الذين يتألَّمون، الجمال، الأُمومات والأُبوّات المُحِبّة حتّى البذل، الحبّ العميق، البطولة، الرحمة، التضحية في سبيل مثال أعلى، السعي إلى العدل، وشريعة خلقيّة في داخل كلّ مَن لا يخنقها... كلُّ ذلك يبعث فيّ الثقة بخالقي، لأنّ القِيَم الإيجابيّة لا تأتي من قوى عمياء ومن المصادفة، بل تقتضي ذكاءً خيِّرًا عادلًا.

وعلى عكس ذلك، لا أرى دائمًا في هذا العالم انتصار العدل، والحقيقة على الغشّ والأنانيّة والاستبداد. فكثيرًا ما يكون عكس ذلك. فلا تُكافأ الفضيلة على وجه كافٍ بارتياح الضمير المستقيم، والأمراض تعذِّب شبّانًا وأشخاصًا أبرياء وتحطّم حياتهم، وكثير من الناس الأشرار يأذون أو يقتلون من غير عقاب أُناسًا أهلًا للمحبّة مخلصين.

إنّ توازن الحسابات الذي لا أراه لا يضطرّني إلى نكران وجود الصلاح والعدل الخلّاقين: ففقدان القِيَم قد يأتي من قوى عمياء وليدة المصادفة أو من عقول فاسدة، مُغايرة ومضادّة لذلك الذي جعل للقِيَم أصلَها. ليس أصل الشرّ هو نفسه أصل الخير.

ليست الشمس في الوقت نفسه سبب النور والظلمات. فالظلمات تأتي من غياب الشمس أو من عقبات تحجب إشعاعاتها. ولا ينشأ المرض من قوى حيَّة سليمة، ولا يعود سبب جهل التلميذ إلى الأستاذ القدير، أو لا يعود أصل البرد إلى النار. في كلّ مَثَل من هذه الأمثلة يتدخَّل عنصر خارجيّ: الشخص الذي يبتعد عن النور أو يُقيم جدارًا، العامل المرضيّ أو ما يدخله، التلميذ الذي لا يُصغي إلى المعلِّم، الشخص الذي لا يوقد النار أو لا يدنو منها.

فقد ترك الخالق حرِّيَّة الاختيار لاتِّباع شريعة الصحّة الخُلقيّة أو خنقها، لأنّه بمعزل عن هذه الحرِّيّة، لا تكون كرامة إنسانيّة، ولا قيمة روحيَّة، أو قيمة المسؤوليّة، أو المحبّة الصادقة والفضيلة الشخصيّة.

ولكن من الاختيار يمكن أن يأتي سوء الاستعمال، الرذيلة، اللؤم، والخبث. إنّ الله ينصح وينبّه ويحثّ في الداخل، لكن لا يُرغم.

إنَّ مَن يتَّهم الله بأخطاء جسيمة لأنّه خلق العالم، ينطلق من فرضيّة لم تثبت قطّ، وهي أنّ الناس طوال آلاف السنين، وبذنوب عظيمة، لم يخرّبوا العالم الذي خلقه الله من أجلهم. تُنتج الخطايا الأشدّ خطرًا واستمرارًا نتائجها في الـ ADN والوراثة الجينيّة، وقد تكون لها النتائج السلبيّة حتّى في الطبيعة الخارجيّة، كما يبدو أنّه توحي بذلك بعض الظاهرات الحسِّيَّة التي تؤيِّدها وثائق حسنة تعود

إلى الأرواح الضاربة. تنتج من ذلك قدرة النفس البشريّة الخفيّة على القوانين الفيزيائيّة التي يمكن أن يُعمل بها على وجه طبيعيّ إمّا للخير وإمّا للشرّ. يُحتمل كثيرًا أنّ الإنسان بعدما تلقّى جهاز الحياة طرح كتيِّب «التعليمات للاستعمال» جانبًا.

أجل، لو لم تكن الكائنات البشريّة سوى أشخاصٍ آليّين (Robots)، تحرِّكها غرائز غير قابلة لأن تُدار، لكان من الواضح أنّ تَبِعة كلّ ما يحدث في العالم تقع على الخالق وحده. لكنّ الأمور تبدو مختلفة عن ذلك: إنّ ميزة الإنسان، كما تؤكّده الفلسفة بأجمعها، حتّى الحديثة منها، وكما تثبته خبرتنا، هي أنّه يقرّر مصيره باختيارات حرّة. فإنّنا نختلف في ذلك عن سائر الحيوانات.

إنّ الحاسوب الذي لا يعمل لا يكون دائمًا دليلًا على عدم كفاءة الشركة المنتجة. فقد يكون أُسيءَ استعمالُه.

وكذلك الساقية الكثيرة الوحل لا تكون دائمًا هكذا لسبب يعود إلى الينبوع.

ففي حين أنّه لِخلقِ فتاة صغيرة في غابة مزهرة، لا بدّ من قوّة خلّاقة أعظم من قوّة بشريّة، إذ لا حاجة إليها على الإطلاق لقتل تلك الفتاة.

إنّ الشريعة الخُلقيّة تقابل هذه الكتيّبات التي تعطاها عندما تشتري جهازًا ما. إذ يُكتب فيها: «تعليمات وكيفيّة الاستعمال» أو «موجز المستعمِل» أو كذلك لأجل الأدوية: «العيارات».

أيكون من غير المحتمل إلى حدّ كبير بعد ذلك أنّ الذنوب الجسيمة التي ارتكبها كثير من أجدادنا (الخطيئة الأصليّة) وأُضيفت إليها ذنوبنا الشخصيّة فجّرت آلات الطبيعة البشريّة؟

أليس ذلك أمرًا ظاهرًا للعين المجرَّدة أن نصف المصائب التي على أقلّ تقدير نعانيها، ونحن الذين نحدثها وفي أحيان كثيرة بذنب يعود إلينا؟

حياة معذّبة بالطموحات أو الطمع في الكسب، وها هوذا الانفعال العصبيّ ومرض القلب، ومرض الكبد والأمراض العقليّة، وانهيار الحياة الحديثة، والوفيات قبل الأوان وقساوة القلب على أحوال الآخرين: فمن ذلك تأتي الخصومات والانزعاجات والمرارات والمنازعات والخيانات والزنى والقتل والمجازفات الأثيمة، وها هي ذي النكبات من جميع الأنواع. والشراهة في الطعام، والإسراف في التدخين إلخ... التي تؤول إلى كثير من «نكبات المصير». الطمع في المال وفي اللذّة الجنسيّة وها هوذا مجتمع يتفكّك. أنانيّات اجتماعيّة وسياسيّة سخيفة، والناس ينظرون شزرًا بعضهم إلى بعض، وهم متأهّبون لكي يأخذوا بخناق بعضهم بعضًا... ولا ننسى مرض فقدان المناعة المكتسبة (السيدا)؟

لِمَ لا نُسلِّم بأنّ الأخطاء البشريَّة قلبت النظام الذي أراده الخالق بإسقاط الناس في حكم قوانين فاسدة؟

إنّ إنسان يومنا يؤكّد اكتفاءه الذاتيّ المطلق عندما يقتضي الأمر اختيار الاتّجاه في السير، وهو يحتفظ بعد ذلك بأن يجعل الله مسؤولًا عندما يسقط في المستنقع.

ولكن الحكمة الإلٰهيّة تأذن بأن يُخالف الإنسان التوجيهات فيؤول به الأمر إلى المستنقع، لكي يتعلَّم اتّباع توجيهات الله فيصل هكذا إلى بيته.

مكافحة الشرّ تحرّك التطوّر الإنسانيّ

لا تعمل العناية الإلهيّة بمعجزات متواصلة كما كان من الضروريّ لو أرادت صون جميع الأبرياء من المصائب. إنّها تعمل بقوّة محرٌكة مستمرّة مُدرَجَة في روح الإنسان وهي: الثقة الأساسيّة، والشجاعة، ومكافحة الشدّة، والإيحاء بالمساعدة وطلب المساعدة. إنّها لا تعفي البارّ من الألم، لكنّها تدفعه إلى التغلُّب عليه، وهكذا يتقدَّم أخلاقيًّا.

ولذلك لا ينبغي لنا أن نخلط في قِدر واحدة الشرّ الخُلقيّ أي الاضطرابات، والكوارث، وأسباب القلق التي تسبّبها الأخطاء البشريّة، بالشدائد الناتجة من الطبيعة. إذ هي نوعان من الآلام المختلفة على وجه تامّ. فالنوع الأوّل هو في الوقت نفسه مؤلم وسامّ، يُسبِّب أمراضًا والتهابات في مركز الشخص أي الروح، وانعكاساتٍ شديدة في المشاعر والجسد. والنوع الآخر هو مؤلم فحسب ويُصيب الجزء الجانبيّ أي الجسد، والجزء الوسط أي المشاعر. لكن عندما نستعمل القوّة المحرٌكة التي حبانا الله بها ويزوّدنا إيّاها، فإنّها تصير حافزًا لارتقائنا إلى الكمال الروحيّ، والمشاركة في الخيرات الإلٰهيّة.

إنّ الشرّ الخُلقيّ يجعلنا نهبط، في حين أنّ الشدّة تحثّنا على الارتقاء.

فالإنسان في جريه لاجتياز حواجز التطوّر، وصل إلى أماكن وصول عجيبة بالنسبة إلى سائر الأحياء. فقد ربح كؤوس العقل، والتسلُّط على الطبيعة، والتضامن، والحضارة، والدين، والفضيلة الخُلقيّة، والبطولة، والعلم، والتقنيّة، والفنّ، والديموقراطيّة. وذلك كلّه لأنّ الخالق حباه بالنزعة إلى الأفضل، ولأنّه لم يلقَ الفرص السانحة وحسب، بل عقبات قاسية أيضًا.

إنّه لأمرٌ واقع: فالذكاء البشريّ في أثناء آلاف السنين ازداد بالتدرّج حذقًا في محاولته حلّ المشكلات المستعصية مثل: المجاعات، والقحط، والأوبئة، والأحوال الجوِّيَّة القاسية، والكوارث من جميع الأنواع. برز العِلم وتطوّر وقد حفزته خصوصًا المشكلات القاهرة. فالضرورة شحذت العبقريَّة (الحاجة أمّ الاختراع).

فالضرورة تشدِّد العزيمة وتقوّيها إذا ما استعمل الإنسان قوّته المحرّكة. فالثبات والصلابة والشجاعة وُلِدت لمجابهة العقبات التي كانت تبدو غير قابلة للتذليل.

أشرق الشعور الخُلقيّ، وتحرّك إحساس الإنسان بكرامته وتقدَّم في مكافحة الشدائد أو في القدرة المكتسبة على تحمّلها بسكينة، ومن غير أن يحسب نفسه مغلوبًا.

تفهُّمُ الآخرين والتعاون والمحبّة الأخويَّة نفسها نتجت عن اختبارات الماضي المؤلمة أو عن مجابهة مشتركة.

فَلِمَ تنفع الآلام إذًا؟ إنّها تنفع لتحثّ الإنسان على مكافحتها بعون الله وبقوّة ذراعيه، والتغلّب التدرّجيّ عليها بتحويل الإنسان إلى كائن يصير دائمًا أكثر روحانيَّة وألوهيَّة.

إنَّ الرغبة في الأفضل هي محرِّك التطوّر، والشدَّة هي وقوده.

يتطوَّر الإنسان بالردّ على الأخطار

داود ج. برثُولُومِيُو David J. Bartholomew هو أُستاذ العلوم الرياضيّة والإحصاءات في كلِّيَّة الاقتصاد في لندن. ففي بحث هو حتّى الآن الأعمق في المسألة التي نعالجها، يستعرض الحجَج التي

تستعمل المصادفة الظاهرة في الطبيعة ليهدم الإيمان بالله. ومع ذلك فقد وصل بارثولوميو في بحثه إلى هذه النتيجة: وهي أنَّ المصادفة، تقودها القوانين الطبيعيّة المفضّلة التي توجّهها إلى هدف محدَّد، بدل أن تنكر ما في العالم من النظام والغائيّة، تؤدّي، على عكس ذلك، إلى معرفة مثال العالم الذي خلقه الله والذي به يؤمن المسيحيّون[١٠].

كتب: «قد يكون تحدّي النظرة المسيحيَّة الجدّيّ إلى الله على أنه أبٌ مُحبّ، يأتي من الألم غير المستحقّ. فالزلازل والمجاعات وجميع أنواع الكوارث الطبيعيّة، يعسر التوفيق بينها وبين شخص يُعنى بكلّ فرد ويرغب في خيره وحده. إنّ قوّة هذا الانتقاء تخفّ إلى حدّ ما إذا لم يكن من الضروريّ أن نرى في كلّ حدث مفرد عمل تعمّده الله»[١١].

«يتكلَّم يسوع على «أبيكم الذي في السموات الذي يطلع شمسه على الأشرار والأخيار، وينزل المطر على الأبرار والفجّار» (متّى ٥/ ٤٥). الحياد الذي يُعامل جميع الناس معاملة واحدة هو تعبير عن عدم الانحياز الذي هو ميزة الظواهر الطارئة». كان يهود زمن المسيح يعتقدون أنّه يجب أن تُنسب المصائب الفرديّة مباشرة إلى الله. فهكذا لمّا سقط برج في سلوام وقتل ثمانية عشر شخصًا بريئًا، بَدا أنّ هناك تفسيرًا للحدث. فقال يسوع إنّ هؤلاء لم يكونوا أكثر ذنبًا من غيرهم (لو ١٣/ ٤). ومثل ذلك يصحّ قوله في الذين قتلهم بيلاطس (لو ١٣/ ١-٢) وفي المرأة المُقْعدة (لو ١٣/ ١٦) والأعمى منذ مولده (يو ٩/ ٣). ففي كلّ حالٍ من هذه الأحوال،

---

(١٠) D. J. BARTHOLOMEW, *God of Chance*, SCM Press Ltd, London, 1984.

(١١) المرجع المذكور، ص ١٥٦.

نفى يسوع أنّ الحدث أو الحالة كان عملًا مقصودًا لمعاقبة تنزل بفرد خاصّ[١٢].

«لقد أكّدنا أنَّ المصادفة المحض هي شرط مسبق للحرّيّة الفعليّة والنضج الإنسانيّ، وأنّه لمّا كانت الحرّيّة جوهريّة في هذه الحياة المليئة بالله على وجه أكثر والتي جُعلت غاية لنا، فإنّ الأحداث الطارئة لا بُدَّ منها». «فالأحداث العارضة التي تؤدّي إلى التبديلات في الجينات هذه وإلى تقدّم الحياة، قد تؤدّي هي أيضًا إلى التشويهات والآلام هذه. ففي الألم مظهر لا بُدَّ منه، أُحسِن التعبير عنه في أقوال يسوع: «لا بُدَّ من حدوث هذه الأشياء» (مر ١٣/٧ راجع أيضًا متّى ١٨/٧). إنّ الرؤية التي اتّخذناها للعالم تُتيح لنا أن نؤمن في الوقت نفسه بأنّ الله يحدِّد غاية مجمل العالم ونظامه، وأنّه لا حتميّة في سلّم صغار الأمور أي في الأحداث المفردة. نُلِحّ في ما هو واضح فنكرِّر القول إنّ مشكلة الشرّ تكاد أن يكون حلّها مستحيلًا في عالم تسوده الحتميّة، لأنّ الله عندئذ يكون مسؤولًا مباشرًا عن كلّ حدث مفرد»[١٣].

إنَّ التنوُّع وفقدان اليقين يُتيحان مجالًا منشِّطًا ومليئًا بالتحدِّيات، يهيّئ ميدانًا مفتوحًا أمام التطوّر الإنسانيّ على القدر الذي يستعمل فيه الأفراد ذكاءَهم ليردّوا الجواب عن العالم الذي يعيشون فيه. فبالرغم من أنّ الله يُعَدُّ مسؤولًا في آخر الأمر عن كلِّ تفصيل خاصّ، فلن يُعتبَر مِثْلَ شخص يُدير هو بنفسه كلّ ذرَّة أو جزءٍ لغاية محدَّدة سالفًا. فيجب بالأحرى الاعتراف بأهدافه في الميزات العامّة لِمسارات المصادفة.

---

(١٢) المرجع المذكور، ص ١٥٧.
(١٣) المرجع المذكور، ص ١٥٧.

شاء الله أن يخلق عالم المصادفة لأنّه يتمتّع بالميزات الضروريّة لإنشاء كائنات صالحة لتكون صديقة له. إنّ هذه الكائنات مُمتحنةٌ مختبرة لتقاوم التحدِّيات التي يعرضها عليها محيطها، إلى أن تمرّ بالموت في اتّحادٍ بالله تامّ.

يجد الفرد نفسه في موقف أشبه بالأحرى بموقف طيّار مُعرَّض لجميع أنواع الخطر وبِرَدِّهِ عليها يطوِّر مهارته. ويستطيع أن يبقى على اتّصال بالقاعدة التي يمكنها أن تنصحه ببعض النصائح أو تزوِّده بعض التعليمات، ولكنّها غير قادرة على تبديل الطقس أو إصلاح الأعطال الميكانيكيّة(١٤).

لا يمكن أن يكون علم الأخلاق ذا مصلحة

إنَّه لأمر واقع أن تنزل الكوارث من غير تمييز بالمذنبين والأبرياء، وهذا ما حثَّ ولا يزال ينشِّط اليوم تقدّم الإنسان الفكريّ والتقنيّ والإراديّ والخُلقيّ.

لو لم تضرب المصائب إلّا الأشرار والطغاة، لكان الإنسان بدل أن يحرِّك قدراته الكامنة ليكافحها، تجنَّب الخبث والعنف. لكنّه كان دُفِع إلى فعل ذلك لا حبًّا بالخير في نفسه، أو بالمحبَّة، بل بالأنانيَّة أو خوفًا من المصيبة.

فيصحّ عند ذاك هذا البيت الشعريّ لتريلوسّا Trilussa: «وكثيرًا ما يكون الاحتراس ناصحًا لك بإظهار الإجلال أكثر منه بالتقدير» (شريعة الله). وهكذا يبقى الإنسان في مستوى فكريّ ومدنيّ وخُلقيّ منخفض جدًّا، في مستوى طفل في الحضانة، يجتنب بعض الأعمال ليُفلت من العقوبة.

---

(١٤) المرجع المذكور، ص ١٥٧.

ليست الحياة الأبديّة والهلاك في المَعَاد مكافأة أو عقابًا يمنحهما قاضٍ على سلوك الناس، بل نتيجة طبيعيّة ذاتيّة للاختيارات الخُلقيّة التي قاموا بها، ومُواصلة طريقة التفكير وقد وُطِّدت وصارت بغير رجعة. فالحياة الأبديَّة هي الحبّ الشامل والاتّحاد بالله - المحبّة وما يتبعه من الفرح والسلام. إنَّ الهلاك هو فقدان الحبّ الحقيقيّ، والانفصال عن الله والانزعاج الباطن الناجم عن ذلك.

وعلى عكس ذلك، فإنَّ حماية البارّ البريء في هذا العالم حماية خاصّة **جسمانيَّة**، وسلسلة من المصائب متواصلة تُصيب الشرّير تكونان مكافأة وعقابًا من مستوى منخفض. فاختيار الخير خلقيًّا يكون توظيفًا مربحًا. فبقدر أدنى من الحساب يجد زعيم من المافيا (mafia) أنّ شريعة الله عمل تجاريّ رابح. لا يُختار الله من أجله هو نفسه ولا يُحبّ القريب بروح أصيل من الحبّ، بل من أجل الخيرات المادِّيَّة التي تُجنى من ذلك. لا يكافأ الخير بالخير نفسه، ولا يُعاقب الشرّ بالشرّ نفسه في الباطن. لا يُبدع الإنسان قيمته الخُلقيّة وإن كان بعون النعمة، ولا يكون حرًّا تجاه خياراته الخُلقيّة.

«فالمصادفة الحقيقيّة إذًا هي شرط للحرِّيَّة الفعليَّة والنضج الإنسانيّ، ولمّا كانت الحرِّيَّة جوهريّة في هذه الحياة المليئة بالله على وجه أتمّ، والتي جُعِلْنا لها، فإنّ الأحداث العرضيّة لا يمكن اجتنابها».

«لا شكّ في أنّه ليس للذي يتألّم مدعاةً للعزاء الكبير معرفته أنّ قانونًا بالإحصاءات يتطلّب وجوب تألّم واحد من الناس. فعلى قدر ما يصحّ القول، إنّ الألم قد يشتدّ عندما يُوقِن المتألّم أنّ الألم أُنزِل به عمدًا. فالمرارة التي يظهرها في بعض الأحيان الذين يفكّرون في أنّ آلامهم يجب أن تُنسب إلى الله، تؤول إلى أمرٍ واحد هو أنّها

تجعل الألم أعمق»[١٥].

آلام الأطفال

من المهمّ أن نُلاحظ أنّ الألم ينشّط ويسرّع البحث عن التقدُّم لا لدى الإنسانيّة عامّة فحسب، بل حتّى عند الفرد. ذلك بأنّ الفرد نفسه الذي نزلت به المصيبة يُضطرّ إلى شحذ ذكائه وإرادته ليتغلّب على المحنة. والفرد أيضًا، عندما تكون المصيبة غير قابلة لما يُعوِّضها، هو الذي يُدفع ويكاد أن يكون مُضطرًّا إلى البحث عن تعميق القِيَم الخُلقيّة والدينيّة التي لم يكن حتّى ذلك الحين، في أحسن الأحوال، قد قدّرها حقَّ قدرها.

فلولا هذه الضرورة لما كان أحد قد اكتشف بهاء الخيرات التي تجعل معنىً لكلّ حياة إنسانيّة. حتّى الأبرار، عندما يسير كلّ شيء سيرًا حسنًا، لا يستثمرون سوى سطح المنجم وهو السطح الأفقر.

يُدفع الفرد المُمْتَحَن في أوّل أمره إلى طلب قِيَم الروح التي تكاد أن تكون مادّة بديلة للقِيَم الجسديّة أو العاطفيّة المفقودة، لكنّه بعدئذٍ يكتشفها دائمًا اكتشافًا أكبر على أنّها القِيَم الحقيقيّة، الوحيدة التي تجعل للحياة معنى تامًّا. وهكذا يتبدّل الشرّ النسبيّ فيصير خيرًا مطلقًا.

ثمّة حالة وحيدة يبدو أنّها لا تجد ما يبرّرها: إنّها حالة الطفل الصغير جدًّا الذي يتألّم من غير أن يستطيع الحصول على فائدة روحيّة لنفسه. إنّ ألمه سطحيّ أشبه قليلًا بحالة الحيوان لأنّه لا يستطيع بعد أن يحسّ به هو بنفسه.

---

(١٥) المرجع المذكور، ص ١٥٧.

فالألم الذي لا يُشْعَر به هو في رأينا أقلّ ألمًا، لأنّه لا يُصيب الجزء الأكثر مركزيَّة من أنفسنا - الذهن. فلو لم نفكِّر فيه، لتألّمنا ألف مرَّة أقلّ، لأنّنا نتلقّى الأشياء كما تأتي: هذه هي الحالة، وانتهى كلّ شيء.

ليس ألمُ الطفل غير مفيد للآخرين. إنّه يحثّ بشدّة الأقارب والأصدقاء على طلب الوسائل لتخفيف الألم وشفائه، وعلى طلب القِيَم الروحيَّة لتفهّمه وتحمّله. ويُعوِّضه في النظرة المسيحيّة، تعويضًا لا قياس له، الفرح الأبديّ بالله الذي أُعدَّ له الطفل.

الألم في إطار العالم العامّ هو أحد عوامله، وعذاب الطفل في داخل هذا العامل هو عنصرٌ من عناصره. فإزالته تعني بالضرورة المعجزات المتواصلة، في حين أنّ عمل الله وتدبيره في العالم، كما نراهما يجريان بالقوانين الطبيعيّة.

فألم الطفل يدخل في دائرة التعاون مع بقيَّة الإنسانيّة. لا أنفي أنّ هناك إواليّات نفسيَّة دفاعيَّة تخفّف، عند الطفل كما عند الحيوان، الألم الحقيقيّ بتركها على الخصوص الحركات الانعكاسيّة الجسمانيّة تعمل.

ألم الحيوان

في مخطّط الطبيعة، ليس العذابُ الجسمانيّ عدوّ الحياة، بل هو حليفها الأقوى مع اللذّة الجسديَّة.

إنَّ اللذّة هي قوّة الحيوان الدافعة وقائده الآليّ. فهو لا يستطيع التفكير، وبالتالي لا يعرف ما يضرّه وما ينفعه. إذ تدلّه اللذّة على الأعمال المفيدة في الحياة: متى يأكل؟ ومقدار الكمِّيَّة والنوعيَّة، متى يشرب؟ متى يسفد وكيف؟ متى يرتاح؟ متى يتحرّك؟ وكم من

الحرارة يطلب؟. . إلخ. لا تدلّه اللذّة على ذلك فحسب، بل تدفعه إلى القيام به.

والعذاب، على عكس ذلك هو، جهاز الدفاع الآليّ، الذي يجعل الحيوان يهرب ممّا قد يؤذيه، ويحرِّكه لكي يحصل على ما يحتاج إليه.

أجل، إنّ العذاب الجسمانيّ شرّ، لكن نسبيّ، من أجل خير أعظم. إنّه جهاز آلة العالم. وما يُقال في الحيوانات يصحّ قوله في جانب كبير من الناس. فلولا اللذّة والعذاب لكان النوع الإنسانيّ قد زال عن الوجود حالًا منذ البدء. ولولا الموت لما كان ثمَّة موضعٌ بعدُ في الكرة الأرضيّة للوقوف قيامًا فيها.

لا أودّ القول استنتاجًا ممّا سبق إنّ الناس يمكنهم مواصلة تعذيب بعض الحيوانات كما يفعل الطغاة. وهذا يكوّن **خطأً حقيقيًّا** في نظر الله. لكنّ الألم، في إطار الطبيعة، هو غير ذلك. فهو أبدًا من غير حاجة، أو إصلاح، ومن غير خير واسعٍ ينزع إليه.

الإيمان يُبطِل سُمّ العذاب

ففي حين ينقص الإيمان عند بعض الناس لوجود العذاب، فإنّ العذاب ينقص عند أُناس آخرين لوجود الإيمان عندهم.

يتطوّر العقل البشريّ بمكافحة محن الحياة الشديدة، وعندما تكون حتميَّة، يتقبَّلها على أنّها جزء من خطّة تبغي الخير العامّ.

لكي تُقبَل المِحن التي لا يُمكن تجنّبها، لا بُدَّ من الإيمان الصريح بالله الذي يكشفه لنا المسيح. أمّا في ما خصّ سائر المِحَن، فالإيمان الضمنيّ كاف، وإن كان الإيمان الصريح أقوى ويسند العزيمة على وجه أحسن.

نسمّي إيمانًا ضمنيًّا بالله الثقة الأساسيّة التي يُدفَع الإنسان إلى رعايتها إذا أراد ألّا ينهار ويُغلب تجاه الشدائد الكبرى في أثناء سفره في الأرض.

إنّ الإنسان غير الواثق يرى في كلّ حال محنة، وإنسان الإيمان يرى في كلّ محنة فرصة سانحة.

هذه الصحّة العقليّة وهذا الرجاء في نظام تركيب العالم وموارد النوع الإنسانيّ تتعلّق باختيار حرّ وبالانكباب على الاهتمام به. ليس الإيمان شيئًا يحصل عليه جميع الناس بالولادة، ولكن جميع الناس يولدون ولديهم خطّة بدائيّة تمكّنهم من الحصول عليه.

إنّ الثقة الأساسيّة تحتوي ضمنًا وبوضوح على الإيمان بروح خيِّر في جوهره، تصوَّر وحقَّق، من خلال التطوّر البطيء، الإنسانَ وعالمه.

ذلك بأنّ المصادفة هي أخت الخواء. فالمصادفة عمياء وغير ثابتة وغريبة على وجه مطلق عن أيّ غائيّة كانت أو توجُّه إلى الخير. لا يمكن الوثوق الأساسيّ بنظام أقامته المصادفة، لا بل إنّ المصادفة لا تقيم أيَّ نظام.

إذا كانت الانتحارات واستعمال الكوكايين تزداد اليوم زيادة ظاهرة للعيان، فما ذلك إلّا لأنّه يُعلَّم في المدرسة والمجتمع أنّ أصل العالم يعود إلى المصادفة.

فالإيمان في الحياة، لهذا السبب، هو أقوى بالأحرى، ويحثّ بقدر أكبر على مكافحة أسباب الظلم والمصائب، ويعترف بصراحة بأنَّ ثمّة، في بدء حياة الإنسان وإدارتها، روحًا تلائم خير جميع الناس.

الإيمان يلد العقل

إنَّ المصيبة نفسها يراها غير المؤمن إهانة لمصير الإنسان وقضاء رهيبًا، في حين أنّ المؤمن يراها تمرينًا قاسيًا من أجل الكأس الكونيّة.

إنَّ العقل البشريّ تقدَّم على مرّ آلاف السنين، وهو يكافح الكوارث، والجوع، والبؤس، والأمراض، والآفات، وهجوم الوحوش الضارية والأعداء، بتقنيّات تتحسَّن تحسُّنًا مطّردًا، وبتضامن أعمق.

كلّما حدثت كارثة عامّة أو مصيبة فرديَّة، كان الناس الضعيفو الإيمان بأنفسهم وبالحياة، وتاليًا باللاهوت، مدفوعين بإيمانهم إلى البحث عن حلول، وتحضير أسباب الدفاع، وحتّى اختراع وسائل للسيطرة على الوضع الراهن عندما كان يبدو الرجاء ضئيلًا. كان الإيمان حافزًا يدفعهم إلى إعمال العقل. وكلّما كان العقل يتدرَّب، كان يتقوّى ويزداد نفاذًا، يبرز في تعاليم تبدو أكثر فطنة للأطفال كي يواصلوا تقدُّم الوالدين.

لقد سبق الإيمان جميع الاختراعات والاكتشافات وألوان التقدّم الاجتماعيّ والخلقيّ.

فالإيمان إذًا أساس هذه التقنيّة، وهذا العلم، وهذا العقل، التي بأسمائها يحاول كثير من أهل العصر الحديث هدم الإيمان نفسه. يبدو هؤلاء بنّائين أيقاظًا لنقض أسس ناطحة السحاب التي يشيدونها. كما أنَّ العلم قد أخذ ينقلب على بقاء الإنسانيَّة، ولم يَعُد العقل واثقًا بنفسه.

كتب إريكسُن Erikson: «لا يستطيع الطبيب النفسانيّ أن

يلاحظ أنّ هناك ملايين من الناس لا يسعهم أن يحيوا بلا دين، وأنّ الناس الذين يفتخرون بأنَّ لا دين لهم، يأتون إليه في أحيان كثيرة مثل أطفال يغنّون في الظلام[١٦].

فالإنسان الذي يثق بمنطق يُدير العالم بقوانين طبيعيّة موجَّهة إلى الخير الأخير، تدفعه اليوم العقبات، شأنه في الماضي، إلى البحث عن وسائل تزداد دائمًا فعاليَّة لكي يتغلَّب على القوانين الطبيعيّة. من حسن الطالع، يؤمن الملحد ضمنًا في أحيان كثيرة بعقلانيّة العالم فيكافح الشرّ. لكنّ الملحد المتماسك مع إلحاده حقًّا يميل إلى الاعتقاد أنّه من العبث المكافحة، لأنّ المصادفة العمياء أي حسن الطالع وسوء الطالع تخلق وتدير كلّ شيء. الإلحاد هو نظرة إلى العالم توافق القدريَّة، وعندما تكون مصائب الحياة غير قابلة التعويض، فإنّه يؤول إلى اليأس.

يُلاحظ هانس كونغ: «في قولي نعم لله، أشدّد عزمي وأنا واثق بأساس أوّل، بسند نهائيّ، بغاية سامية للحقيقة. ففي الإيمان بالله، إنَّ قولي «نعم» للحقيقة هو آخر الأمر مبنيّ على أساس متين ومنطقيّ[١٧].

فلِمن ينظر إلى الهدف الإلهيّ الذي إليه مصيرنا، تتحوّل الفاجعة إلى مأساة، والحتميَّة إلى مغامرة، والمصيبة إلى ارتقاء إلى السعادة.

المؤمن يثق بالحياة ويعرف لماذا

ليس الإيمان مكافحة الجوع والبطالة والظلم والمرض

---

(١٦) H. ERIKSON, *Identität*, p. 74.

(١٧) H. KÜNG, *Dieu existe-t-il?*, p. 663.

والموت الفوريّ فحسب. إذا كانت الحياة تأتي من ذكاء خيِّر، فإنّ الرغبات التي تبعثها الطبيعة في النفس، لا بدّ لها، عاجلًا أم آجلًا، من أن تُلبَّى، وأوّلها الرغبة في محبّة سامية تكون شاملة خالدة: «أهب لك نفسي، سأحبّك للأبد».

إنّ طفلًا معوقًا، وأمًّا شابّة تموت من السرطان، وزلزالًا يهدم مئات من العائلات، يقود كلُّه الإيمانَ الضمنيّ (الثقة الأساسيّة بأنّه «يمكن مداواة كلّ شيء في هذا العالم، وبأنّ جميع الشدائد لا تحدث بهدف الإساءة») إلى بحث مضنٍ.

إنّ الذي لا يسير بالإيمان الضمنيّ إلى التوضيح، لأنّه لا يريد أن يكلِّف نفسه عناء البحث في الغيب، قد يفقد قليل ما لديه من الإيمان. ولكنّه إذا سار على عكس ذلك، على الدروب الجبليّة للتعمّق في الأمور، أمكنه الاكتشاف بدهشة لا حدَّ لها أنّ المسيح ليس كما كان يعتقد، بديلَ عزاء، بل حدث عظيم يشعّ نوره في الحياة.

أجل، يمكن معالجة كلّ شيء حتّى الموت نفسه. أجل، لا يصيب السوء مَن يثق بالله. أجل، هناك انسجام بين الواقع والرغبات العميقة التي تحدثها الطبيعة، لأنّ المغامرة البشريَّة لا تنتهي في هذا العالم.

إنّ السعادة الأصيلة الثابتة ثمرة مَسار القيم الخلقيَّة المتطوّر يبتدئ في هذا العالم، لكنّه يستمرّ ويلقى نهايته في الحياة ما بعد الأرضيَّة.

حتّى الشرّير تنزل به المصيبة فينال منها غيظ يُسقط في يده. ولكن البريء الذي يتألَّم يُحَثّ ويُدفع إلى إنماء قِيَم الثقة والتأمُّل

والاكتشاف التي هي هدف الوجود الرئيسيّ.

كان الإيمان الضمنيّ يرجو الوصول إلى ما يطيب له، عن طريق البرّ، لكن عندما قطع المحيط عليه المرور اضطرَّ إلى البحث عن مطار.

لمّا لم يكن يؤمن إيمانًا عميقًا بالله، كان يثق بالحياة، لكنّه كان يجهل لماذا. أمّا الآن وهو يؤمن فإنّه يثق ويعرف السبب.

نحن في مرحلة الإنتاج الأولى

إنّ الثمن الواحد نفسه قد يكون بخسًا أو باهظًا، بحسب ما هو مخصّص لشراء قشدة مثلَّجة أو لشراء معملٍ بأكمله يصنع القشدة المثلَّجة.

فمثل ذلك يحدث لِمَن ينظر فقط إلى قِصَر الحياة في الأرض، فيبقى مستاءً من سوء مصير بعض الناس. ففي حياة كثير من الناس يكون المسلسل الطويل المعقَّد من الآلام ثمنًا باهظًا لا ينجح في إقامة توازن مقابل الأفراح القليلة والضئيلة التي تصادفها الحياة. ولا كبير عزاء أن نفكِّر في أنّ ذلك لا يأتي من الله، بل من الذنوب البشريَّة الحاضرة والماضية، ومن عدم كمال المادَّة الذي لا بدَّ منه، ومن الحاجة إلى دفع التطوُّر البشريّ.

يُفسِّر العذاب هدفٌ مجيد يُدرَك في الحياة ما بعد الأرضيَّة، أمّا الذي لا يسلِّم بهذا الهدف فيجب عليه الاعتراف بأنّ الحياة غير معقولة.

دخل زائر معملًا آليًّا كبيرًا لجرّارات فيات Fiat، على سبيل المثال، فرأى الصالة الأُولى الواسعة وقد أُدخل فيها المحروقات

والأسلاك ومنها يَخرج خَبَث المعدن والغازات المنبعثة. فإذا أنهى زيارته، وكان يجهل كلَّ شيء عن سائر أماكن التصنيع، فلربّما استنتج أنّ جميع هذه الآلات التي في الصالة الأُولى لا معنى لها. يجب عليه، على أقلّ تقدير، أن يفترض أنّ هناك مراحل أُخرى حتّى المرحلة الأخيرة التي منها يخرج الإنتاج مكتملًا.

الذي يغضّ النظر عن غائيّة عُليا أبديَّة، جعلها الله للحياة البشريَّة، يَصل إليها بتقدُّم روحيّ بطيء فيرى حتمًا أنّ الحياة الحاضرة سخيفة. فالألم البشريّ لا يمكن تفسيره إلّا إذا سلَّمنا بهدف يتجاوز هذه الحياة.

لم يكن تفسير عدم انتظام مسار كوكب أورانُوس إلّا بوجود جاذبيّة كوكب كان مع ذلك غير منظور. فاستنتج عالم الفلك أورْبان لو ڤرّييه في ١٨٤٦ وجودَه وحَسَب موقعه. وفي العام ١٨٤٧ اكتُشف ذلك بالراصدة. ولكن كان بوسع لو ڤرّييه الاستنتاج أيضًا أنّ عدم الانتظام ذلك غير معقول، وبالتالي ما من قيمة شاملة للقوانين الطبيعيّة.

حجّة الإيمان العاقل، في ما يختصّ بالألم، يمكن إيجازها على هذا النحو: في نظرة ثقة بالحياة، حتّى العذاب الأكثر براءة والأشدّ إيلامًا يجب أن يَلقى تفسيرًا. ولكن لا يمكن تفسيره إلّا إذا كان الله والمَعَاد في الوجود. فللّه والمعاد إذًا وجود. في رأي غير المؤمن، على عكس ذلك، وفي نظرة ارتياب من الحياة، فالعذاب البريء والمؤلم غير قابل للتفسير. بل هو ظلم وغير معقول. لكن إذا كانت الحياة ظلمًا وغير معقولة، فهي لا تأتي من ذكاء. فلا وجود إذًا لله وللمَعَاد.

مبادئُ ستّة تفسّر الحياة

يبدو أنّ الحياة البشريَّة بعذاباتها يمكن تفسيرها في ضوء بعض المبادئ.

أ - مبدأ الهدف الأوّل الفِطريّ

يأتي كلُّ كائن بشريّ إلى العالم وله دعوة أساسيّة أو هدف أوّل فطريّ، مساوٍ في جوهره عند جميع الناس، لأنّه مشتقّ من طبيعتنا نفسها. ويمكن معرفة ذلك من العمل والرغبة العُليا التي يشعر كلّ امرئ، إذا اتّبع «تعليمات الاستعمال»، في نفسه بالمقدرة والمثال الأعلى. يستطيع جميع الناس التحقّق والاختبار أنَّ الرغبة والقدرة القصوى هاتين هما المحبّة العميقة الشاملة الكاملة.

محبّة شاملة: «من كلِّ القلب وكلِّ النفس وكلِّ القوى»؛ وثنائيّة، أي مقبولة ومتبادلة مع شخص فيه جميع القِيَم إلى أعلى درجة. محبَّة تنفتح عن يد هذا الشخص على أن نُحبَّ الأصدقاء في العمل، ومَن نعرفهم، وجميع الناس، وجميع الأحياء. محبّة ليست عاطفة وحسب، بل عزيمة فعّالة على الخير، لا صدع فيها ولا ضعف، وحيَّة إلى الأبد.

هذه المحبّة هي الهدف الذي من أجله جئنا إلى العالم. فجميع الخيرات الأُخرى يجب أن يُنظر إليها على أنّها وسائل لبلوغ هذه المحبّة. ليس الفردوس مكانًا بل هو كمال هذه المحبّة.

«فقال له: أحبب الربَّ إلٰهك بكلِّ قلبك وكلِّ نفسك وكلِّ ذهنك. تلك هي الوصيّة الكبرى والأُولى. والثانية مثلُها: أَحبب قريبك حبّك لنفسك» (متّى ٢٢/ ٣٧-٣٩).

لا ندع الفيل يفوتنا لنجري وراء العِظايَة.

ب - مبدأ الخيرات الآليَّة

إذا أردنا أن ننال السعادة المطلقة، أي الهدف الأوّل الفطريّ، وجب علينا أن نعتبر دائمًا الخيرات الأخرى: الصحّة، الحبّ البشريّ، العمل، العائلة، المال، النجاح، الغذاء، المنزل، الرياضة، الصداقات، وأسباب التسلية، العلم، الفنّ... إلخ في وظيفة استعماليَّة. وهذا يعني أنّه يجب استعمالها على نحو مباشر على قدر صلاحيّتها لتكون عونًا على الوصول إلى الهدف الأوَّل، وعلى عكس ذلك، على قدر عدم صلاحيّتها للهدف نفسه: «ما من أحد يستطيع أن يعمل لِسَيِّدَين...» (متّى ٦/ ٢٤).

حتّى إذا كانت القهوة تروق لك، فتناول منها على قدر ما هو مفيد كي تربح المباراة.

ج - مبدأ نسبيَّة الفائدة

إنّ علامة الفائدة التي تدفعنا إلى قيم الحياة الأساسيَّة، أي إلى الهدف الأوّل الفِطريّ، هي متناسبة عكسًا مع علامة الفائدة التي نضمرها للخيرات المستعملة وقد عُدَّت قِيَمًا مطلقة. كلّما أَسَلْتَ ماء في القناة (ب)، قلَّ ما يُفاض في القناة (أ).

كلّما صرفتَ من الوقت على مشاهدة التلفزيون، قلَّ ما تصرِفُه منه على الدرس والعمل.

د - مبدأ الآليّات المكيَّفة

إنّ كلَّ غريزة تغذّيها حوافز النظر والسمع والمخيِّلة التي تثير الشهوات والنزوات، بحيث تنمو هذه الأخيرة على قدر عدد الحوافز وشدَّتها إلى أن تصير غير قابلة للتحكّم فيها. وتستطيع العزيمة لدى

الإنسان مراقبة الحياة (الكبت) الباطنيَّة والخارجيّة. أ - بإبعاد (طريقة عدم الإثارة) الحوافز المذكورة. ب - بتنمية اهتمامات بديلة (طريقة الترفيع).

لا توقظ النَّمر الراقد.

هـ - مبدأ انعكاس التطلّعات الأساسيّة

إذا كان المرء لا يتحكَّم في الاهتمام بالخيرات - الوسائل، يظهر انعكاس في النظام الطبيعيّ: فيصبح الهدف الأوّل الفِطريّ وسيلة أو يُجعل جانبًا، في حين أنّ الخيرات - الوسائل تصبح الهدف الأوّل (أصنام) وتسبّب عدم الرضى في أعماق النفس.

فمن الأكل بهدف العيش ينتقل المرء إلى العيش بهدف الأكل.

و - مبدأ الألم العلاجيّ

إنّ فقدان أو ضعف الهبات الجانبيّة المتَّصلة بالجسد، مثل: الصحّة، الخيرات الاقتصاديَّة، لذَّة الحواسّ أو النفس: الارتياح العاطفيّ، النجاح في العلاقات... إذا قُبلت في سبيل الهدف الأوَّل، قامت بعمل علاجيّ للمرء بتخفيف إغراء الخيرات - الوسائل التي تنقصه، وبتشديد تركيز الاهتمام على الهدف الأوَّل.

عندما يطفئ الوالدون جهاز التلفزيون، فقد يساعد ذلك الفتى على الدرس.

الدروس الابتدائيّة والمتوسِّطة والجامعيّة

إنّ الله لا يرسل الكوارث، بل يدع القوانين الطبيعيّة تعمل. ولكن عندما تحدث كارثة فهو يسعى إلى استعمالها في سبيل الهدف الأوَّل.

إنّ الله أشبه بمدرِّب فريق كرة القدم، فلا يَوَدّ أن يسجِّل اللاعبون هدفًا على أنفسهم، أو يسبِّبوا ضربة جزاء على فريقهم، لكن إذا حدث ذلك فهو ينتهز الفرصة السانحة لكي يُسدي النصائح ويسعى إلى تحسين اللعب.

إنّ الألم، مثل المطر، ينزل نزولًا لا محاباة فيه على القدِّيسين والناس العاديّين والمذنبين. فهو لا يستثني فئة. وإذا كان الخالق يأذن بذلك، فلأنّه مدرسة فيها عدّة درجات في سبيل الهدف الأوّل.

أمّا الذين لم يقبلوا في المدرسة المتوسِّطة (أي الذين ضميرهم غير نظيف كثيرًا) فالألم يُقبل عندهم قبول عقاب الله. فالواقع أنّه ليس كذلك بالمعنى الدقيق لأنّه ينزل حتّى بالأبرار، ولكن يمكن تسميته بهذا الاسم لأنّه إذ يحثّ الأخيار على التقدُّم، فهو يهزّ الأشرار لكي يتوبوا. إنّه عقاب «شاف» موجَّه لا إلى الانتقام، بل إلى الشفاء. حتّى المذنب الذي ليس لديه ذرّة من الإيمان، يُحمَل في المصيبة على التفكير في أيّ نوع زائل من الخيرات وظّف رأسماله.

إنّ تلاميذ المدرسة المتوسِّطة، الدنيا أو العُليا، هم السواد الأعظم من المؤمنين الفاترين، ومن الناس العاديّين أو من غير المبالين، على زيادة أو نقصان، ومن الناس الطيّبين في العرف الإنسانيّ، لكنّهم لا يجعلون الهدف الأوّل في المكان الأوّل. إنّهم يسعون بالإجمال إلى حفظ شريعة الأخلاق باجتناب الخطايا الأشدّ جسامة، لكنّهم يحفظونها على وجه يكاد أن يكون في مظاهرها الخارجيّة فحسب. إنّ اهتماماتهم ورغائبهم موجَّهة إلى الخيرات - الوسائل التي تصبح هكذا الهدف الحقيقيّ السامي في حياتهم: العائلة، الربح، الصحّة، الحبّ، النجاح، الثقافة، والأصدقاء

إلخ... إنّهم زبائن الله الذين يستخدمون الربّ لينالوا قِيَم الأرض، بدل أن يستعملوا قِيَم الأرض لينالوا الربّ.

يعتقد هؤلاء أنّ الصلاة تُستعمل خاصّة لكي تنتزع من الله هذا الحدّ الأدنى من الرفاهيّة والمناعة من المصائب، ما يمكّنهم من العيش مستمتعين بأصنامهم. فظهور المأساة المروّع التي قد تأذن بها العناية الإلٰهيّة في حياتهم، والذي يسمّونه وهم مستاؤون، **عقابًا غير مستحقّ**، جُعِل عندما ينقضي وقت التَّمرُّد، لكي يعلّمهم بالاختبار ما يختصّ بالخطأ الفادح، إذ يُجعل الهدف الأوّل القِيَم التي ما هي سوى وسائل يمكن تبديلها لابتغاء الهدف الأصيل. إنّ انهيار أسعار بورصة الخيرات الزائلة ينبّههم إلى أن يستثمروا أموالهم في توظيف أكثر ربحًا وثباتًا.

ويأتي آخر الأمر الجامعيّون النظاميّون الذين يقتربون من الدكتوراه بمعدّل ثلاثين والمتخرّجون الذين يتبعون دروسًا في الاختصاص. هؤلاء هم المؤمنون ذوو الإيمان الغنيّ العميق. لقد استوعبوا الدروس السابقة وكنزوا أقدارًا كبيرة من النعمة. فبوسعهم بعد اليوم أن يشركوا آلامهم بآلام السيّد المسيح لخلاص العالم. إنّهم يتحمّلون الصليب المقدّس، ولا يُنزع عنهم السلام، لأنّهم يختبرون اختبارًا متواصلًا الحياة الجديدة، والطمأنينة في باطنهم. تلك معجزة من الله، لا بل المعجزة العظمى: فرح القدّيسين الأصيل في وسط المِحَن الكبيرة.

ففي هذا النور نرى عمل العناية الإلٰهيّة. وتفهم الكتب الدينيّة المقدّسة ولا سيّما الكتاب المقدّس العناية الإلٰهيّة على أنّها عمل الله ليقود الإنسان الذي يبحث عنه، ويُساهم بالفرح وصروف الدهر في الاتّحاد الثابت بمحبّته، وفي مشاركته في الخيرات الروحيّة.

﴿والضحى. والليلِ إذا سَجَى. ما ودَّعك ربّك وما قَلى. وللآخرة خيرٌ لك من الأُولى. ولسوف يُعطيك ربُّك فترضى. أَلم يجدك يتيمًا فأوى؟ ووجدك ضالًّا فهدى، ووجدك عائلًا فأغنى؟ فأمّا اليتيم فلا تقهر. وأمّا السائل فلا تَنهَر. وأمّا بنعمةِ ربِّك فحدِّث﴾ (سورة **الضحى** ٩٣).

«ويهديك الربُّ في كلِّ حين...» (**أشعيا** ٥٨/ ١١). «الربُّ يؤيِّد الوضعاء...» (**المزمور** ١٤٧/٦). «... فهو قادر على إغاثة المُبتلَين» (**عبرانيّين** ٢/ ١٨). «إنّ الذين ينقادون لروح الله يكونون أبناء الله حقًّا» (**روم** ٨/ ١٤).

الجهاز اللاقط صوتَ الله

إذا كان الله يُرخي العنان لقوانين الطبيعة دائمًا، فما هي العناية الإلٰهيّة؟ وما الفائدة من الصلاة؟

إنّ مثل هذا السؤال يأتي من أُناس يكثر عددهم بين المؤمنين السطحيّين الذين يرون العناية الإلٰهيّة منهمكة دائمًا، عندما لا تكون غافلة، لِتحولَ دون اصطدام السيّارات، ولشفاء المرضى الذين لا شفاء لهم، أو لتنسيق أرقام اليانصيب العائدة لأتقيائها، والذين يعتقدون أنّ الصلاة مفيدة لاستعطاف العناية الإلٰهيّة وإقناعها بفعل ذلك.

فالصلاة، على عكس ذلك، مفيدة لتفهمنا إلى أيِّ جهة يجري نهر الله. كتب الفائز بجائزة نوبل ألكسي كارّيل الذي منذ اهتدائه اختبر الأمر كلّ يوم: إنّها أعظم نوع من الطاقة يمكننا استعماله.

لا نستطيع أن نحول دون طيران طيور الألم فوق رؤوسنا، ولكن نستطيع أن نحول دون بناء أعشاشها في شعرنا، ويكون ذلك بقوّة الصلاة.

إنّها لا تنفع في تكييف الله بحسب إرادتي، لكن تستطيع في أكثر الأحيان تكييف إرادتي بحسب إرادة الله.

إنّها كلمة السرّ في مصرف معلومات رموز الله التي تُيَسِّر لنا قراءة جوابه على اللوحة.

إنّها المرسِل – المستقبِل المشير في مركز القيادة إلى موقع الطائرة المروحيَّة التي تنقذنا إذا ما سقطنا، في حين أنّها إذا كنّا في الجوّ تُيسِّر لنا الاتّصال ببرج المراقبة لنقوم بالتعديلات التي لا بدّ منها لسلوك سواء السبيل.

أجل لا يُحظَّر طلب شفاءات وأعمال ونجاحات في الفحوص وترتيبات عاطفيّة. قد يحصل الله على هذه النتائج بواسطة القوانين الطبيعيّة إذا رأى أنّ ذلك قد ينفع في الطريق الروحيّ. حتّى المعجزة لا تُنفى، بالرغم من أنّ الله يحفظ الاستثناءات النادرة لهذه القاعدة لتكون علامات تساعد جميع المؤمنين في إيمانهم.

لكن هدف الصلاة الحقيقيّ هو أن تجعلنا نؤلِّف نغماتنا على موجات الله، ونتلقّى ما يرسله إلينا. كما يتَّضح من قصيدة سولجنيتسين هذه:

ما أسهل الحياة معك، يا ربّ!
ما أسهل الإيمان بك
عندما ذكائي الحائر
يحتجب أو يتوقّف عن العمل،
وعندما الناس الأكثر ذكاءً
لا يرون أبعد من هذا المساء
ولا يعلمون ما يعملون غدًا،

أنتَ تمنحني اليقين الواضح
بأنّك في الوجود وتُعنى
بألّا تُسَدَّ
جميع السبل المؤدِّية إلى الخير.

من قمّة مجد الأرض
ألتفتُ إلى الوراء مذهولًا
لأنظر إلى الطريق الذي اجتزته
من اليأس إلى هذه الحالة
ومنها وُهِب لي أن أوصِل
إلى الإنسانيّة بريقَ أشعّتك.

أعطني على قدر حاجتي
لكي أواصل عكس أشعّتك
وما لا أنجح في فعله
فإنّي أعرف أنّك أعددتَ
آخرين لكي يقوموا به[١٨].

لا يمكنني الآن أن أهدي إليك حصانًا

لا يُحبَّذ استدعاء رجال الإطفاء كي يرشّوا غرنوقيّات الشرفة. والصلاة هي مقسم الهاتف المُعَدّ لا للخيرات الزائلة - الغرنوقيّات-، بل للمشكلات المختصّة بالهدف الأوّل.

«...، فما أولى أباكم السماويّ بأن يهب الروح القدس للذين يسألونه» (لو ١١/ ١٣).

---

(١٨) A. J. SOLJENITSYNE, *La preghiera*, da *Incontri e scontri con Cristo*, Ferro Ediz., Milano, 1971, p. 717.

تصلح الصلاة للاستماع إلى الله أكثر منها لمخاطبته، وتصلح لاستخراج ما يهمّنا لأعماقنا أكثر ممّا يهمّ ظاهر جلدنا.

قال السيِّد المسيح: «إسألوا تعطوا، أطلبوا تجدوا، إقرعوا يفتح لكم» (لو ١١/ ٩). لكنّ هذه الأقوال تُفهم بمعنى أبهى وأعجب كثيرًا من المعنى الذي تُفسَّر به على العموم.

كتبت الروائيّة كاثلين نورِّس Kathleen Norris: «لقد أخذني اليقين العجيب بأنَّ كلّ صلاة تُسمع. فالجواب عن الصلاة قد يبدو، في بعض الأحيان، خيبة لا بل إذلالًا. والصلاة تستجاب في أحيان كثيرة على وجه غير متوقَّع تمامًا، أو عندما يكون قد نسيها الذي صلّاها. فما كان لا يُطاق قد زال، وما لا يُحتمل قد أصبح عزيزًا عادلًا، ولقد تحوَّل الضيقُ إلى ارتياح»[١٩].

إنّ الله يستجيبنا بما نريد قوله لا بما قلناه. فما كنّا نطلبه في أعماقنا كان خطوة أولى نحو السعادة الحقيقيّة النهائيّة التي لم نكن نظنّها بعد ممكنةً في شعورنا السطحيّ.

تتمّ الخطوة الأُولى نحو القوّة الروحيّة عندما يدرك كلٌّ منّا أنّنا في الحياة لا نستطيع أن نجد الدرب السويّ، إذا كنّا وحدنا في باطننا. عندما نعود إلى الينبوع الوحيد طالبين توجيهًا وإرشادًا؛ وعندما تصبح الصلاة بألفاظنا عادة؛ وعندما نسأل الربّ، لا مرّة واحدة، بل عدّة مرّات في اليوم أن يُفْهِمنا محبّته ويدلّنا في هذه اللحظة على الطريق الذي يجب سلوكه، ويبعث فينا رغبة اتّباعه؛ عند ذاك تستجاب الصلاة.

كتبت مارغريت بلير جوهنستون Margaret Blair Johnstone:

---

(١٩) من كتاب *We believe in Prayer*، تحرير L. BRINGS.

«لمّا كنت صغيرة طلبتُ حصانًا صغيرًا في ذكرى مولدي، وفضلًا عن الصلوات في كلّ مساء، لم أدع في النهار راحة لوالديّ. الحصان لم أحصل عليه قطّ. ولكن ألاحظ الآن أنّي شرعتُ حينذاك أقترب مِمّا هو أثمن كثيرًا.

لمّا قال لي والدي أخيرًا: «أصغي، يا بنيّتي، من الأفضل أن تُذعني للأمر، فإنّي لا أستطيع أن أهب لكِ حصانًا». أجبتُ: «فلربّما ستحدث معجزة». فأجاب والدي: «المعجزة هي شيء غير حصول المرء على ما يشاء. ففي بعض الأحيان تحدث معجزة أكبر بكثير عندما لا ينال المرء شيئًا»».

جميع الصلوات تُستجاب. لا شكّ في أنّ الله لا يُجيب دائمًا، نعم لكنّه يُجيب كلّ مرّة. يكفّ كثير من الناس عن الصلاة لأنّهم في نظرهم ظلّوا خائبين. فلربّما صلّوا ذات يوم من أجل صحّة شخص عزيز، أو لينالوا قوّة لمكافحة وجه من وجوه ضعفهم، أو ليُوفّقوا في الحصول على عمل. لقد رأوا الشخص المحبوب يموت، ولم يُوفّقوا في التغلُّب على أنفسهم، أو رأوا شخصًا آخر يستولي على الوظيفة الشاغرة. «ما الفائدة من الصلاة؟ إنّ الله لم يستجبني».

إنّنا ندرك في أحيان كثيرة أنّ زوال وَهْم، والتحرُّر من اعتقاد خاطئ، هما الدواء الشافي، خصوصًا لِمَنْ يحسب الله على قياس «بابا نويل» نحمله على أن يعطينا ما نشاء.

ولكن ما هي الصلاة إذًا؟ إنّ التعريف الذي يساعدنا مساعدة كبرى على فهمها هو تعريف إقْلِيمنضُس الإسكندريّ قبل قرون: «الصلاة هي حديث إلى الله».

والحديث يعني حوارًا أي تكلُّمًا وإصغاء. «إنّ قليلًا منّا

يفهمون الصلاة لأنّنا لا نجعل منها حديثًا». إنّنا نجعل منها مناجاة: «نقدِّم إنذارًا».

قال بعض الفلاسفة: «إنّ اليأس الأكثر إطباقًا لا يمكنه أن يستولي علينا ويأخذ بخناقنا مدّة طويلة، إذا فرَّجنا عن غمِّنا في قلب يفهمنا». هذا هو سرّ المعالجة المعروضة على النفس القلقة التي تجد مَن ينصح لها فتروي له بحُرِّيَّة شدائدها. وهذا هو السبب الذي يشفي القلب المحطَّم لالتفاته نحو الذي ينصح: «فتنفتح جميع القلوب، وتنكشف له جميع الرغبات والأسرار».

وذلك على الخصوص بأنّ الناصح هو الذي جعل في روحنا الرغبة العُليا التي تحتوي سائر الرغبات، وهو لا يبغي سوى أن يقودنا إلى تلبيتها.

«الصلاة هي في الحقيقة رغبة القلب الصادقة، وقليل منّا ينالون معجزتهم لأنّنا لا ننجح في فهم ما نرغب فيه أشدّ رغبة. وفي بعض الأحيان لا نبدأ حتّى في فهمه، سوى أنّ عالمنا ينهار وأنّنا نضطرّ إلى رؤية الحياة من ناحية مختلفة»[٢٠].

فالصلاة التي تُفْهَم على هذا الوجه هي جواب الله العمليّ للبريء الذي يعاني العذاب.

«عندما تكون حزينًا حتّى إنّه لا يمكنك أن تكون أشدّ حزنًا،

أصرخ!
وعلى خسارتك الأليمة تتلألأ
حركة سلّم يعقوب المضطربة

---

(٢٠) M. B. JOHNSTONE, *Non c'è preghiera senza risposta*, da «Better Homes and Gardens».

المقامة بين السماء و«شارِن كروسّ» (Charing Cross)
أجل، في الليل، أيّتها النفس، ابنتي
أصرخي!
وأنتِ تتعلّقين بالسماء،
بأهداب ردائه.
وهوذا يسوع يمشي على المياه
لا على بحيرة طبريّة بل على نهر التِيمس»[٢١].

الألم، فلنتناوله بملء أيدينا

«مَن يؤمن بالله عليه أن يفسِّر ألم الأبرياء. لكن، على مَن لا يؤمن أن يفسِّر الأمور كلَّها». (دنيس پراغِر) Dennis Prager.

يجب على الذي لا يؤمن أن يفسِّر جميع الإواليّات الفلكيَّة، والحراريَّة، والمطريَّة، والبيئيّة، وجريان الدم، والتنفُّس، والعظميَّة، والعضليَّة، والعصبيَّة، والتحوُّل الغذائيّ، والإحساسيَّة، والنفسيَّة، والاقتصاديَّة، والجنسيَّة، والغريزيَّة، والاجتماعيَّة التي تعمل بالتبادل المشترك، كما يجب عليه أيضًا تفسير القِيَم الجماليّة، والفكريَّة، والخُلقيَّة، والشخصيّات الإنسانيّة الناجحة، والأبطال، والمحسنين إلى الإنسانيَّة، والقدِّيسين. وعليه أيضًا أن يفسِّر أمر المؤمنين الكُثر الذين تنزل بهم أجسم المصائب، فلا يحافظون على الهدوء والسلام وحسب، بل يحصلون حقًّا من عذابهم على الفرصة السانحة والاندفاع الكلّيّ نحو تقدُّم روحيّ عجيب. فما وصلوا إليه من أبهى الجمال الخُلقيّ والسعادة الإلٰهيّة،

(٢١) F. THOMPSON, da *Liriche religiose inglesi*, trad. A. Castelli, Morcelliana, Brescia, 1948, p. 153.

ما كان له مبرّر من غير ألم الأبرياء، والكلام الخفيّ الذي به يشدّد الله عزائمهم ويؤيّدهم.

الألم رَحى: أن تسحقك أو أن تصقلك، فهذا أمر متعلّق بك.

إنّه سكّين حادّ. إن أمسكتَه برأسه جرحتَ نفسك، وإن أمسكته بقبضته تمكّنت من تقطيع الخبز.

إنَّ المصيبة حقيبةٌ ثقيلة، لكن، يمكنك نقلُها إذا أخذتها بقبضتها.

الفرق بين الحنان والمحبّة

للمحنة نتائج مختلفة في الأشخاص: كما الحرارة تُفسد السمن وتجعل التّفاح حلوًا.

يعتقد كثير من الناس أنّ الصلاة تساعد على الحصول على عمل جيِّد، وعلى الربح في اليانصيب الوطنيّ، وعلى الامتناع عن الصعود إلى طائرة ستتحطَّم. لكن ليس لهذا الاعتقاد الساذج أيُّ أساس في الكتاب المقدَّس. فالله لا يوقف عمل القوانين الطبيعيّة. ولا يُنفى أنَّه يُبطِل ببعض القوانين مفعول غيرها، فيحرّرنا هكذا من بعض الأضرار الماديَّة. لكن من المرجّح أنّ هذا ليس ممكنًا دائمًا. فالصلاة مفيدة خصوصًا لتُقيم اتّحادًا يربطنا به، فيبعث فينا الشجاعة لمكافحة الشدائد وتقبّل المحن التي لا بُدَّ منها بسلام، وهكذا نتجرَّد من الخيرات الزائلة في هذا العالم، ونغتني بالقِيَم التي تمنحنا السعادة الدائمة.

يُصلح الله القلوب المنكسرة إذا أعطيناه جميع أجزائها. لكن ليس من السهل تفسير كيف يمكن إلٰه محبّة أن يسمح بأن تنكسر

قلوب أبنائه، قبل أن يصلحها. يقتضي ذلك أن نرى آفاق العالم التي لا حدَّ لها، كما يراها هو، وهي آفاق لا يشعر الإنسان بأيّ ميل كان إليها، ما دام متعلِّقًا بخيرات الأرض. إنَّ النسر يرى أبعد من النملة.

إنّ الآباء والأمّهات اليومَ هم شديدو الحنان على أبنائهم. فهم لا يتحمَّلون الفكرة بأنّ أبناءهم قد يتألَّمون أو يُضطرّون إلى القيام بالتضحيات. لكنّ نتائج هذه التربية لا تدعو إلى الحماسة.

لا يمكننا إعطاءُ الأبناء كلَّ شيءٍ، من دون أن نعطيَهم في الوقت نفسه الضجر والرذيلة.

إنّ الفرق بين اللطف المتكلِّف والمحبّة هو أن الأوّل يهتمّ خصوصًا بألَّا يتألَّم الولد، في حين أنّ المحبّة تجعل في المرتبة الأولى نموّ الولد خُلقيًّا. ولكي ننمو لا بدّ من أن نتألَّم. بوسعنا أن نشبِّه الله بأب غنيّ يرى ابنه يميل إلى حياة مريحة سهلة لا تُتيح له الفرصة السانحة لأن ينمّي مقدراته الحسنة. ولهذا السبب نراه يطلب له عملًا خارج مؤسَّسته من غير توصية وحماية. إنَّه يريد أن يَثْبُت ولده في عمله بمفرده، من غير إعانات ماليَّة، وهو ينصح له ويساعده مساعدة خُلقيَّة، لكنّه يدعه يدبِّر شؤونه بنفسه في مواجهة الصعوبات الجمَّة.

فضيحة الفرق الكبير بين «الوَزَنات»

ليست المسألة ذات التفسير العسير هي أنّ الأبرياء يتألَّمون، بل إنَّ أُناسًا منهم يتألَّمون أكثر بكثير من غيرهم. فلا مساواة هناك في المصائر.

حتّى في مَثَل المسيح عن الوزنات، فقد تلقّى واحدٌ خمس وزنات، وتلقّى الآخر وزنة واحدة. فمن جهة، نرى خلائق مميَّزة،

إذ يمكنها الاستمتاع بنصيب حياتيّ - جسمانيّ وآخر وراثيّ - طبعيّ، وبتربية كلّها حنان وذكاء من قِبَل الوالدين، وبثقافة فكريّة وخُلقيّة ودينيّة جيّدة،، وبصداقات متينة، وبميزة عمل مؤاتٍ، أو بعائلة كريمة ووسائل اقتصاديّة رغيدة وبحياةٍ تجري أحداثها بسلام.

ونجد من جهة أخرى أُناسًا تظهر فيهم ميول وراثيّة شديدة إلى الانهيار أو إلى رذائل محدّدة، وقد نَمَوا من غير حبّ في عائلاتهم، وحُرِموا منذ الطفولة تربية متينة، ورزحوا تحت وطأة التسلّط، وأحاطت بهم بيئة شرسة أو ينتسبون إلى شعوب متوحّشة، أو مصابين بأمراض عقليّة، أو يعانون البؤس والجوع، أو غائصين في جهل مطبق أو يسحقهم عمل مضنٍ، أو عبيدٍ يظلمهم أصحاب عمل قساة، أو نساء يُعامَلْن معاملة مُتعةٍ للرجال وهلمّ جرًّا. إنّ المشكلة معقّدة جدًّا لأنّ آلافًا من العوامل تتشابك فيها. فَللذنوب البشريّة كما رأينا، نصيب كبير، ولا يرضى عنها الله، ولكنّه يُضطرّ إلى التسامح فيها. وسيُعيد كلّ شيء إلى نصابه في آخر الحساب.

ولكن حتّى في هذا العالم، لا يصحّ القول إنّ جميع الذين يبدون مُوفّقين هم سعداء حقًّا. فإنّ أهل الفئة الأُولى الذين نالوا الخيرات أكثر من غيرهم يحملون في بعض الأحيان عبء آلام ليس أقلّ من العبء الوسط لأصحاب الفئة الثانية. هناك إواليّات نفسيّة تُصلح فروق المستوى في النصيب الذي من أجله يكتسب الواحد اكتئابًا مفرطًا فيفقد النوم بسبب حصاة تحت فراشه، في حين أنّ رجلًا آخر ينام سعيدًا على الحضيض.

أمّا في موضوع الألم فلا نستطيع أن نرى إلّا ما يظهر من الشكوى والإعياء الجسمانيّ. فليس لدينا آلات ناظرة للمراقبة، ولا آلات إحساس كهربائيّة، أو إبرٌ متحرّكة تحسب موضوعيًّا الألم

الحقيقيّ. نحن نعلم أنّ أناسًا يمثّلون تمثيلًا أكبر للتعبير عن غمّهم، فيقومون بردّ فعلٍ أكبر من أجل الحدث الحسّيّ نفسه. ونعلم أيضًا أنّ المرء تجاه شدّة واحدة يمكنه أن يتألّم أكثر أو أقلّ بحسب نوع الإحساس، الطبع، الإيمان، طريقة التفكير، وكيفيّة مجابهة المحن. إنّ مقياس الألم هو اختراع خارج عن كلّ قدرة.

لمّا لم يكن لدينا أسباب تشبيه باطنة، يبدو أنّ الموقف الأكثر حكمة هو أن نفكّر في أنّ الله يقيس البرد على قدر الثياب، أي إنّه يحسب المساعدات الباطنة على قدر جسامة المحنة، فيدع في أثناء ذلك، واجب القيام بالمساعدة لمَن كان لديه الثياب، لكي يوزّع منها على قدر البرد.

نحن على أنواعٍ مختلفة لكي نتعاون ونتكامل بتبادل.

إنّ الذي لا يغذّي هذه الثقة الأساسيّة بالله وبعنايته يُحمَل على أن يجعل في برنامجه: إذا كانت المصيبة تنذر بأن تسحقه، سيمكنه في كلّ حين أن ينهي أمرها. ولا يمكن النكران أنّ شعور المرء بأنّ المصيبة تسحقه هو إحساس كيفيّ وذاتيّ جدًّا، يشعر به كثير من الناس في أيّامنا حتّى من أجل فحص أخفق فيه صاحبه.

دروس التعويض بعد الموت

إذا صحّ القول إنّ بعض الأبرياء يبدو أنّهم يتألّمون أكثر من غيرهم، فهذا لا يعني أنّ هؤلاء مُعفون للأبد من الاطّهار من الألم الذي لا بُدَّ منه. ذلك بأنّ الكلام يدور على أبرياء على وجه غير مفرط، أي إنّهم يجعلون الهدف الأوّل في المرتبة الثانية أو الثالثة بعد أصنامهم. حتّى إذا جرت حياتهم من دون آلام عظيمة مروّعة، فإنّ تطهيرًا يُقال له «المَطْهَر» ينتظرهم بعد الموت، بحسب التقليد الكاثوليكيّ والمنطق. إنّه التطهير في المَعَاد.

إنّ الهدف الأوّل وهو المشاركة في حياة الله نفسه، هدف مجيد بهيّ جدًّا، حتّى إنّه يستحقّ ما يتطلّبه من العناء والتضحيات. فقد قال السيِّد المسيح: «مَثَل ملكوت السماوات كمَثَل كنز دُفن في حقلٍ وجَدَه رَجُلٌ فأعاد دفنه، ثمّ مضى لشدّة فرحه فباع جميع ما يملك واشترى ذلك الحقل». (متّى ١٣/ ٤٤).

إنّ القدّيسين والمؤمنين الصادقين، وهم قليلون، يتقبّلون هذا العناء راضين، فيسيطرون على أجسادهم ونزواتهم لكي يحبّوا الله وإخوتهم حبًّا حقيقيًّا. إنّهم أشبه بالعاملين لحسابهم يدفعون طوعًا للضمان الاجتماعيّ أقساطًا عالية لكي يحصلوا في حينه على تقاعد أفضل. لن يحتاجوا بعد موتهم إلى مطهر طويل.

إنّ الأبرياء غير القدّيسين والذين يتألّمون في هذا الدهر أكثر من سواهم هم أشبه بالعاملين بالأجرة الذين تُحسم أقساطهم للضمان من أجرتهم. فهؤلاء أنفسهم يسعون إلى تقبّل مِحَنهم ويتجرّدون من أصنامهم ولن يحتاجوا إلى كثير من الاطّهار في المطهر.

أمّا الأبرياء غير القدّيسين الذين يتألّمون أقلّ من سواهم في هذا العالم فهم أشبه بهؤلاء العمّال الذين لم يدفعوا أقساطًا طوعًا، فكان ما حسم من أجرتهم غير كافٍ. وعندما بلغوا سنّ التقاعد لمّا يَزل عليهم أن يدفعوا أقساطًا، ففعلوا ذلك في المطهر.

لا يُفهم هذا كلّه في منطق التجارة: «أدفع لكي أنال»، لكن في رؤية المجّانيّة وعطاء الحياة الإلٰهيّة من لدن الله هو عطاء سامٍ جدًّا، حتّى إنّه يتطلّب من الإنسان عناءً وبذلًا لكي يُستوعب.

ويظهر ذلك على وجه أحسن في تشبيه الطلّاب.

إنّ القدّيسين والمؤمنين الصادقين هم أشبه بالذين أكبّوا على الدرس وحصلوا على ترفيع ممتاز. لقد بذلوا أنفسهم في هذه الحياة، ولا حاجة بهم إلى المطهر.

أمّا الأبرياء غير القدّيسين الذين يتألّمون أكثر من سواهم في الحياة الأرضيّة فيمثّلهم هؤلاء الطلّاب الذين نالوا علامات أقلّ في الثلاثة الأشهر الأولى، فبذلوا جهدهم ودرسوا في الثلاثة الأشهر الثانية والثالثة، فنجحوا آخر الأمر ونالوا الترفيع بتصويت جيّد. لقد أتمّوا مطهرهم في هذا العالم.

وأخيرًا، الأبرياء غير القدّيسين الذين لم يقوموا من أجل تقدّمهم بتضحيات عفويّة أو فرضتها الضرورة، يمثّلهم التلاميذ الذين أهملوا دروسهم في أثناء العام الدراسيّ، ففُرض عليهم، كي يعوّضوا عن الوقت الضائع، الدراسة في فصل الصيف أو بقائهم في الصفّ ذاته.

إنّ تشبيه الطلّاب يوضح أيضًا إيضاحًا حسنًا عقيدة **الجوهر الذاتيّ**، أي الصفة الجوهريّة التي يتمتّع بها «الفردوس» و«المطهر» والهلاك - «جهنّم» -، وهي عقيدة يمكن استنباطها من الكتاب المقدّس.

«مَثَل مَن يسمع كلام الله ويعمل بموجبه كمَثَل مَن يبني بيته على الصخر، فالعواصف لا تهزّه ومثل هذه المتانة تأتي في جوهرها من عمله. أمّا مَن لا يسمع، أو لا يعمل بالكلام، فإنّه يبني بيته على الرمل. فانهيار البيت الجزئيّ أو الكلّيّ في العاصفة، ليس عقابًا من لدن الله، وليس عقابًا يأتي من الخارج، بل **النتيجة الجوهريّة والحتميّة لاختياراته**» (لوقا ٦/ ٤٧-٤٩).

٨ - التناسخ

أين يكون مزيدٌ من العدل؟

إنّ مصير الإنسان بعد الموت على أنّه نتيجة جوهريّة ولا مفرّ منها لاختياراته السابقة، يُعرض في اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام. «فيجازي الله كلٍّ واحد بحسب أعماله» (روم ٢/٦؛ ١ بط ١/١٧ إلخ). وتتناوله أيضًا عقيدة «كارما» في الهندوسيّة والتناسخ، وهي مقبولة اليوم في أوروبّا وأميركا[١].

«إنّ الذين يسيرون في الدنيا سيرة حسنة يولدون ولادة جديدة هنيئة: فيصبحون كهنة، محاربين، أو تجّارًا. لكن الذين كانت سيرتهم في الدنيا سيّئة سيولدون ولادة جديدة سيّئة: سيصبحون كلابًا، خنازير، أو منبوذين[٢]. وكما أنّ النفس (المتجسّدة بالحرف الواحد) تمرّ بالطفولة والشباب والشيخوخة وتبقى هي هي دائمًا أبدًا، فهكذا تبقى خلف تبدُّل الأجساد»[٣].

إنّ عقيدة التناسخ، أوّل وهلة، تساعد على حلّ مشكلة الألم البريء والتفاوت الفاضح بين المصائر في الدنيا على قدر مساوٍ، لا

(١) بحسب استفتاء أجرته مؤسّسة European Value System في العام ١٩٨٤، إنّ هذه العقيدة تُعْتَبَر مقبولة لدى ٢١٪ من البالغين في أوروبّا الغربيّة.
(٢) الشاندوغيا أوبانيشاد، ٥، ١٠.
(٣) البهاغافاد - جيتا، ١١، ١٣.

بل على قدر أحسن من عقيدة الكتاب المقدّس التي عرضناها حتّى الآن.

يسائل جون كُورت دوكاس نفسه John Curt Ducasse: «كيف يتّفق أن يولد أحدٌ عبقريًّا والآخر أبله؟ أحدٌ جميلًا، والآخر قبيحًا؟ أحدٌ سليم الجسم والآخر مشوَّهًا؟ إنّ تصوُّر الولادة الثانية في الأرض، قد تحدث بعد فترة يقضيها المرء، وهو يقطّر من ذكريات حياة بالكاد مرَّ بها مرورًا، الحكمة كلّها التي استطاعت قُدُراته الفكريَّة استنباطها منها. إنّ ذلك التصوير يجعلنا نؤمن على وجه ما بعدالة تسود العالم[٤].

يُضاف إلى ذلك: «أيكون أفضل الناس أنفسهم، عند ساعة الموت، في حالة كمال خُلقيّ وفكريّ تجعلهم مستحقّين الصعود إلى السماء في الحال. هذا أمر معترف به اعترافًا شاملًا، ويَعمد الناس على العموم إلى حَلَّين لمعالجة المسألة. الحلّ الأوّل هو أن يحدث تقدُّم عظيم على الإطلاق بمعزل عن كلّ تقدير ممكن في الحياة، عند ساعة الموت. والحلّ الآخر - وهو الراجح - أنّه يمكن حدوث مَسار تحسُّن تدريجيّ في كلّ واحد منّا بعد موت أجسادنا في حالتها الحاضرة (بالتناسخ)»[٥].

فلماذا إذًا بين الناس هذا الفرق الصارخ في المواهب والمقدرات والمؤهّلات والصحّة والرفاهيَّة والثروة وحتّى في الميل إلى الفضيلة أو الرذيلة منذ سني الحياة الأولى؟ تجيب عقيدة التناسخ: يبني كلّ امرئٍ هو بنفسه مصائره الخاصّة، ومن خلال

---

(٤) S. L. CRANSTON - J. HEAD, *La Reincarnazione*, Armenia, Milano, 1973, p. 294.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

حيوات الحرمان والعذاب يكفِّر عن الرذائل في حيواته السابقة، في حين أنَّه في حيوات الميل إلى الخير والرفاهيَّة يجني ثمرة جهوده الخلقيَّة الماضية ويتأهَّب للحياة الأبديَّة.

نجد في عقيدة التناسخ بعض الأفكار الأساسيَّة التي توافق تعليم يسوع:

- خَلَقَ الله الإنسان لهدف عظيم
- وهو الوصول بعد الموت إلى المشاركة في الحياة الإلهيَّة
- كي يتمكَّن الإنسان من الحصول عليها، يجب عليه أن يتقدَّم خلقيًّا.
- إنّ مصير الإنسان بعد الموت هو نتيجة جوهريَّة حتميَّة لاختياراته الخلقيَّة السابقة.

غير أنّ عقيدة التناسخ تبتعد عن الإنجيل لأنّها تشجِّع الاحتقار والجمود حيال المُعدِمين والمعوقين والمرضى الزمنى... إلخ. الذين كانوا يكفِّرون عن الخطايا الجسيمة في حيواتهم الماضية بحيث يجب ألَّا يُحال بينهم وبين ذلك التكفير. في الهند، أنشأت هذه النظريَّة نظام الطبقات، النظام الاجتماعيّ الجائر، وهي تحافظ عليه.

إنَّ التناسخ لا يأخذ في الحسبان تأثير المصادفة. كما أنَّ العلم، كما رأينا، يحملنا على التسليم بالمصادفة، إمّا في خلق الإنسان، وإمّا في مصير الأفراد. فلو كان الناس في حياتهم الأُولى على الأرض قد انطلقوا جميعًا من مكان واحد، وقد وُهب لهم جميعًا مقدار واحد من الميول الحسنة، وحُفِظوا من الميول السلبيَّة، لكان من العدل أن يولدوا اليوم أبعد أو أقرب من مكان وصولهم، بحسب المسار الذي قاموا به في حيواتهم السابقة. ولكن بما أنَّ

للمصادفة والطالع دائمًا شأن غالب في توزيع مصائر هذا العالم، فإنّ التناسخ يقتصر على إبقاء حسن الطالع أو سوئه الأوّليّين.

تختلف عقيدة السيِّد المسيح كثيرًا عن هذه الوجهة. فالله يُعنى عناية روحيَّة خاصَّة بالفقراء، واليائسين، والبائسين. فهذا يعني أنّه يبغي تعويض، بتأثيرات داخليّة، خسارة أوّليَّة على طريق السعادة النهائيّة، وهي خسارة أنشأتها المصادفة ولم يشأها الله هو بنفسه مباشرة.

لا يُنظر إلى الله، في تعليم يسوع، كما يُنظر إلى شاهد فحسب. أجل، إنَّ الإنسان صانع مصيره، لكن بحسب قدراته التي تلقّاها. لا يعرض السيِّد المسيح هدف الحياة الإنسانيّة كثمرة لمسار التطوّر الذي يقوم به الإنسان وحده على الإطلاق.

من الصواب حقًّا، على ما ورد في الإنجيل، أنّ الله يحثُّ الناس أصحاب الوَزَنات على المتاجرة بها واستعمالها لخدمة الآخرين للوصول إلى السعادة الدائمة، لكنّ هذه الفريضة تظهر على قدر المواهب المتلقّاة. فالخادم الذي جعل الوزنتين تربحان، يدخل مثل الذي تاجر بخمس وزنات نعيم السيِّد (متّى ٢٥/ ١٤-٣٠). والكرّامون الذين استؤجروا للكرم ساعة واحدة بغير ذنب منهم، ينالون المكافأة نفسها التي تلقّاها الآخرون (متّى ٢٠/ ١-١٦).

إنّ النجاحات المتطوِّرة التي تتمّ في هذه الحياة يقدِّرها الله لا بحسب النتائج المحقَّقة والخدمات الخارجيّة المقدّمة، بل خصوصًا بحسب الحميَّة المبذولة لتحسين الإنسان نفسه والانفتاح على الله في الثقة والإيمان.

نجد في هذا المنظر مفتاح قراءة لفهم حالة الذين لم يستطيعوا في الحياة سلوك طريق تطوُّر نفسيَّة وفكريَّة وخُلقيَّة مُرضية. إنّهم

الفقراء، فقراء الخيرات الاقتصاديّة، والصحّة الجسديّة أو الفكريّة، أو الوقت الذي عاشوه أو فقراء المواهب والقدرات التي تؤمّن النموّ. إذا فعلوا ما استطاعوا أدركوا لوقتهم، من غير اتّباع مسار الخطى الصغيرة، تجديد البنية الجوهريّ بتدخّل من الله مباشر ونتيجةً للاتّحاد بجمال المسيح الخُلقيّ. ولدينا مثال على ذلك في اللصّ التائب. فقد انفتح على السيّد المسيح بقدر الإمكانات التي تلقّاها في حياته، فسمعه يقول له: «الحقَّ أقول لك: ستكون اليومَ معي في الفردوس» (لوقا ٢٣/ ٤٣).

يوجز مطران شتوتغارت Stuttgart ڤالتر كاسپر تعذّر التوفيق بين نظريّات التناسخ والإيمان المسيحيّ على هذا النحو:

أ - السبب الأوّل ينتج من نظرة الكتاب المقدَّس إلى الزمان والتاريخ. فالكتاب المقدَّس يركِّز على وحدة عمل الله وعدم تكراره في التاريخ... يجب على الإنسان لكي يصير حكيمًا أن ينتهز الوقت الحاضر (أفسس ٥/ ١٦ قول ٤/ ٥) لأنّ «الناس لا يموتون إلّا مرّة واحدة» (عب ٩/ ٢٧). ليست الحياة لعبًا. لا بُدَّ من اتّخاذ قرارات حاسمة. إنّ نظريَّة التناسخ بموجز الكلام تُيَسِّر ميل الإنسان الشديد إلى عدم الإقبال بجدّيَّة على مكافحة الرذيلة والخطيئة، لأنّه يرى مهما كان الأمر، إمكانيَّة المعالجة في الحياة المستقبليّة.

ب - هناك سبب آخر يتناول تصوّر وحدة النفس والجسد في المفهوم المسيحيّ. فالنفس هي صورة الجسد الجوهريَّة. والجسد هو التعبير عن النفس ورمزها. أَيمكن ضمان هويَّة النفس أو الشخصيَّة، إذا لم تظهر الشخصيّة في صور جسديّة مختلفة تباعًا؟ ألا يَعني ازدراء الجسد بشكل تامّ أن نتصوَّره قشرة خارجيَّة نتخلَّص منها آخر الأمر بكلّ بساطة. إنّ نظريَّة التناسخ لا تأخذ في الحسبان أمرًا

أثبته العلم الحديث إثباتًا واسعًا، وهو أنّ الجسد، بما يمتلك من الذكريات والمشاعر والأفكار المُكتسَبة والميول المسيطَر عليها والمستثمرة، هو دائمًا جزءٌ لا يتجزّأ من شخص الإنسان.

ج - وآخر الأمر أنّ عقيدة التناسخ هي في الأساس عقيدة افتداء الإنسان نفسه أو تحقيقه نفسه، في حين البلاغ الجوهريّ هو أنّ كمال الإنسان ليس من صنعنا وثمر سعينا، بل بالأحرى عطاء من نعمة الله. يؤكِّد مار بولس مرّات كثيرة بشدّة بارزة أنّنا لا ننال البرّ بأعمالنا وبما نقوم به، بل بالإيمان بنعمة الله في يسوع المسيح. فالإنجيل، كما رأينا في الصفحة السابقة، يجعل مكان الصدارة لله في عمل خلاص الإنسان تدريجيًا[٦].

أمّا وقد أخذنا بهذه الاعتبارات، فلا يزال يصحّ القول إنَّ، حتّى في الإنجيل وعلم اللاهوت الكاثوليكيّ، ثمّة مكانًا لعمل التطوّر الخلقيّ والروحيّ البطيء تساعده النعمة على إتمامه في هذه الحياة أو في ما بعدها.

إنّ عقيدة المطهر الكاثوليكيّة التي تنجم عن الاستنتاج من الكتاب المقدّس، إذا طُهِّرت من الشعارات الشعبيّة التي ليست جزءًا من جوهرها، تدخل في دائرة الأفكار هذه. لا يقتصر هذا الجوهر على تصوُّر التكفير ومجرَّد التطهير من الذنوب، بل يمكنه أن يمتدّ إلى كلّ وجه من التقدُّم الروحيّ. فإنّ الناس في مرحلة من التجارب التابعة للوفاة، لا يمكنهم بعد ذلك زيادة ثوابهم، لكنّهم يستطيعون بعلاقات شخصيَّة متبادلة وأفراح وآلام وبحوث واكتشافات وحسرات وصلوات وممارسة فضائل كانت مفقودة إلى ذلك

(٦) W. KASPER, «Reincarnazione e Cristianesimo», in *L'Osservatore Romano*, 16/3/1990, pp. 1, 4.

الحين، الاستعداد لفحص إنقاذ، أي الوصول إلى النهاية بهذا المسار الذي بُدِئَ به في الحياة الأرضيّة والذي جعله بعضهم يتقدّم أكثر والآخرون أقلّ.

جميع هؤلاء الذين لبؤسهم أو جهلهم أو قلّة صحّتهم العقليّة أو النفسيّة، أو لذنوب ندموا عليها، لم يستطيعوا أن يتطوّروا روحيًّا في هذا العالم، سيجدون إذًا في المَعَاد أحوالًا جديدة لحياة طمأنينة يقيمون فيها بتجارب إيجابيّة، ويكتشفون ويتعلّمون ممارسة الفضائل والقِيَم التي تكوّن شرطًا ليشاركوا مشاركة الأبناء في حياة الله.

يتلقّى أيضًا أنصار التناسخ موافقات بداعٍ من فرضيّتهم لتطوّر وتقدّم إنسانيّ وروحيّ يتواصلان بلا نهاية. لا يمكن أن تكون السعادة ثابتة. ولا تلقى هذه النظرة عقبة في الوحي المسيحيّ. فعلم اللاهوت الكاثوليكيّ، من غير أن يُضطرّ إلى قبول التناسخ، يُسلِّم هادئًا أنّه في الحياة الأبديّة حيث حالة السلام والفرح والاتّحاد بالمحبّة بالله هو ثابت ونهائيّ، يمكن التقدُّم على وجه مستمرّ في المعرفة الإنسانيّة وفي علاقاتنا بالآخرين وبالكون.

يرى الغربيّون القليلو الإيمان أنّ التناسخ رجاء، ويراه الشرقيّون قضاءً، وهم بواسطة التأمُّل اليوغي يرون كم تحمل حياة الحواسّ من الشقاء، وكم تحمل من الحرّيّة حياة الروح. نحن المؤمنين الغربيّين والشرقيّين نرى في التناسخ، بالتأمُّل المسيحيّ، حكمًا يخلِّصنا منه المسيح.

٩ - التأمُّل الشرقيّ

اليوغا (yoga)، الزِين (Zen)، والصلاة التأمُّليَّة المسيحيَّة

ثمَّة دواء فعّال للحصول على السلام في الألم، هو التأمُّل العميق والصلاة التأمُّليَّة. نلاحظ في شأن ذلك أنّ الاضطراب الروحيّ في الحياة العصريّة يحمل اليوم كثيرًا من الناس على طلب الهدوء الباطن والتوازن الجسديّ، في مختلف الحركات الدينيّة، وفي طرائق تأمُّل أصلها هندوسيّ وبوذيّ، كالتأمُّل اليوغيّ أو الزين أو التأمُّل التجاوزيّ.

كتب الكردينال راتزنغر: «بوسع هذه الطرائق أن تساعد المسيحيّ مساعدة مفيدة على الاستعداد للصلاة والوصول إلى دعاء السكينة (أي من دون كلام، والاستسلام إلى الله)، لكنّها تبتعد عن المسيحيّة عندما تستوحي منهجها من عقائد تُنكر محبّة الله، شأن الحلوليَّة أو التناسخ. وهي غير مقبولة عندما تتحوَّل إلى عبادة الذات وتدمج الإحساسات التي يحسُّ بها كلّ امرئ في عمل الروح القدس».[١]

يكون المرءُ على عكس ذلك، متّفقًا على وجه تامّ مع التأمُّل

---

(١) ج. راتزنغر: «بعض مظاهر التأمّل المسيحيّ»، صدر في مجلّة ***Avvenire***، ١٥/١٢/١٩٨٩، ص ١٣.

المسيحيّ عندما يبغي السيطرة على الأهواء والشهوات الدنيويّة تهيُّؤًا لقبول محبّة الله والقريب.

يقول «الإتيفوتّاكا» *(l'Itivuttaka)* وهو نصّ بوذيّ يؤيِّد تأمُّل الزين: «إنّ الشهوة التي تستعر في الكائنات، والبغض الذي يهيجهم، والعماوة التي تضلّلهم، والغضب الذي يغيظهم، والرياء الذي يفسدهم، والعجب بنفسهم الذي يسكرهم، تقود الكائنات إلى طريق السوء. فالحكماء بما لهم من تمام المعرفة يتخلّون عن هذه الطرائق، وبعد هذا التخلّي لن يعودوا إلى الدنيا»(٢).

حتّى ولو اعترفنا بقيمة السلام في الطرائق الشرقيّة، يجب علينا أن نتذكّر أن التقشُّف المسيحيّ بعون الله يُنتج منذ قرون، بأساليب شبيهة، نتائج عجيبة لا في إحلال السلام فحسب، بل في المحبّة والتقدُّم الروحيّ أيضًا، على الإنسان الحديث ألّا يجهله. إنّ الإنسان الحديث في تعشّقه التأمّل الغريب يشبه ذلك الشابّ الذي لم يهتمّ قطّ بالسُونه (Sauna) التي كان جدّه يُدير دارًا لها، فعاد من رحلة إلى فنلنده وقد أخذت السونه منه كلّ مأخذ فاعتقد أنّه هو مَن اكتشفها.

إنّ العناصر المهمّة لغير المسيحيّين والمسيحيّين على السواء، هي الموقف الموافق للجسد، والارتخاء الجسمانيّ والذهنيّ والتنفّس البطيء. فنفي كلّ فكر وخيال أو عاطفة عند كلّ مَن يقوم بِـ كِريّا – يوغا أو راجا – يوغا أو زين هو إراديّ، لأنّ الهدف هو أن يفقد المرء الشعور بذاته المفردة ويحصل على معرفة الكائن الشامل، وذات الإنسان جزء منه، وفقدان الشعور والمعرفة يُقال له «صَمَدْهِي» في اليوغا و«ساتوري» في الزين.

---

(٢) إتّيفوتّاكا ١، ٦.

إنّ علماء التصوّف المسيحيّ الكبار يعلّمون التأمُّل بواسطة أفكار ومشاعر وحوارات في حياة المسيح والمحبَّة التي أظهرها الله لنا فيه، وبأن نجهد للاقتداء بفضائله. وهكذا بعد حين يحدث مرّات كثيرة أنّ المرء يصل إلى دعاء سكينة هو وقفة مفيدة جدًّا وعفويّة للأفكار والمشاعر، والراحة في الله، ومفيدة جدًّا لتسكين النفس وتجريدها من الأهواء الدنيويَّة وتقويتها في المحبّة المقدَّسة. هناك بعض الشبه بالبهاكتي يوغا (يوغا محبّة الله) التي تمارس في الجزء غير الحلوليّ من الهندوسيّة.

إنّ فقدان الوعي الدماغيّ بشكل تامّ والحصول على معرفة أنَّ كلّ واحد في المحبّة مع الله ومع الإخوة والأخوات المتّحدين به، يُقال لهما في التصوُّف المسيحيّ الجذب، ويجب ألّا نطلبه بالإرادة لأنّه عطاءٌ من الربّ، يمنحه عندما تكون النفس مطهَّرة(٣).

تُعلِّم اليوغا: «عندما أتأمَّل أكون أنا الوعي نفسه (أي البراهما). إنَّ اليوغيّ، وعيناه مغلقتان أو نصف مغلقتين والنظر موجَّه إلى الباطن، يتأمَّل فوق الوسط القائم بين الحاجبين، شكل المبدأ الساطع الذي لا يوصف، وكلُّه وجود وشعور وفرح. وهو يضيع فيه»(٤). يجب على اليوغيّ أن يراقب نفسه دائمًا ببقائه في العزلة وحده. يجب على الروح أن يكون مُرَوَّضًا، لا شهوة له ولا تعلُّق. فليعدَّ لنفسه في مكان نظيف مقعدًا متينًا، غير مفرط الارتفاع ولا الانخفاض، ومغطّى بأقمشة وجلد. فليجلس إلى هذا المقعد، وذهنه مركَّز بعد كبحه كلّ نشاط فكريّ وحواسّيّ، وليمارس اليوغا

---

(٣) J. M. DECHANET, *Yoga per i cristiani*, Ed. Paoline, Modena, 1976; H. E. LASALLE, *Meditazione Zen e preghiera cristiana*, Ed. Paoline, Roma, 1979.

(٤) يوغا أو بانيشاد ١، ٢.

ليطهِّر نفسه. فليلزم السكون التامّ، وليتصب جسدًا ورأسًا وعنقًا انتصابًا تامًّا، من غير حراك، وليحدِّق النظر إلى رأس أنفه. وليكن هادئًا تمامًا، متحرِّرًا من كلّ خوف، وفيًّا للعفاف، مالكًا فكره، وروحه مملوءة من البرهما، وليبقَ مركَّزًا، متوجِّهًا إلى ذاته. واليوغي الذي يسود ذهنه ويمارس دائمًا هذه الرياضة يفوز بالراحة والسلام الأعلى الذي مقرُّه البرهما[٥].

ولكن، هل من الضروريّ أن يذهب المرء للبحث عن الخبز في أقاصي الأرض عندما يمكنه أن يجده في بيته؟ وإن دعت الضرورة فسنأخذ من البلاد الاستوائيّة التوابل لكي نجعل لها طعمًا. علّمت تريزيا الأفيليّة أنّ الذين يلازمون التأمُّل (وقد دلّت على أساليبها) بوسعهم أن يتوقّعوا الوصول إلى دعاء السكينة في وقت قصير نسبيًّا، في ستّة أشهر أو سنة[٦].

لدينا في تقليدنا المسيحيّ طرائق بسيطة لدخول الصلاة التأمُّليّة في دعاء السكينة. تؤخذ إحدى هذه الطرائق من كتاب شائع جدًّا في هذه الأيّام، يدعى غمام الجهل *La nuée de l'inconnaissance* *(The Cloud of Unknown)*، لمؤلّف كاثوليكيّ إنكليزيّ مغمور من القرن الرابع عشر[٧].

وتعود إلى القرون المسيحيّة الأُولى طرائق صلاة الرهبان المسيحيّين المعروفين برهبان السلام الباطن الذين ذكرهم مار يوحنّا السلّميّ والذائعة الصيت «الفيلوكاليّا»[٨].

---

(٥) بهاغباد جيتا ٦: ١٠-١٥.

(٦) B. PENNINGTON, *Respiriano Dio ogni giorno*, Ed. Paoline, Roma, 1980, p. 43.

(٧) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(٨) يوحنّا السلّميّ، الآبائيّة اليونانيّة، ٨٨: ١٠٩٦-١١٢٩. *La Filocalia*; Ed. Gribaudi, Torino, 1987.

قالت تريزيا الأڤيليَّة في كلامها على دعاء السكينة وهو الدرجة الأولى فحسب لصلاة التأمُّل المسيحيّ: تدخل النفس من الآن فصاعدًا في السلام أو بعبارة أفضل، يُدخلها الربّ فيه بحضوره الإلٰهيّ. عند ذاك تستريح جميع القوى وتعرف النفس معرفة أوضح بكثير من المعرفة بالحواسّ الخارجيَّة، أنّها قريبة من إلٰهها، حتّى إنَّها بارتفاعها أيضًا قليلًا قد يَصِل بها الأمر إلى أن تصير هي وهو شيئًا واحدًا في الاتّحاد. ويبدو لها أنّه لم يبقَ لها شيء تشتهيه. فقواها عند ذاك تكون في راحة ولا تجرؤ على الحركة. كلّ شيء يبدو لها عائقًا في وجه أن تحبَّ بطريقة فضلى. مع ذلك، فهي ليست غافية حتّى إنّها لا تشعر بالذي هو قريب منها(٩).

بمعزلٍ عن المسيح، لا جواب تامًّا عن كبرى المشكلات

يدخل المرء، بهذا النوع من التأمُّل، عمق رسالة المسيح ومثاله: الله محبّة(١٠) ومشاركة، ويأخذ على عاتقه ألَمنا لكي يجعل منه سلَّم تقدُّمٍ روحيّ وتأليهًا.

إنَّ المسيحَ والوحيَ الإلٰهيّ ضروريّان للإجابة عن كبرى المعضلات إجابة ملائمة: معنى الحياة، دور الألم، والطريقة في كسر شوكته القاتلة.

ولكن ألا يكون السيِّد المسيح سوى شخص نصف أُسطوريّ لا نعرف عن تاريخه سوى القليل؟ أيَّ أدلّة أقامها على أنّه أتى بوحي من عند الله؟ أيُّ فرق بينه وبين سائر كبار حكماء الإنسانيَّة؟

---

(٩) Th. d'AVILA, *Cammino di perfezione*, XXXI, 1-3.

(١٠) وليست المحبّة مجرّد عاطفة، بل إرادة الخير وبذل الذات.

هذه هي الأسئلة التي نسعى للإجابة عنها في الجزء الثاني.

ليس الإيمان إيمانيّة

الإيمان قصر طريف فيه منحدر وجسر متحرِّك وحصون وأبراج مستديرة رشيقة ترتفع في السماء ارتفاعات مختلفة، وتعلوها أعلام تصفّق في الريح. لكن إذا أراد المرء أن يسكن فيه وجب عليه أن يتأكّد أنّ المسألة ليست مسألة شريط سينمائيّ يُقصد به تأثيرات خاصّة، وأنّ القصر هو من الحجر والقرميد المتينين وأنّ له أساسًا حقيقيًّا على أرض حقيقيّة.

يبدو لبعض المؤمنين أنّ المسألة ليست مشكلة. فالأمر المهمّ عندهم هو أن يظهر الإيمان في منظر يدعو إلى الارتياح، إذ يمكن التعلُّق به تجاه القلق من الموت. كتب فيتّوريو مسّوري Vittorio Messori: «تُبنى بنايات هندسيّة على الأناجيل، لكنَّ قليلًا من الناس يتزلون إلى القبو مع الذي يصغي إليهم، ليُرى إذا كان في المكان أسس حقيقيَّة. فقليل من الناس يحاولون سبرها ليعرفوا: هل لا يزال إلى اليوم متينًا حجرُ الزاوية الذي عليه يقوم إيمانهم وكنيستهم كما يقولون؟»[١١].

من سوء الطالع أنّ الإيمان في رأي كثير من الناس هو اختيار كيفيّ حُرّ مثل هواية السير أو العمل في حديقة الدار، ولا يدعو إليه سوى الميل الطبيعيّ والعاطفة والحاجة الباطنة: فهو رأي شخصيّ على وجه تامّ، واختيار لا يحتاج إلى فحص أمره. أجل، إنَّ هذه العقليّة شائعة، لكن ليس هذا إيمانًا. هذه هي الإيمانيّة، تؤمن

---

(١١) V. MESSORI, *Ipotesi su Gesù*, SEI, Torino, 1976, p. 18.

الإيمانيَّة بأنّها تؤمن، ودواعيها ليست سوى أنَّ المسيحيَّة شعر سامٍ يلبّي حاجات العاطفة.

من غير انتقاص قيمة هذه المظاهر، فالإيمان العاقل يؤمن معتمدًا على أحداث حسِّيَّة يمكن تحقّقها. لقد رأينا بعضها، لكن الحدث الأمتن والأغنى والأكثر إقناعًا هو أنّ عظمة شخص السيِّد المسيح ليست شعرًا بحتًا، بل هي تاريخ أيضًا.

يسوع المسيح هو الحجّة الأقوى على الإلحاد وفي الوقت نفسه على الإيمانيَّة. ذلك بأنّه ظهور وحيد لله، وهو في الوقت نفسه سامٍ وقابل للتحقيق واللمس، سرِّيّ وملموس، يفوق القدرات البشَريَّة، وقابل للمراقبة في التاريخ، في الماضي وفي الحاضر على السواء.

ليس الإيمان هو الذي أنشأ المسيح، بل المسيح هو الذي أنشأ الإيمان.

فميزة المسيح الفائقة الفريدة ليست مطبوعة في قلب المؤمنين، إلّا لأنّها كانت قد طُبعت من قبل في ما للأشخاص والمؤلَّفات التي شهدت لها من عدد وجودة وقِدَم وصدق تاريخيّ؛ شهدت لها في صفاء شخصيّته وبهائها، وفي طرافة عقيدته وقدرتها وعمقها، ولا يمكن أن يكون تلاميذه قد ابتدعوها في المعجزات الروحيّة والمادّيَّة التي قام بها في الوجوه الصالحة العظيمة التي بعثها في كلّ عصر، وفي عصرنا أيضًا. لقد أثبت ذلك كلّه مؤرِّخون ومفسِّرون في السنين الخمسين الأخيرة بأدلَّة جديدة متينة. وذلك ما سنراه في الجزء الثاني.